مِنْهَاجُ الأُبْرار

شرح كتاب

التوبة والاستغفار

لشيخ الإسلام ابن تيمية

تأليف

الشيخ علي أحمد عبد العال الطهطاوي

رئيس جمعية أهل القرآن والسُّنَّة

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى

٢٠٠٤ م - ١٤٢٥ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

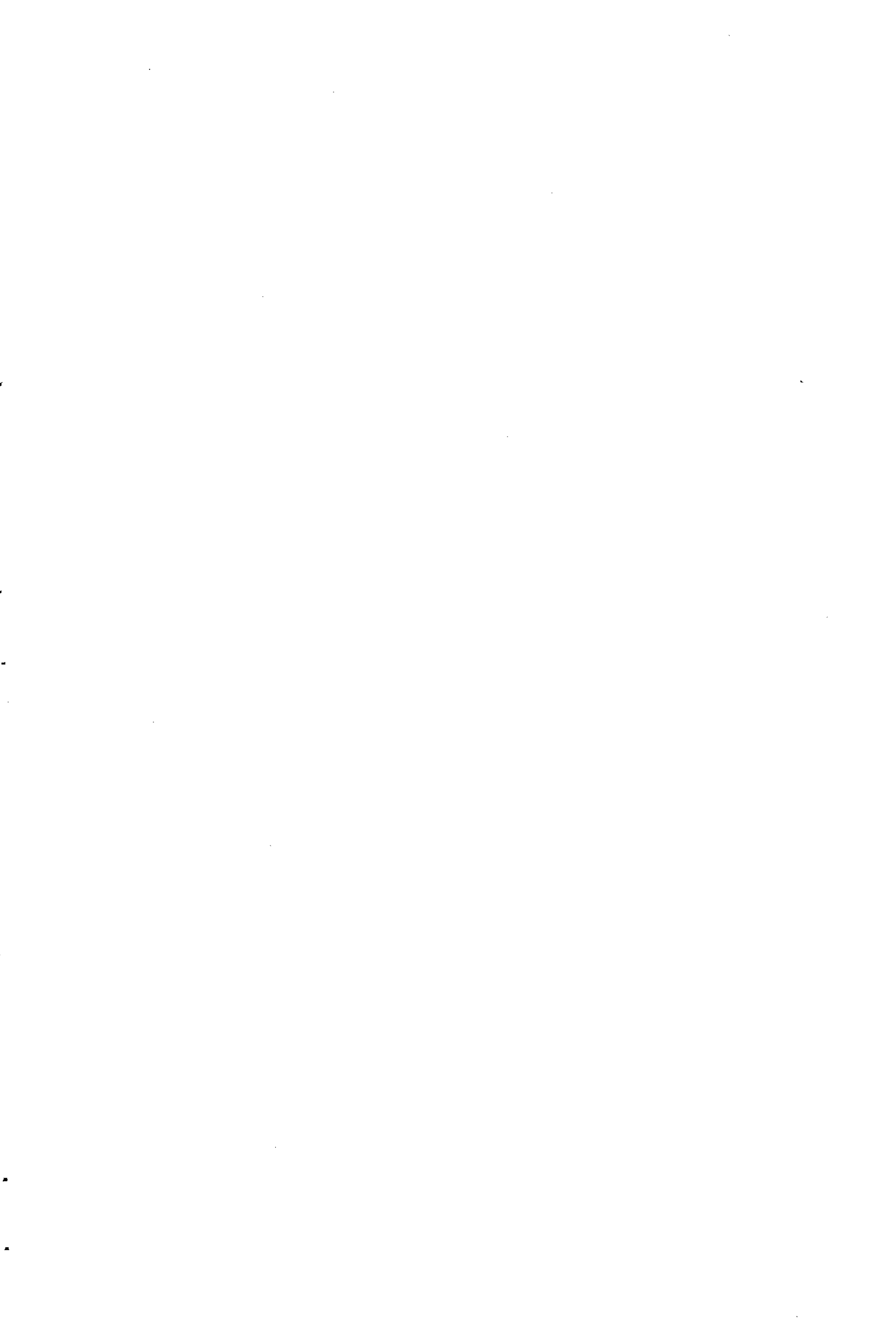
ISBN 2-7451-4645-9



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة]



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، فإنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا النبي المعصوم عبده ورسوله.. وبعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد النبي ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٧٠،٧١].

أما بعد..

تدبر معي عزيزي القارئ قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[غافر:٥٣].

وقـــال الإمام النووي: "التوبة[(١)] واجبة من كل ذنب فإن كانت المعصية بين العبد وربه" تعالى "لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاث شروط:

١-أن يقلع عن المعصية.

٢-أن يندم على فعلها.

٣-أن يعزم على أن لا يعود إليها أبدا.

فـــإن فقـــد أحد الثلاث لم تصبح توبة، وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة:

هـــذه الثلاثة، وأن تبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه مكنه منه أو طلب عفـــوه، وإن كانـــت غيبة استحلها منه، ويجب أن يتوب من جميع الذنوب فإن تاب من بعضـــها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب، ويبقى عليه الباقي، وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأئمة على وجوب التوبة جيدًا عزيزي القارئ إن العبد ما زال مأمورًا بالتوبة حتى الممات، وإذا كانت طريق الطاعات والأعمال الصالحة تفتح للعبد أبـــوابًا مـــن المحـــبة، إلا أن طريق التوبة، وما تستلزمه من الانكسار بين يدي الله تعالى والافـــتقار إلى عفـــوه وغفرانه، فإن هذا الطريق أسرع الطرق إلى الله تعالى وهو يسمى بـــ"طريق الصبر" يسبق التائب بها السعادة [(٢)].

فالتوبة إذن من مهمات الإسلام، وقواعد الدين، لذلك عزيزي القارئ بعد أن قدمت لك كتابي: توبة رجال، والعائدون إلى الله، فقد أدليت بدلوي في بحار علوم شيخ الإسلام رحمه الله تعالى، وأخرجت لك رسالة "التوبة" وهي ضمن "جمع الرسائل" المجموعة الأولى ط ١٣٨٩ هـــ/ ١٩٦٩م.

عملي في الكتاب:

١- قمت بالتمهيد له وذلك بذكر التوبة والاستغفار في القرآن الكريم.

٢- بحث في لفظ الاستغفار وبحث في لفظ التوبة.

٣- ذكر التوبة في السنة المطهرة.

٤- عنوان بلفظ أريد أن أتوب ولكن؟ وهذا عنوان كتاب صغير صدر لنا في مصر.

---

(١) راجع كتابي "العائدون إلى الله" و"دليل المسلمين شرح رياض الصالحين".

(٢) مدارج السالكين لابن القيم.

٥- بـــيان معنى لا إله إلا الله، وهذا عنوان كتاب صغير صدر لنا في مصر. الفصل الأول أخذته من كتاب التوابين لابن قدامة المقدسي رحمه الله تعالى، الفصل الثاني: رسالة التوبة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، وقمت بعمل عناوين جانبية للرسالة لكي تقرب المعنى؛ لأن الرسالة كان لها عنوان واحد، والقارئ من طبيعته إذا وجد عنوانا طويلاً يحدث له الملل.

وعلـــى كل فإنني أتركك مع هذا الكتاب الشيق "منهاج الأبرار شرح كتاب التوبة والاستغفار".

اقرأ وقدر ثم قدمه استغفاراً لأهلك وأولادك وجيرانك وأصدقائك لكي تعم الفائدة ولله الحمد والمنة.

الشيخ/ علي أحمد عبد العال الطهطاوي

رئيس جمعية أهل القرآن والسنة

مقدمة في خطر الاستهانة بالذنوب

اعلم رحمني الله وإياك أن الله ﷻ أمر العباد بإخلاص التوبة وجوباً فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[التحريم:٨].

ومنحنا الله مهلة للتوبة قبل أن يقوم الكرام الكاتبون بالتدوين فقال ﷺ: "إن صاحب الشـمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها، وإلا كتبت واحدة".

ومهلة أخرى بعد الكتابة وقبل حضور الأجل. ومصيبة كثير من الناس اليوم أنهم لا يـرجون لله وقـاراً، فيعصونه بأنواع الذنوب ليلاً ونهاراً، ومنهم طائفة ابتلوا باستصغار الذنـوب، فترى أحدهم يحتقر في نفسه بعض الصغائر، فيقول مثلاً: وماذا تضر نظرة أو مصافحة أجنبية.

ويتسـللون بالنظـر إلى المحـرمات في المجلات والمسلسلات حتى أن بعضهم يسأل باستخفاف إذا علم بحرمة مسألة كم سيئة فيها؟ أهي كبيرة أم صغيرة؟

فـإذا علمت هذا الواقع الحاصل فقارن بينه وبين الأثرين التاليين من صحيح الإمام الـبخاري- رحمه الله -: عن أنس رضي الله عنه قال: "إنكم تعملون أعمالاً هي أدق في أعيـنكم مـن الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات". والموبقات هي المهلكات.

وعـن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخـاف أن يقـع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا -أي بيده- فذبه عنه".

وهـل يقدّر هؤلاء -الآن- خطورة الأمر إذا قرءوا حديث رسول الله ﷺ: "إياكم ومحقـرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجـاء ذا بعـود، حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صـاحبها تهلكـه". وفي رواية: "إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه".

وقد ذكر أهل العلم أن الصغيرة قد يقترن بها من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف

مـــن الله مع الاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر بل يجعلها في رتبتها، ولأجل ذلك لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار.

ونقول لمن هذا حاله: لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى من عصيت.

وهـــذه كلمـــات سينتفع بها إن شاء الله الصادقون، الذين أحسوا بالذنب والتقصير وليس السادرون في غيهم ولا المصرون على باطلهم.

إنمـــا لمن يؤمن بقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر:٤٩]. كما يؤمن بقوله: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر:٥٠].

شروط التوبة

كلمـــة الـــتوبة كلمـــة عظيمة، لها مدلولات عميقة، لا كما يظنها كثيرون، ألفاظ باللســـان ثم الاستمرار على الذنب، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[هود:٣]. تجد أن التوبة هي أمر زائد على الاستغفار.

ولأن الأمر العظيم لا بد له من شروط، فقد ذكر العلماء شروطاً للتوبة مأخوذة من الآيات والأحاديث، وهذا ذكر بعضها:

الأول: الإقلاع عن الذنب فوراً.

الثاني: الندم على ما فات.

الثالث: العزم على عدم العودة.

الرابع: إرجاع حقوق من ظلمهم، أو طلب البراءة منهم.

توبة عظيمة

ونذكر هنا نموذجاً لتوبة الرعيل الأول من هذه الأمة، صحابة رسول الله ﷺ.

عـــن بـــريدة رضي الله عنه أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد ظلمت نفسي وزنيت، وإني أريد أن تطهرني، فرده، فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله إني قد زنيت، فرده الثانية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال: "أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً؟ " قالوا: ما نعلمه إلا وفيّ العقل، من صالحينا فيما نرى، فأتاه الثالثة، فأرسل إليهم أيضاً، فسأل عنه، فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما

كان الرابعة حفر له حفرة، ثم أمر به فرُجمَ. قال: فجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني، وإنه ردها، فلما كان الغد قالت: يا رسول الله لَم تردني؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزاً، فوالله إني لحبلى، قال: "أما لا، فاذهبي حتى تلدي". قال: فلما ولدتــه أتته بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته. قال: "اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه". فلمـــا فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا رسول الله قد فطمته، وقد أكـــل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الـــناس فرجموها، فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح بالدم على وجه خالد، فسبها، فسمع نبي الله سبه إياها فقال: "مهلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس -الذي يأخذ الضرائب- لغفر له". ثم أمر بها فصلي عليها ودفنت.

التوبة تمحو ما قبلها

١-روى الإمام مسلم قصة إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه وفيها: "فلما جعل الله الإســـلام في قلـــبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك. فبسط يمينه فقبضت يـــدي قال: ما لك يا عمرو؟ قال: قلت: أردت أن أشرط. قال: تشترط بماذا؟ قلت: أن يغفر لي. قال: أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟".

٢-وروى الإمام مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول إليه لحسن، ولو تخبرنا أن لمـــا عملنا كفارة. فنزل قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨].

ونـــزل: ﴿قُـــلْ يَـــا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر:٥٣].

هل يغفر الله لي؟

وقـــد تقول: أريد أن أتوب ولكن ذنوبي كثيرة جدًّا و لم أترك نوعاً من الفواحش إلا اقترفته، ولا ذنباً تتخيله إلا وارتكبته لدرجة أني لا أدري هل يمكن أن يغفر الله لي ما فعلته في تلك السنوات الطويلة؟!

وأذكـــرك بقول الله ﷻ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن

رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾[الزمر: ٥٣-٥٤].

وقول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف:١٥٦].

والحديث القدسي الصحيح: "قال تعالى من علم أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي، ما لم يشرك بي شيئاً ". وذلك إذا لقي العبد ربه في الآخرة.

والحديث القدسي العظيم: "يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة".

وحديث الرسول ﷺ: "التائب من الذنب كمن لا ذنب له".

توبة قاتل المائة

عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاه ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم -أي حكماً- فقال: قيسوا بين الأرضين فإلى آيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة "[متفق عليه].

تبديل السيئات إلى الحسنات

وهنا قد يسأل التائب، فيقول: إني لما كنت ضالاً لا أُصلي خارجاً عن ملة الإسلام قمت ببعض الأعمال الصالحة فهل تحسب لي بعد التوبة أو تكون ذهبت أدراج الرياح؟

وإليك الجواب: عن عروة بن الزبير أن حكيم بن حزام أخبره أنه قال لرسول الله ﷺ: أي رسول الله أرأيت أموراً كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم أفيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: "أسلمت على ما أسلفت من خير" [رواه البخاري].

فهذه الذنوب تغفر، وهذه السيئات تبدلُ حسنات، وهذه الحسنات أيام الجاهلية تثبت لصاحبها بعد التوبة، فماذا بقي؟!

كيف أفعل إذا أذنبت؟

وقد تقول إذا وقعت في ذنب فكيف أتوب منه مباشرة؟ وهل هناك فعل أقوم به بعد الذنب فوراً؟

الجواب: عن أبي بكر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من رجل يُذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له، ثم قرأ الآية: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** [آل عمران:١٣٥]. [رواه أصحاب السنن- صحيح الترغيب والترهيب ١/٢٨٤].

وقد ورد في روايات أخرى صحيحة صفات أخرى لركعتين تكفران الذنوب هذا ملخصها:

١-ما من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء (لأن الخطايا تخرج من الأعضاء المغسولة مع الماء أو مع آخر قطر الماء).

٢-يقوم فيصلي ركعتين.

٣-لا يسهو فيهما.

٤-لا يحدث فيهما نفسه.

٥-يحسن فيهن الذكر والخشوع.

٦-ثم يستغفر الله.

والنتيجة:

١-غفر له ما تقدم من ذنبه.

٢-إلا وجبت له الجنة. [صحيح الترغيب ١/٩٤-٩٥].

وعن ابن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها، قبلتها ولزمتها، و لم أفعل غير ذلك فافعل بي ما شئت. فلم يقل الرسول ﷺ شيئاً فذهب الرجل. فقال عمر: لقد ستر الله عليه لو ستر نفسه. فأتبعه رسول الله ﷺ بصره، ثم قال: "ردوه علي" فردوه عليه فقرأ عليه: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾[هود:١١٤]. فقال معاذ - وفي رواية عمر-: يا رسول الله أله وحده أم للناس كافة؟ فقال: "بل للناس كافة "[رواه مسلم].

أهل السوء يطاردونني

وقد تقول: أريد أن أتوب، ولكن أهل السوء من أصحابي يطاردونني في كل مكان، وما علموا بشيء من التغير عندي حتى شنوا عليّ حملة شعواء، وأنا أشعر بالضعف فماذا أفعل؟!

ونقول لك: اصبر فهذه سنة الله في ابتلاء المخلصين من عباده ليعلم الصادقين من الكاذبين، وليميز الله الخبيث من الطيب. فهل ربك أولى بالطاعة، أم ندماء السوء؟!

وعليك أن تعلم أنهم سيطاردونك في كل مكان وسيسعون لردك إلى طريق الغواية بكل وسيلة، ولقد حدثني بعضهم بعد توبته أنه كانت له قرينة سوء تأمر سائق سيارتها أن يمشي وراءه وهو في طريقه إلى المسجد وتخاطبه من النافذة هنالك ﴿**يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾[إبراهيم:٢٧].

إنهم يهددونني

أريد أن أتوب، ولكن أصدقائي القدامى يهددونني بإعلان فضائحي بين الناس، ونشر أسراري على الملأ، إن عندهم صوراً ووثائق، وأنا أخشى على سمعتي، إني خائف!!

ونقول: إنك إن سايرتهم ورضخت لهم فسيأخذون عليك مزيداً من الإثباتات، فأنت الخاسر أولاً وأخيراً، ولكن لا تطعهم واستعن بالله عليهم، وقل حسبي الله ونعم الوكيل.

وكان رسول الله ﷺ إذا خاف قوماً قال: "اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم" [رواه أحمد وأبو داود- صحيح الجامع ٤٥٨٢].

وعلى أسوأ الحالات لو حصل ما تخشاه أو انكشفت بعض الأشياء، واحتاج الأمر إلى بيان فوضح موقفك للآخرين وصارحهم، وقل نعم كنت مذنباً فتبت إلى الله فماذا

تريدون؟ ولنتذكر جميعاً أن الفضيحة الحقيقية هي التي تكون بين يدي الله يوم القيامة، يوم الخزي الأكبر، ليست أمام مائة أو مائتين ولا ألف أو ألفين، ولكنها على رءوس الأشهاد، أمام الخلق كلهم من الملائكة والجن والإنس، من آدم وحتى آخر رجل.

فهلم إلى دعاء إبراهيم: ﴿**وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء:٨٧-٨٩].

وتحصن في اللحظات الحرجة بالأدعية النبوية: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، اللهم اجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من بغى علينا، اللهم لا تشمت بنا الأعداء ولا الحاسدين.

ذنوبي تنغص معيشتي

وقد تقول: إني ارتكبت من الذنوب الكثير، وتبت إلى الله، لكن ذنوبي تطاردني، وتَذكُّري لما عملته ينغص عليّ حياتي، ويقضُّ مضجعي، ويؤرق ليلي ويقلق راحتي، فما السبيل إلى راحتي؟ فأقول لك أيها الأخ المسلم: لا تقنط من رحمة الله. والله يقول: ﴿**وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ**﴾[الحجر:٥٦].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله" [رواه عبد الرزاق وصححه الهيثمي وابن كثير]

والمؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء، وقد يُغلِّب أحدهما في بعض الأوقات لحاجة، فإذا عصى غلَّب جانب الخوف ليتوب، وإذا تاب غلَّبَ جانب الرجاء يطلب عفوَ الله.

هل أعترف؟

وسأل سائل بصوت حزين يقول: أريد أن أتوب ولكن هل يجب علي أن أذهب وأعترف بما فعلت من ذنوب؟ وهل من شروط توبتي أن أقر أمام القاضي في المحكمة بكل ما اقترفت وأطلب إقامة الحد عليَّ؟

فأقول لك أيها الأخ المسلم: لسنا ولله الحمد مثل النصارى، قسيس وكرسي، وصك غفران... إلى آخر أركان المهزلة. بل إن الله يقول: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**﴾[التوبة:١٠٤].عن عباده دون وسيط.

أما بالنسبة لإقامة الحدود فإن الحد إذا لم يصل إلى الإمام أو الحاكم أو القاضي فإنه لا يلـــزم الإنسان أن يأتي ويعترف، ومن ستر الله عليه فلا بأس أن يستر نفسه، وتكفيه توبة فيما بينه وبين الله.

ذكر التوبة في القرآن الكريم

تاب: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة:٥٤].

﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾[البقرة:١٨٧].

﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾[المائدة:٣٩].

﴿وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾[المائدة:٧١].

﴿مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ﴾[الأنعام:٥٤].

﴿لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾[التوبة:١١٧].

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا﴾[هود:١١٢].

﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾[مريم:٦٠].

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾[طه:٨٢].

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[طه:١٢٢].

﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾[الفرقان:٧٠].

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتابًا﴾[الفرقان:٧١].

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[القصص:٦٧].

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾[المجادلة:٥٨].

﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[النساء:١٦].

﴿عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[المزمل:٢٠].

تابوا:﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾[البقرة:١٦٠].

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾[آل عمران:٨٩].

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ﴾[النساء:١٤٦].

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾[المائدة:٣٤].

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا﴾[الأعراف:١٥٣].

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾[التوبة:١١].

﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ﴾[النحل:١١٩].

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[النور:٥].

﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾[غافر:٧].

تبت: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾[النساء:١٨].

﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾[الأعراف:١٤٣].

تبتم: ﴿ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾[البقرة:٢٧٩].

﴿تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[التوبة:٣].

أتوب: ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾[البقرة:١٦٠].

تتوبا: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[التحريم:٤].

يتب: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[الحجرات:١١].

يتوب: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[آل عمران:١٢٨].

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾[النساء:١٧].

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[النساء:٢٦].

﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[النساء:٢٧].

﴿فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة:٣٩].

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن يَشَاءُ﴾[التوبة:١٥].

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ﴾ [التوبة:٢٧].

﴿عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوية:١٠٢].

﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾[التوبة:١٠٦].

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا﴾[الفرقان:٧١].

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[الأحزاب:٢٣].

﴿وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[الأحزاب:٧٣].

﴿فَإن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لهم﴾[التوبة: ٧٤].

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرحيم﴾[التوبة:١١٨].

﴿إنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾[البروج:١٠].

﴿لَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ من قَرِيبٍ﴾[النساء:١٧].

﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة: ٧٤].

﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة: ٧٤].

﴿ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[التوبة:١٢٦].

﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٢٨].

﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[البقرة: ٥٤].

﴿وَأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْه﴾[هود:٣].

﴿يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْه﴾[هود:٥٢].

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْه إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[هود: ٦١].

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْه إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[هود: ٩٠].

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾[النور: ٣١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[التحريم:٨].

التوب: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾[غافر:٣].

توبة: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾[النساء:١٧].

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾[النساء:١٨].

﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللهِ﴾[النساء: ٩٢].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾[التوبة: ١٠٤].

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾[الشورى: ٢٥].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[التحريم:٨].

توبتهم:﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾[آل عمران:٩٠].

تائبات:﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ﴾[التحريم:٥].

التائبون:﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾[التوبة:١١٢].

تواب:﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة:٣٧].

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة:٥٤].

﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٢٨].

﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٦٠].

بحث في لفظ الاستغفار[١]

غفر:﴿ فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾[القصص:١٦].

﴿غَفَرَ لِي رَبِّي﴾[يس:٦٧].

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾[الشورى:٤٣].

فغفرنا: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾[ص٢٥].

تغفر: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾[المائدة:١١٨].

﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾[الأعراف:٢٣].

﴿وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[هود:٤٧].

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾[نوح:٧].

تغفروا: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا ﴾[التغابن:١٤].

نغفر:﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة:٥٨].

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾[الأعراف:١٦١].

يغفر: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾[البقرة:٢٨٤].

---

(١) لسان العرب.

﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[آل عمران:٣١].

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَّشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَّشَاءُ﴾[آل عمران:١٢٩].

﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ﴾[آل عمران:١٣٥].

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾[النساء:٤٨].

﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾[النساء:١٣٧].

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾[النساء:١٦٨].

﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَّشَاءُ﴾[المائدة:١٨].

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَّشَاءُ﴾[المائدة:٤٠].

﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾[الأعراف:١٤٩].

﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[الأنفال:٢٩].

﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[الأنفال:٧٠].

﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَّغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾[التوبة:٨٠].

﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾[يوسف:٩٢].

﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم﴾[إبراهيم:١٠].

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾[طه:٧٣].

﴿وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَّغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾[النور:٢٢].

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَّغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾[الشعراء:٥١].

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَّغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾[الشعراء:٨٢].

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[الأحزاب:٧١].

﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ﴾[الزمر:٥٣].

﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم﴾[الأحقاف:٣١].

﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَّغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾[محمد:٣٤].

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[الفتح:٢].

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَّشَاءُ﴾[الفتح:١٤].

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الحديد:٢٨].

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ﴾[الصف:١٢].

﴿يَّغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾[المنافقون:٦٣].

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[التغابن:٦٤].

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[نوح:٤].

يغفروا: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾[الجاثية:٤٥].

يغفرون: ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[الشورى:٣٧].

اغفر: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا﴾[البقرة:٢٨٦].

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا﴾[آل عمران:١٦].

﴿قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾[آل عمران:١٤٧ل].

﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾[آل عمران:١٩٣].

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي﴾[الأعراف:١٥١].

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا﴾[الأعراف:١٥٥].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾[إبراهيم:٤١].

﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا﴾[المؤمنون:١٠٩].

﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾[المؤمنون:١١٨].

﴿وَاغْفِرْ لأَبِي﴾[الشعراء:٨٦].

﴿فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾[القصص:١٦].

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾[ص:٣٥].

﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾[غافر:٤٠].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾[الحشر:١٠].

﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾[الممتحنة:٥].

﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا﴾[التحريم:٨].

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾[نوح:٢٨].

يغفر: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾[الأعراف:١٦٩].

﴿إِن يَنتَهُوا يُغَفَرْ لَهُمْ﴾[الأنفال:٣٨].

استغفر: ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ [النساء:٦٤].

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾[ص:٢٤].

أستغفرت: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾[المنافقون:٦].

استغفروا: ﴿ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾[آل عمران:١٣٥].

﴿جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾[النساء:٦٤].

أستغفر: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾[يوسف:٩٨].

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾[مريم:٤٧].

لأستغفرن: ﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[الممتحنة:٤].

تستغفر:﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[التوبة:٨٠].

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ﴾[المنافقون:٦].

تستغفرون: ﴿لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ﴾[النمل:٤٦].

يستغفر: ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ﴾[النساء:١١٠].

﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ﴾[المنافقون:٥].

يستغفروا: ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا﴾[التوبة:١١٣].

﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾[الكهف:٥٥].

يستغفرون: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال:٣٣].

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[غافر:٧].

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ﴾[الشورى:٥].

﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الذاريات:١٨].

يستغفرونه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾[المائدة:٧٤].

استغفر: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾[آل عمران:١٥٩].

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللهِ﴾[النساء:١٠٦].

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[التوبة:٨٠].

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾[يوسف:٩٧].

﴿فَأْذَن لِّمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ﴾[النور:٦٣].

﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾[غافر:٥٥].

﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾[محمد:١٩].

﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾[الفتح:١١].

﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ﴾[الممتحنة:١٢].

استغفره: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾[النصر:٣].

استغفروا: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ﴾[البقرة:١٩٩].

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا﴾[هود:١١].

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[هود:٩٠].

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا﴾[نوح:١٠].

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ﴾[المزمل:٢٠].

استغفروه: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾[هود:٦١].

﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾[فصلت:٦].

استغفري: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾[يوسف:٢٩].

غافر: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾[غافر:٣].

الغافرين: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾[الأعراف:١٥٥].

غفور: ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة:١٧٣].

﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة:١٨٢].

﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة:١٩٢].

﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة:١٩٩].

﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة:٢١٨].

﴿وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٢٥].

﴿اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة:٢٢٦].

﴿أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٣٥].

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران:٣١].

﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران:٨٩].

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَّشَاءُ﴾[آل عمران:١٢٩].

﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[آل عمران:١٥٥].

﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النساء:٢٥].

﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة:٣].

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة:٣٤].

﴿فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة:٣٩].

﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة:٧٤].

﴿وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة:٩٨].

﴿عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[المائدة:١٠١].

﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام:٥٤].

﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام:١٤٥].

﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام:١٦٥].

﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأعراف:١٥٣].

﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأعراف:١٦٧].

﴿اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنفال:٦٩].

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنفال٧٠].

﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة:٢٧].

﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة:٩١].

﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة:٩٩].

﴿اللهَ غَفُورٌ﴾[التوبة:١٠٢].

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[يونس:١٠٧].

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[هود:٤١].

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[يوسف:٥٣].

﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[يوسف:٩٨].

﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[إبراهيم:١٤].

﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الحجر:٤٩].

﴿إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل:١٨].

﴿رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل:١١٠].

﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل:١١٥].

﴿رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل:١١٩].

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾[الكهف:٥٨].

﴿إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[الحج:٦٠].

﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور:٥].

﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور:٢٢].

﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور:٣٣].

﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور:٦٢].

﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النمل:١١].

﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[القصص:١٦].

﴿الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾[سبأ:٢].

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[سبأ:١٥].

﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[فاطر:٢٨].

﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[فاطر:٣٠].

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[فاطر:٣٤].

﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر:٥٣].

﴿نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[فصلت:٣٢].

﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الشورى:٥].

﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[الشورى:٢٣].

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الأحقاف:٨].

﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات:٥].

﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات:١٤].

﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الحديد:٢٨].

﴿وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[المجادلة:٢].

﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المجادلة:١٢].

﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الممتحنة:٧].

﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الممتحنة:١٢].

﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التغابن:١٤].

﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التحريم:١].

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[الملك:٢].

﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المزمل:٢٠].

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾[البروج:١٤].

غفوراً: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:٢٣].

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[النساء:٤٣].

﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:٩٦].

﴿وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[النساء:٩٩].

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:١٠٦].

﴿يَجِد اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:١١٠].

﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:١٢٩].

﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:١٥٢].

﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾[الإسراء:٢٥].

﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[الإسراء:٤٤].

﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان:٦].

﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان:٧٠].

﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الأحزاب:٥].

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الأحزاب:٢٤].

﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الأحزاب:٥٠].

﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الأحزاب:٥٩].

﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الأحزاب:٧٣].

﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[فاطر:٤١].

﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفتح:١٤].

غفار:﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ﴾[طه:٨٢].

﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾[ص:٦٦].

﴿أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾[الزمر:٥].

﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾[غافر:٤٢].

﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾[نوح:١٠].

غفرانك: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾[البقرة:٢٨٥].

مغفرة: ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾[البقرة:١٧٥].

﴿الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾[البقرة:٢٢١].

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾[البقرة:٢٦٣].

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾[البقرة:٢٦٨].

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾[آل عمران:١٣٣].

﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾[آل عمران:١٥٧].

﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً﴾[النساء:٩٦].

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[المائدة:٩].

﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال:٤].

﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾[الأنفال:٧٤].

﴿ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[هود:١١].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾[الرعد:٦].

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الحج:٥٠].

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[النور:٢٦].

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾[الأحزاب:٣٥].

﴿أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[سبأ:٤].

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[فاطر:٧].

﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[يس:١١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾[فصلت:٤٣].

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾[محمد:١٥].

﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الفتح:٢٩].

﴿**لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾[الحجرات:٣].

﴿**إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ**﴾[النجم:٥٣].

﴿**وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ**﴾[الحديد:٢٠].

﴿**سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾[الحديد:٢١].

﴿**لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾[الملك:١٢].

﴿**وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ**﴾[المدثر:٥٦].

غفر: الغفور الغفار، جل ثناؤه، وهما من أبنية المبالغة، ومعناهما الساتر لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم.

يقال: اللهم اغفر لنا مغفرة وغفرا وغفرانا، وإنك أنت الغفور الغفار يا أهل المغفرة. وأصل الغفر التغطية والستر: غفر الله ذنوبه، أي سترها؛ والغفر: الغفران. وفي الحديث: كان إذا خرج من الخلاء قال: غفرانك الغفران: مصدر، وهو منصوب بإضمار أطلب، وفي تخصيصه بذلك قولان: أحدهما التوبة من تقصيره في شكر النعم التي أنعم بها عليه بإطعامه وهضمه وتسهيل مخرجه، فلجأ إلى الاستغفار من التقصير وترك الاستغفار من ذكر الله تعالى مدة لبثه على الخلاء، فإنه كان لا يترك ذكر الله بلسانه وقلبه إلا عند قضاء الحاجة، فكأنه رأى ذلك تقصيرًا فتداركه بالاستغفار. وقد غفره يغفره غفره: ستره. وكل شيء سترته، فقد غفرته؛ ومنه قيل للذي يكون تحت بيضة الحديد على الرأس: مغفر.

وتقول العرب: أصبغ ثوبك بالسواد فهو أغفر لوسخه، أي أحمل له وأغطى له. ومنه: غفر الله ذنوبه، أي سترها. وغفرت المتاع: جعلته في الوعاء قال ابن سيدة: غفر المتاع في الوعاء يغفره غفرا وأغفره أدخله واستره وأوعاه؛ وكذلك غفر الشيب بالخضاب وأغفره؛ قال:

حتى اكتسيت من المشيب عمامة غفراء، أغفر لونها بخضاب

ويروى: أغفر لونها. وكل ثوب يغطي به شيء، فهو غفارة؛ ومنه غفارة الزنون تغشي بها الرحال، وجمعها غفارات وغفائر. وفي حديث عمر لما حصب المسجد قال: هو أغفر للنخامة، أي أستر له. والغفر والمغفرة: التغطية على الذنوب والعفو عنها، وقد غفر ذنبه يغفره غفرًا وغفرة حَسَنَة؛ عن اللحياني، **وغُفْراناً ومغفِرة وغفوراً**؛ الأخيرة عن

اللحياني، **وغَفيراً وغَفيرة**. ومنه قول بعض العرب: أسألك **الغَفيرة**، والناقةَ الغَزيرة، والعزَّة في العَشيرة، فإنها عليك يسيرة. **واغْتَفَرَ** ذنبه مثله، فهو **غفور**، والجمع **غُفُرٌ**؛ فأما قوله:

غَفَرْنَا وكانت من سَجِيتنا الغَفْر

فإنما أنث **الغَفْرَ** لأنه في معنى **المَغْفرة**. **واستَغفَرَ** الله من ذنبه ولذنبه بمعنى؛ **فَغَفَر** له ذنبه **مَغفرةً وغَفْراً وغُفْراناً**. وفي الحديث: **غفارُ! غَفَرَ** الله لها؛ قال ابن الأثير: يحتمل أن يكون دعـــاءً لها **بالمَغْفِرة** أو إخباراً أن الله تعالى قد **غَفَرَ** لها. وفي حديث عمرو بن دينار: قلت لعـــروة: كم لبث رسول الله ﷺ بمكة؟ قال: عشراً. قلت: فابن عباس يقول عشرة؟ قال: **فغَفَـــره** أي غفــر الله له. **واستَغْفَرَ** الله ذنبه، على حذف الحرف: طلب منه **غَرة**؛ أنشد سيبويه:

أَستَغْفِرَ اللهَ ذنباً لَسْتُ مُحْصِيهُ رَبَّ العباد إليه القولُ والعملُ

وتَغَافَرا: دعا كل واحد منهما لصاحبه **بالمَغْفرة**؛ وامرأة **غَفُور**، بغير هاء. قال أبو حاتم في قـــوله تعـــالى: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ من ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾، والمعنى: **لَيَغْفِرَنَّ لك الله**، فلما حذف النون كسر اللام وأعملها إعمال لام كي، قال: وليس المعنى فتحنا لك لكي يغفر الله لـــك، وأنكر الفتح سبباً للمغفرة، وأنكر أحمد بن يحيى هذا القول، وقال: هي لام كي، قال: ومعـــناها لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح، فلما انضم إلى المغفرة شيء حادث حَسُنَ فيه معنى كي قوله ﷻ:﴿**لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾.

والغُفْرةُ: ما يغطي الشيء. **وغَفَرَ** الأمر **بغُفْرته وغَفيرته**: أصلحه بما ينبغي أن يصلح به. يقال: **اغْفِروا** هذا الأمر **بغِفْرته وغَفيرته**، أي أصلحوه بما ينبغي أن يصلح. وما عندهم عذيرة ولا **غَفيرة**، أي لا يعذرون ولا **يَغْفِرون** ذنباً لأحد؛ قال صخر الغيّ، وكان خرج هـــو وجماعة من أصحابه إلى بعض متوجهاتهم فصادفوا في طريقهم بني المصطلق، فهرب أصحابه فصاح بهم وهو يقول:

يا قوم! لَيست فيـــهمُ غَفيرهْ فامْشُوا كما تَمْشي جِمالُ الحِيرهْ

يقـــول: لا يغفرون ذنب أحد منكم إن ظفروا به، فامشوا كما تمشي جمال الحيرة، أي: تـــثاقلوا في سيركم ولا تُخفّوه، وخص جمال الحيرة؛ لأنها كانت تحمل الأثقال، أي مانعوا عن أنفسكم ولا تهربوا.

والمِغْفَـــرُ والمِغْفَـــرةُ والغِفـــارةُ: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت

القلنسوة، وقيل: هو رفرف البيضة، وقيل: هو حلق يتقنع به المتسلح. قال ابن شميل: **المِغْفَرُ** حلق يجعلها الرجل أسفل البيضة تسبغ على العنق فتقيه، قال: وربما كان **المِغْفَرُ** مثل القلنسوة غير أنها أوسع يلقيها الرجل على رأسه فتبلغ الدرع، ثم يلبس البيضة فوقها، فذلك **المِغْفَرُ** يرفل على العاتقين، وربما جعل **المِغْفَرُ** من ديباج وخز أسفل البيضة. وفي حديث الحديبية: والمغيرة بن شعبة عليه **المِغْفَرُ**؛ هو ما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد ونحوه.

وغِفَارةٌ، بالكسر: خرقة تلبسها المرأة فتغطي رأسها ما قبل منه وما دبر غير وسط رأسها، وقيل: **الغِفَارةُ** خرقة تكون دون المقنعة توقي بها المرأة الخمار من الدهن، **والغِفارةُ**: الرقعة التي تكون على حز القوس الذي يجري عليه الوتر. وقيل: **الغِفارةُ**: جلدة تكون على رأس القوس يجري عليها الوتر، **والغِفارةُ**: السحابة فوق السحابة، وفي التهذيب: سحابة تراها كأنها فوق سحابة، **والغِفارةُ**: رأس الجبل. **والغَفْرَ**: البطن؛ قال:

هو القارِبُ التالي له كلُّ قارب   وذو الصَّدَرِ النامي إذا بَلَغَ الغَفْرا

والغَفَرَ: زئير الثوب وما شاكله؛ واحدته **غَفْرة**. **وغَفِر** الثوب، بالكسر، **يَغْفَرُ غَفَراً**: ثار زئيره؛ **واغْفار اغْفيراراً**. **والغَفْرُ والغُفْارُ والغَفِير**: شعر العنق واللحيين والجبهة والقفا. **وغَفَرُ** الجسد **وغُفارُه**: شعره، وقيل: هو الشعر الصغير القصير الذي هو مثل الزغب، وقيل: **الغَفْرُ** شعر كالزغب يكون على ساق المرأة والجبهة ونحو ذلك، وكذلك **الغَفْرُ**، بالتحريك؛ قال الراجز:

قد عَلِمَت خَوْدٌ بساقَيْها الغَفَرْ   لَيَرْوِيَنْ أو لَيَبِيدَنَّ الشجَرْ[1]

والغُفار، بالضم: لغة في الغَفْرِ، وهو الزغب؛ قال الراجز[2]:

تُبْدي نَقياً زانَها خِمارُها   وقُشطةٌ ما شانَها غُفارُها

القُشطة: عظم الساق. قال الجوهري: ولست أرويه عن أحد. **والغَفِيرةُ**: الشعر الذي يكون على الأذن. قال أبو حنيفة: يقال رجل **غَفْرُ** القفا، في قفاه **غَفَرٌ**. وامرأة **غَفِرةُ** الوجه إذا كان في وجهها **غَفِرٌ**. **وغَفَرُ** الدابة: نبات الشعر في موضع العرف. **والغَفْرُ** أيضاً: هدب الثوب وهدب الخمائص وهي القطف دقاقها ولينها وليس هو أطراف الأردية ولا

(١) في الصحاح والعباب.

(٢) الرجز في الصحاح والعباب وفيه: قالت غادية بنت قرعة الدبيرية.

الملاحف. **وغَفَرُ** الكلإ: صغاره؛ **وأَغْفَرت** الأرض: نَبَتَ فيها شيء منه. **والغَفَرُ**: نوع من التفـرة ربعي نَبْتٌ في السهل والآكام كأنه خضرة قيام إذا كان أخضر، فإذا يبس فكانه حمر غير قيام.

وجاء القوم جمًّا **غَفيراً** وجمّاء **غَفيراً**، ممدود، وجم **الغَفير** وجماء **الغَفير** والجماء **الغَفيرَ** أي جاءوا بجماعتهم الشريف والوضيع و لم يتخلف أحد وكانت فيهم كثرة؛ و لم يحك سيبويه إلا الجماء **الغَفيرَ**، وقال: هو من الأحوال التي دخلها الألف واللام، وهو نادر، وقال: **الغَفير** وصف لازم للجماء يعني أنك لا تقول الجماء وتسكت. ويقال أيضاً: جاءوا جماء **الغَفيرة** وجاءوا بجماء **الغَفير والغَفيرة**، لغات كلها.

والجماء **الغَفير**: اسم وليس بفعل إلا أنه ينصب كما تنصب المصادر التي هي في معناه، كقولك: جاءوني جميعاً وقاطبةً وطراً وكافةً، وأدخلوا فيه الألف واللام كما أدخلوهما في قولهم: أوردها العراك أي أوردها عراكاً.

وفي حديث علي ﷺ: إذا رأى أحدكم لأخيه **غَفيرةً** في أهل أو مال فلا يكونن فتنة؛ **الغَفيرةُ**: الكثرة والزيادة، من قولهم للجمع الكثير الجم **الغَفير**. وفي حديث أبي ذر: قلت يا رسول الله، كم الرسل؟ قال:" ثلثمائة وخمسة عشر جم الغَفير، أي جماعة كثيرة، وقد ذكر جمم مبسوط أقصى. **وغَفَرَ** المريض والجريح **يَغْفِرُ غَفْراً وغُفِرَ** على صيغة ما لم يسم فاعله، كل ذلك: نكس؛ وكذلك العاشق إذا عاده عيده بعد السلوة؛ قال:

خَلِيلي إِن الدارَ غَفْرٌ لذي الهَوَى كما يَغْفِرُ المَحْمُوم أَو صاحِبُ الكَلْم[1]

وهذا البيت أورده الجوهري: لعمرك إن الدار؛ قال ابن بري: البيت للمرار الفقعسي، قال وصواب إنشاده: خليلي إن الدار بدلالة قوله بعده:

قفَا فاسأَلا منْ مَنْزِلِ الحَيَّ دِمْنَةٌ وبالأَبْرَقِ البادي أَلِمّا على رَسْمِ

وغَفَرَ الجرح **يَغْفِرُ غَفْراً**: نكس وانتقص، **وغَفِر** بالكسر، لغة فيه. ويقال للرجل إذا قام من مرضه ثم نكس: **يَغْفِرُ غَفْراً**. **وغَفَرَ** الجلب السوق **يَغْفِرُها غَفْراً**: رخصها.

والغُفْرُ والغَفْر، الأخيرة قليلة: ولد الأروية، والجمع **أَغْفَارٌ وغَفِرةٌ وغُفورٌ**؛ عن كراع والأنثى **غُفْرة** وأمه **مُغْفِرةٌ** والجمع **مُغْفِرات**؛ قال بشر بن خازم:

---

(١) البيت في الهجرة(٢/٣٩٢) والصحاح والعباب ونسب فيه إلى المرار بن سعيد.

وصَعْب يَزِلّ الغُفْرَ عن قُذُفَاتِه   بحافاته بانٌ طِوالٌ وعَرْعَرُ

وقيل: **الغُفْر** اسم للواحد منها والجمع؛ وحكي: هذا **غُفْرٌ** كثير وهي أروى **مُغْفِرٌ لها غُفْرٌ**؛ قال ابن سيدة: هكذا حكاه أبو عبيد والصواب: أروية **مُغْفِر**، لأن الأروى جمع أو اسم جمع.

والغِفْرُ، بالكسر: ولد البقرة، عن الهجري. **وغِفارٌ**: ميسم يكون على الخد. **والمَغافِرُ والمَغَافِيرُ**: صمغ شبيه بالناطف ينضخه العرفط فيوضع في ثوب ثم ينضح بالماء فيشرب، واحدها **مِغْفَر ومَغْفَر ومُغْفُور ومِغْفار ومِغْفِير**. **والمَغْفَراء**: الأرض ذات المغافير؛ وحكى أبو حنيفة ذلك في الرباعي؛ **وأَغْفَر** العرفط والرمث: ظهر فيها ذلك، وأخرج **مَغافيرَه** وخرج الناس **يتَغَفرُون ويَتَمَغْفَرُون**، أي يجتنون المَغافيرَ من شجره، ومن قال: **مُغْفر** قال: خرجنا **نَتَمَغْفَر**؛ ومن قال **مُغْفُر** قال: خرجنا **نَتَغَفَّر**، وقد يكون **المُغْفورُ** أيضاً للعشر والسلم والثمام والطلح وغير ذلك. التهذيب: يقال لصمغ الرمث والعرفط **مَغَافير** ومَغاثيرٌ، الواحد مُغْثر **ومُغْفور ومِغْفَر** ومِغْثَر، بكسر الميم. روى عن عائشة (رضي الله عنها) أن النبي ﷺ شرب عند حفصة عسلاً فتواصينا أن نقول له: أكلت **مغافيرَ**، وفي رواية: فقال له سودة: أكلت **مغافيرَ**؛ ويقال له أيضاً مَغاثِير، بالثاء المثلثة، وله ريح كريهة منكرة؛ أرادت صمغ العرفط.

والمِغافير: صمغ يسيل من شجر العرفط غير أن رائحته ليست بطيبة: قال الليث: **المِغْفارُ** وبه تخرج من العرفط حلوة تنضح بالماء فتشرب. قال: وصمغ الإجاصة **مغفرانٌ** أبو عمرو: **المَغافِيرُ** الصمغ يكون في الرمث وهو حلو يؤكل، واحدها **مُغْفور**، وقد أَغفَرَ الرمث. وقال ابن شميل: الرمث من بين الحمض له **مَغافِيرُ، والمَغافيرُ**: شيء يسيل من طرف عيدانها مثل الدبس في لونه، تراه حلو يأكله إنسان حتى يكدن عليه شدقاه، وهو يكلع شفته وفمه مثل الدبق والرب يغلق به، وإنما يُغْفر الرمث في الصفرية إذا أورس؛ يقال: ما أحسن **مغافيرَ** هذا الرمث. وقال بعضهم: كل الحمض يورس عند البرد وهو تروحه وأزاباده تخرج[1] **مغافيره** تجد ريحه من بعيد **والمَغافيرُ**: عسل حلو مثل الرب إلا أنه أبيض. ومثل العرب: هذا الجني لا أن يكد **المُغْفُر**؛ يقال: ذلك الرجل يصيب الخير الكثير، **والمُغْفُرُ** هو العود من شجر الصمغ يمسح به ما ابيض فيتخذ منه شيء طيب؛ وقال بعضهم

---

(١) قوله: "بروحه وأرباده يخرج" الخ هكذا في الأصل. وفي التهذيب: تروحه وأزاباده تخرج. وهو ما أثبتناه.

ما استدار من الصمغ يقال له: **المُغْفُر**؛ وما استدار مثل الإصبع يقال الصغرور، وما سال منه في الأرض يقال له الذوب، وقالت الغنوية: ما سال منه فبقي شبيه الخيوط بين الشجر والأرض يقال له شآبيب الصمغ؛ وأنشدت:

كأَنَّ سَيْلَ مَرْغِه المُلَغْلِعِ شُؤْبوبُ صَمْغٍ طَلْحُه لم يُقْطَعِ

وفي الحديث: أن قادماً قدم عليه من مكة فقال: كيف تركت الحزورة. قال: جادها المطر **فأَغْفَرَتْ** بطحاؤها أي أن المطر نزل عليها حتى صار **كالغَفَر** من النبات. **والغَفَرُ**: الزئبر على الثوب، وقيل: أراد رمثها قد **أَغْفَرت** أي: أخرجت **مَغافيرها**. **والمَغافيرُ**: شيء ينضحه شجر العرفط حلو كالناطف، قال: وهذا أشبه، ألا تراه وصف شجرها فقال: وأبرم سلمها وأغدق إذخرها؟ **والغفْرُ**: دويبة. **والغَفْرُ**: منزل من منازل القمر الثلاثة أنجم صغار، وهي من الميزان. **وغُفَيْر**: اسم. **وغُفَيرة**: اسم امرأة. وبنو **غافِر**: بطن. وبنو **غِفار**، من كنانة: رهط أبي ذر الغِفاريّ.

بيان معنى كلمة لا إله إلا الله[1]

هذه الكلمة هي أهل الدين وأساس الملة، وهي التي فرّق الله بها بين الكافر والمسلم، وهي التي دعت إليها الرسل جميعاً وأنزلت من أجلها الكتب، وخلق من أجلها الثقلان الجن والإنس، دعا إليها آدم أبونا عليه الصلاة والسلام وسار عليها هو وذريته على عهد نوح، ثم وقع الشرك في قوم نوح فأرسل الله إليهم نوحاً عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى توحيد الله، ويقول لهم: "يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره"، وهكذا هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم من الرسل كلهم دعوا أممهم إلى هذه الكلمة، إلى توحيد الله والإخلاص له وترك عبادة ما سواه وآخرهم وخاتمهم وأفضلهم نبينا محمد ﷺ، بعثه الله إلى قومه بهذه الكلمة، وأمرهم بإخلاص العبادة لله وحده وأن يَدَعوا ما عليه آباؤهم وأسلافهم من الشرك بالله وعبادة الأصنام والأوثان والأشجار والأحجار وغير ذلك فاستنكرها المشركون وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥]؛ لأنهم قد اعتادوا عبادة الأصنام والأوثان والأولياء والأشجار وغير ذلك، والذبح لهم، والنذر لهم، وطلبهم قضاء الحاجات، وتفريج الكروب فاستنكروا هذه الكلمة؛ أنها تبطل آلهتهم ومعبوداتهم من دون الله.

---

(١) للعلامة ابن باز بتحقيقنا.

وقال سبحانه في سورة الصافات: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ * يَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾[الصافات:٣٥،٣٦] سموا النبي ﷺ شاعراً مجنوناً بجهلهم وضلالهم وعنادهم وهم يعلمون أنه أصدق الناس، وأنه الأمين، وأنه أعقل الناس، وأنه ليس بشاعر، ولكنه الجهل والظلم والعدوان والمغالطة والتكذيب والتشبيه على الناس، فكل من لم يحقق هذه الكلمة ويعرف معناها ويعمل بها فليس بمسلم، فالمسلم هو الذي يوحّد الله ويخصه بالعبادة دون كل ما سواه، فيصلي ويصوم له ويدعوه وحده ويستغيث به وينذر ويذبح له إلى غير ذلك من أنواع العبادات، ويعلم يقيناً أن الله سبحانه هو المستحق للعبادة، وأن ما سواه لا يستحقها سواء كان نبيًّا أو ملكاً أو وليًّا أو صنماً أو شجراً أو جنياً أو غير ذلك كلهم لا يستحقون العبادة بل هي حق الله وحده، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣] يعني أمر وأوصى ألا تعبدوا إلا إياه، وهذا معنى لا إله إلا الله، وهو أنه لا معبود بحق إلا الله، فهي نفي وإثبات؛ نفي للإلهية عن غير الله وإثبات له بحق الله وحده سبحانه وتعالى، فالإلهية التي يوصف بها غير الله باطلة وهي لله وحده بحق ثابتة له سبحانه وتعالى كما قال ﷻ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾[الحج:٦٢] فالعبادة لله وحده دون كل ما سواه، وأما صرف الكفار لها لغيره سبحانه فذلك باطل ووضع لها في غير محلها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:٢١]، وقال سبحانه في سورة الفاتحة وهي أعظم سورة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥] أمر الله المؤمنين أن يقولوا هكذا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، يعني نعبدك وحدك وإياك نستعين بك وحدك، وقال ﷻ: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[البينة:٥]، وقال ﷻ:﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[غافر:١٤]، وقال سبحانه: ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * أَلاَ للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[التوبة:٢،٣]، إلى غير ذلك من آيات كثيرات كلها تدل على أنه سبحانه هو المستحق للعبادة، وأن المخلوقين لا حظَّ لهم فيها، وهذا هو معنى لا إله إلا الله وتفسيرها وحقيقتها تخصّ العبادة بحق الله وحده وتنقيها بحق عما سواه. ومعلوم أن عبادة غير الله موجودة، وقد عُبدت أصنام وأوثان من دون الله وعبدت الرسل من دون الله وعبد الصالحون من دون الله كل ذلك قد وقع، ولكنه باطل وهو خلاف الحق والمعبود بالحق

هو وحده سبحانه وتعالى.

وكلمة لا إله إلا الله نفي وإثبات كما سبق، نفي للعبادة بحق عن غير الله كائناً من كان، وإثبات العبادة لله وحده بالحق كما قال جل وعلا عن إبراهيم عليه السلام إنه قال لأبيه: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الزخرف:٢٦-٢٨]، وقال سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤].

وهذا قول الرسل جميعاً؛ لأن قوله سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ يعني به الرسل جميعاً وهم الذين معه من أولهم إلى آخرهم ودعوتهم دعوته، وكلمتهم هي البراءة من عبادة غير الله ومن المعبودين من دون الله الذين رضوا بالعبادة لهم ودعوا إليها، فالمؤمن يتبرأ منهم وينكر عبادتهم ويؤمن بالله وحده المعبود بالحق سبحانه وتعالى، ولهذا قال سبحانه في الآية السابقة عن إبراهيم أنه قال لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وهو الله سبحانه وتعالى الذي فطره وفطر غيره لأنه لا يتبرأ من عبادته، وإنما يتبرأ من عبادة غيره، فالبراءة تكون من عبادة غيره سبحانه، أما هو الذي فطر العباد وخلقهم وأوجدهم من العدم وغذاهم بالنعم فهو المستحق للعبادة سبحانه وتعالى، فهذا هو مدلول هذه الكلمة ومعناها ومفهومها، وحقيقتها البراءة من عبادة غير الله وإنكارها واعتقاد بطلانها والإيمان بأن العبادة بحق لله وحده سبحانه وتعالى، وهذا معنى قوله جل وعلا: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا﴾[البقرة:٢٥٦] ومعنى يكفر بالطاغوت ينكر عبادة الطاغوت ويتبرأ منها، والطاغوت: اسم لكل ما يعبد من دون الله، فكل معبود من دون الله يسمى طاغوتاً، فالأصنام والأشجار والأحجار والكواكب المعبودة من دون الله كلها طواغيت، وهكذا من عُبد وهو راضٍ كفرعون ونمرود وأشباههما يقال له طاغوت، وهكذا الشياطين طواغيت لأنهم يدعون إلى الشرك، وأما من عُبد من دون الله و لم يرض بذلك كالأنبياء والصالحين والملائكة فهؤلاء ليسوا طواغيت وإنما الطاغوت الشيطان الذي دعا إلى عبادتهم من جن وإنس.

أما الرسل والأنبياء والصالحون والملائكة فهم براء من ذلك وليسو طواغيت؛ لأنهم

أنكـــروا عبادهم وحذروا منها وبينوا أن العبادة حق الله وحده سبحانه وتعالى، كما قال جل وعلا: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ يعني ينكر عبادة غير الله، ويتبرأ منها ويجحدها ويبين أنها باطلة ﴿وَيُؤْمِن بِاللهِ﴾ يعني يؤمن بأن الله هو المعبود بالحق، وأنه المستحق للعبادة، وأنه رب العـــالمين، وأنه الخلاق العليم رب كل شيء ومليكه العالم بكل شيء والقاهر فوق عـــباده وهـــو فـــوق العرش فوق السماوات سبحانه وتعالى، وعلمه في كل مكان وهو المســتحق العـــبادة جـــل وعلا، فلا يتم الإيمان ولا يصح إلا بالبراءة من عبادة غير الله وإنكارها واعتقاد بطلانها، والإيمان بأن الله هو المستحق للعبادة سبحانه وتعالى، وهذا هو معـــنى قوله سبحانه وتعالى في سورة الحج: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾[الحج:٦٢]، وفي سورة لقمان: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾[لقمـــان:٣٠]، وهو معنى الآيات السابقات وهي قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[البقرة:٢١]، وقوله جل وعلا: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النســـاء:٣٦]، وقوله جل وعلا: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥] إلى غير ذلك من الآيات.

متى وقع الشرك؟

وكان الناس في عهد آدم وبعده إلى عشرة قرون كلهم على توحيد الله كما قال ابن عباس رضي الله عنهما. ثم وقع الشرك في قوم نوح فعبدوا مع الله ودًّا وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً كمـــا ذكـــر الله ذلك في سورة نوح، فأرسل الله إليهم نوحاً ﷺ يدعوهم إلى توحيد الله وينذرهم نقمة الله وعقابه. فاستمروا في طغيانهم وكفرهم وضلالهم ولم يؤمن به منهم إلا القليل، فأكثرهم ومعظمهم استكبروا عن ذلك كما بين الله في كتابه العظيم، فماذا فعل الله بهـــم؟ فعل بهم ما بينه لنا في كتابه العظيم من إهلاكهم بالطوفان وهو الماء العام الذي ملأ الأرض وعلا فوق الجبال، وأغرق الله به من كفر بالله وعصى رسوله نوحاً، ولم ينج إلا مـــن كـــان مـــع نوح في السفينة كما قال سبحانه: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْـــنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[العنكبوت:١٥] وهذا عقابهم في العاجل في الدنيا، ولهم عقاب آخـــر في الآخرة وهو العذاب في النار يوم القيامة، نسأل الله العافية. ثم جاءت عاد بعد ذلك، وأرسل الله إليهم هوداً بعد نوح، فسلكوا مسلك من قبلهم من قوم نوح في العناد والكفر بالله والضلال، فأرسل الله عليهم الريح العقيم فأهلكوا عن آخرهم ولم ينج منهم إلا مـــن آمـــن بهود وهو القليل. ثم جاء بعدهم قوم صالح وهم ثمود فسلكوا مسلك من

قبلهم من الأمتين أمة نوح وأمة هود فعصوا الرسل واستكبروا عن الحق فأخذهم الله بعقاب الصيحة والرجفة حتى هلكوا عن آخرهم، ولم ينج إلا من آمن بنبيه صالح ﷺ. ثم جاء بعدهم الأمم الأخرى أمة إبراهيم وأمة لوط وشعيب وأمة يعقوب وإسحاق ويوسف. ثم جاء بعدهم موسى وهارون وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء كلهم دعوا الناس إلى توحيد الله كما أمروا، وقال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[النحل:٣٦]، وقال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾[الأنبياء:٢٥]، وكلهم أدوا ما عليهم من البلاغ والبيان عليهم الصلاة والسلام، بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة ونصحوا الأمة وبينوا لهم معنى الكلمة: "**لا إله إلا الله**"، وبينوا أن الواجب إخلاص العبادة لله وحده، وأنه هو الذي يستحق العبادة دون كل ما سواه، وأن الأشجار والأحجار والأصنام والكواكب والجن والإنس وغيرهم من المخلوقات كلهم لا يصلحون للعبادة؛ لأن العبادة يجب أن تُصرف لله وحده.

وفرعون لما بغى وطغى وعاند موسى وخرج لقتله ساقه الله جل وعلا للبحر وأغرقه ومن معه فيه لحظة واحدة، وهذا عذاب معجل وهو الغرق وبعده عذاب النار، نسأل الله العافية والسلامة.

ونبينا محمد ﷺ دعا الناس إلى عبادة الله وبشر بالجنة من آمن، وحذر بالنار من كفر، فآمن من آمن وهم القليل في مكة، ثم بسبب الأذى له ولأصحابه أمره الله بالهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها ومن آمن معه ممن استطاع الهجرة، فصارت المدينة دار الهجرة، والعاصمة الأولى للمسلمين، وانتشر فيها دين الله، وقامت فيها سوق الجهاد بعد تعب عظيم، وإيذاء شديد من قريش وغيرهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين معه في مكة.

كل ذلك من أجل هذه الكلمة "**لا إله إلا الله**"، الرسل تدعو إليها ومحمد خاتمهم ﷺ يدعوا إلى ذلك، يدعو إلى الإيمان بها، واعتقاد معناها، وتعطيل الآلهة التي عبدوها من دون الله وإنكارها وإخلاص العبادة لله وحده، والمشركون يأبون ذلك، ويقولون إنهم سائرون على طريقة أسلافهم ويقولون: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الزخرف:٢٣].

فأمة العرب الذين بُعث فيهم النبي ﷺ، سلكوا مسلك من قبلهم في العناد والكفر والضلال والتكذيب، ونبينا ﷺ طيلة ثلاثة عشر سنة في مكة يدعوهم إلى توحيد الله، وإلى

تـــرك الشـــرك بالله، فلم يؤمن به إلا القليل، وهكذا بعد الهجرة إلى المدينة، استمروا في طغيانهم، وقاتلوه يوم بدر، ويوم أُحد ويوم الأحزاب عناداً وكفراً وضلالاً، وساعدهم من ساعدهم من كفار العرب، ولكن الله -جلّت قدرته- أيد نبيه والمؤمنين وأعانهم وجرى يـــوم بدر من الهزيمة على أعداء الله، والنصر لأولياء الله، ثم جرى ما جرى يوم أحد من الامـــتحان الذي كتبه الله على عباده، وحصل ما حصل من الجراح والقتل على المسلمين بأســـباب بينها في كتابه العظيم سبحانه وتعالى، ثم جاءت وقعة الأحزاب بين الرسول ﷺ وبين أهل الكفر فأعزَّ الله جنده ونصر عبده وأنزل بأسه بالكفار، فرجعوا خائبين لم ينالوا خـــيراً، ونصر الله المسلمين ضد أعدائهم، ثم جاءت بعد ذلك غزوة الحديبية عام ستة من الهجـــرة، وحصــــل فيها ما حصل من الصلح بين الرسول ﷺ وأهل مكة، والمهادنة عشر ســـنين حتى يأمن الناس، وحتى يتصل بعضهم ببعض، وحتى يتأملوا دعوته ﷺ وما جاء به من الهدى، ثم نقضت قريش العهد فغزاهم النبي ﷺ عام ثمانية من الهجرة في رمضان، وفتح الله عليه مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، والحمد لله.

فهـــذا الـــدين العظيم وهو الإسلام يحتاج من أهله إلى صبر ومصابرة وإخلاص لله ودعـــوة إليه به وبرسله، والوقوف عند حدوده وترك لما نهى عنه ﷻ، وهذا هو دين الله، الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه، وهو الدين الذي بعث به محمداً ﷺ، وهو توحيد الله والإخـــلاص له والإيمان برسوله محمد ﷺ، والانقياد لشريعته قولاً وعملاً وعقيدة، وأصله وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله، التي بعث الله بها جميع الرسل، فلا إسلام إلا بها من عهد نـــوح إلى عهد محمد ﷺ، لا إسلام إلا بهذه الكلمة: "**لا إله إلا الله**" قولاً وعملاً وعقيدة، فيقول المسلم "**لا إله إلا الله**" بلسانه ويصدقها بقلبه وأعماله، فيوحد الله، ويخصه بالعبادة، ويتبرأ من عبادة ما سواه، ولا بد مع هذا من الشهادة للنبي بالرسالة ﷺ، ولا بد من الإيمان بـــالله وحده وإخلاص العبادة له، لا بد من التصديق للرسل الذين بعثوا بذلك من عهد نوح إلى عهد محمد ﷺ، لا بد مع الشهادة بأنه "**لا إله إلا الله**" والإيمان بالله: من تصديق نوح ﷺ، فلا إسلام إلا بذلك.

وفي عهد هود كذلك لا إسلام إلا بتصديق هود ﷺ، مع توحيد الله والإخلاص له، والإيمـــان بمعـــنى لا إلــــه إلا الله، وهكذا في عهد صالح لا إسلام إلا بذلك بتوحيد الله والإخلاص له، والإيمان بصالح، وأنه رسول الله حقاً ﷺ، وهكذا من بعدهم كل نبي يبعث إلى أمته، لا بد في الإسلام من توحيد الله والإيمان بذاك الرسول الذي بعث إليه وتصديقه،

وآخـــرهم عيسى ابن مريم ﷺ هو آخر أنبياء بني إسرائيل وآخر الأنبياء قبل محمد ﷺ، فلا إسلام إلا لمن آمن به واتبع ما جاء به، ولما أنكرته اليهود وكذبوه صاروا كفاراً بذلك، ثم بعث الله محمداً ﷺ خاتم الأنبياء وآخرهم، وجعل الدخول في الإسلام لا يتم ولا يصح إلا بالإيمان به ﷺ، فلا بد من توحيد الله والإيمان بهذه الكلمة وهي: "**لا إله إلا الله**" واعتقاد معـــناها. وأن معـــناها توحيد الله وإفراده بالعبادة، وتخصيصه بها دون كل ما سواه، مع الإيمـــان برســـوله محمد ﷺ، وأنه خاتم الأنبياء، لا نبي بعده، هكذا علّم الرسول ﷺ أمته، وهكذا دل كتاب الله على ذلك، قال تعالى: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْـــرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ**﴾[البقرة: ١٧٧] لا بـــد من الإيمان بالنبيين جميعاً وآخرهم محمد ﷺ، ولما سأل جبريل النبي ﷺ عن الإيمـــان فقال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره".

فلا بد مع الإسلام الذي أوله شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، الإيمان بجميع الملائكة، والكتب المنزلة على الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام جميعاً، ولا بد مـــن الإيمان بالقدر خيره وشره والإيمان باليوم الآخر، والبعث بعد الموت، والجنة والنار، وأن ذلك حق لا بد منه، ولكن أصل ذلك وأساسه الإيمان بالله وحده، وأنه هو المستحق للعبادة.

هذا هو الأصل، وهذا هو الأساس والبقية تابعة لذلك، فمن أراد الدخول في الإسلام والاستقامة عليه والفوز بالجنة والنجاة من النار، وأن يكون من أتباع محمد ﷺ الموعودين بالجنة والكرامة فإنه لا يتم له ذلك إلا بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

تحقيق الشهادتين

فتحقيق الأولى: وهي "**لا إله إلا الله**" بإفراد الله بالعبادة، وتخصيصه بها، والإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله ﷺ من أمر الجنة والنار والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وأمـــا تحقيق الثانية: وهي شهادة أن محمداً رسول الله فبالإيمان به ﷺ، وأنه عبد الله ورسوله أرسله إلى العالمين كافة الجن والإنس، يدعوهم إلى توحيد الله والإيمان به، واتباع مـــا جاء به مع الإيمان بجميع الماضين من الرسل والأنبياء، ثم بعد ذلك الإيمان بشرائع الله

التي شرعها لعباده، على يد رسوله محمد ﷺ، والأخذ بها والاستمساك بها من صلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد وغير ذلك.

وكان ﷺ إذا سئل عن عمل يدخل به العبد الجنة وينجو به من النار قال له: "تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله". وربما قال له: "تعبد الله ولا تشرك به شيئاً" فعبر له بالمعنى، فإن معنى شهادة أن لا إله إلا الله: أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً.

ولهذا لما سأله جبريل عليه السلام في حديث أبي هريرة ﷺ فقال: يا رسول الله، أخبرني عن الإسلام؟ قال: "الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً".

وفي حديث عمر ﷺ قال: "الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله"، فهذا يفسر هذا: فإن شهادة أن لا إله إلا الله معناها: إفراد الله بالعبادة، وهذا هو عبادة الله وعدم الإشراك به مع الإيمان برسوله ﷺ.

وجاءه رجل فقال: يا رسول الله دلّني على عمل أدخل به الجنة وأنجو به من النار قال: "تعبد الله ولا تشرك به شيئاً"، ثم قال: "وتقيم الصلاة" إلى آخره.

فعبادة الله وعدم الإشراك به هذا هو معنى لا إله إلا الله، قال الله تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ**﴾[محمد:١٩] يعني: اعلم أنه المستحق للعبادة، وأنه لا عبادة لغيره، بل هو المستحق لها وحده، وأنه الإله الحق، الذي لا تنبغي العبادة لغيره ﷻ.

وإنكار المشركين لها يبين معناها؛ لأنهم إنما أنكروها لما علموا أنها تبطل آلهتهم وتبين أنهم على ضلالة. ولهذا أنكروها فقالوا: ﴿**أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا**﴾[ص:٥]، وقال الله عنهم: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ**﴾[الصافات:٣٥،٣٦].. فعرفوا أنها تبطل آلهتهم وتبين زيفها، وأنها لا تصلح للعبادة، وأنها باطلة، وأن الله الحق هو الله سبحانه وتعالى.

ولهذا أنكروها فعبادتهم للأصنام أو الأشجار أو الأحجار أو الأموات أو الجن أو غير ذلك عبادة باطلة.

فجميع المخلوقات ليس عندهم ضر ولا نفع، كلهم مملوكون لله سبحانه وتعالى، عبيده جل وعلا، فلا يصلحون للعبادة؛ لأن الله سبحانه خالق كل شيء، وهو القائل سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾[البقرة:١٦٣]، وقال جل وعلا: ﴿**إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾[طه:٩٨]،

فالـــواجب علـــى كل مكلف، وعلى كل مؤمن ومؤمنة من الجن والإنس التبصر في هذا الأمر، وأن يعتني به كثيراً، حتى يكون جلياً عنده، واضحاً لديه؛ لأن أصل الدين وأساسه عـــبادة الله وحـــده، وهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق إلا الله وحده ســـبحانه وتعالى، ويضاف إلى ذلك الإيمان بالرسل وبخاتمهم محمد ﷺ، لا بد من ذلك مع الإيمان بملائكة الله، وكتب الله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، والإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله.

كـــل ذلك لا بد منه في تحقيق الدخول في الإسلام، كما سبق بيان ذلك. وكثير من الناس يظن أن قول: لا إله إلا الله، أو أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكفيه ولو فعل ما فعل، وهذا من الجهل العظيم، فإنها ليست كلمات تقال بل كلمات لها معنى لا بد من تحقيقه بأن يقولها ويعمل بمقتضاها.

قلها واعمل بمقتضاها

فـــإذا قـــال: لا إله إلا الله، وهو يحارب الله بالشرك وعبادة غيره فإنه ما حقق هذه الكلمـــة، فقـــد قالها المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وهم مع ذلك في الدرك الأسفل من النار، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِـــدَ لَهُـــمْ نَصِيرًا**﴾[النساء:١٤٥] لماذا؟ لأنهم قالوها باللسان، وكفروا بها بقلوبهم، و لم يعتقدوها و لم يعملوا بمقتضاها. فلا ينفعهم قولها بمجرد اللسان.

وهكـــذا مـــن قالها من اليهود والنصارى وعبّاد الأوثان كلهم على هذا الطريق، لا تنفعهم حتى يؤمنوا بمعناها وحتى يخصوا الله بالعبادة، وحتى ينقادوا لشرعه.

وهكـــذا أتباع مسيلمة الكذاب والأسود العنسي والمختار بن أبي عبيد الثقفي الذين ادّعـــوا النـــبوة وغيرها، يقولون لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، لكن لما صدقوا من ادعـــى أنه نبي بعد محمد ﷺ خرجوا عن الإيمان، وصاروا مرتدين؛ لأنهم كذبوا قول الله تعالى: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾[الأحزاب: ٤٠] فهو خاتمهم وآخرهم، من ادعى بعده أنه نبي أو رسول صار كافراً ضالاً، وهكذا من صدّقه كأتباع مسيلمة في اليمامة والأسود العنسي في اليمن والمختار في العراق وغيرهم لما صدقوا هؤلاء الكذابين بأنهم أنبياء؛ كفر من صدقهم بذلك واستحقوا أن يقاتلون.

فـــإذا كان من ادعى مقام النبوة يكون كافراً؛ لأنه ادعى ما ليس له في المقام العظيم،

وكــذب على الله فكيف بالذي يدعي مقام الألوهية، وينصّب نفسه ليعبد من دون الله، ولا شك أن هذا أولى بالكفر والضلال.

فمن يعبد غير الله، ويصرف له العبادة، ويوالي على ذلك ويعادي عليه فقد أتى أعظم الكفر والضلال.

فمــن شــهد لمخلوق بالنبوة بعد محمد ﷺ فهو كافر ضال، فلا إسلام ولا إيمان إلا بشــهادة: أن لا إله إلا الله قولاً وعملاً وعقيدة، وأنه لا معبود بحق سوى الله، ولا بد من الإيمان بأن محمداً رسول الله، مع تصديق الأنبياء الماضين والشهادة لهم بأنهم بلّغوا الرسالة عليهم الصلاة والسلام.

ثم بعــد ذلك يقوم العبد بما أوجب الله عليه من الأوامر والنواهي، هذا هو الأصل لا يكون العبد مسلماً إلا بهذا الأصل: بإفراد الله بالعبادة والإيمان بما دلت عليه، هذه الكلمة: "**لا إله إلا الله**"، ولا بد مع ذلك من الإيمان برسول الله والأنبياء قبله، وتصديقهم واعتقاد أنهم بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة عليهم الصلاة والسلام، وكثير من الجهلة كما تقدم يظن أنه متى قال لا إله إلا الله وشهد أن محمد رسول الله فإنه يعتبر مسلماً ولو عبد الأنبياء أو الأصنام أو الأموات أو غير ذلك، وهذا من الجهل العظيم والفساد الكبير والضلال البعيد، بل لا بد من العمل بمعناها والاستقامة عليه، وعدم الإتيان بضد ذلك قولاً وعملاً وعقيدة، ولهــذا يقــول جل وعلا في سورة فصلت: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾[فصلت: ٣٠، ٣١].

والمعــنى أنهــم قالوا: ربنا الله ثم استقاموا على ذلك، ووحدوه وأطاعوه واتبعوا ما يرضيه، وتركوا معاصيه، فلما استقاموا على ذلك صارت الجنة لهم، وفازوا بالكرامة، وفي الآية الأخرى من سورة الأحقاف قال سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[الأحقاف: ١٣، ١٤] فعليك يا عبد الله بالتبصر في هذا الأمر والتفقه فيه بغاية العناية، حتى تعلم أنه الأصل الأصيل والأساس العظيم لدين الله، فإنه لا إسلام ولا إيمان إلا بشهادة أن لا إله إلا الله قولاً وعملاً وعقيدة، والشهادة بأن محمداً رسول الله قولاً وعملاً وعقــيدة، والإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله عما كان وما سيكون، ثم بعد ذلك تأتي بأعمال الإسلام من صلاة وزكاة وصوم وغير ذلك.

ولا ينبغي لعاقل أن يغترّ بدعاة الباطل، ودعاة الشرك الذين دعوا غير الله وأشركوا بالله غيره، وعبدوا المخلوقين من دون الله، وزعموا أنهم بذلك لا يكونون كفاراً؛ لأنهم قالوا: "لا إله إلا الله"، قالوها بالألسنة ونقضوها بأعمالهم وأقوالهم الكفرية، قالوها وأفسدوها بشركهم بالله، وعبادة غيره سبحانه وتعالى، فلم تعصم دماؤهم ولا أموالهم، ففي الصحيحين عن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله ﷻ".

هكذا بين النبي ﷺ أنه لا بد من هذه الأمور.

وفي حديث طارق بن أشيم الأشجعي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله ﷻ". وفي اللفظ الآخر: "ومن وحد الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه" أخرجهما الإمام مسلم في صحيحه.

فأبان النبي ﷺ بهذين الحديثين وأمثالهما أنه لا بد من توحيد الله والإخلاص له، ولا بد من الكفر بعبادة غيره، وإنكار ذلك والبراءة منه، مع التلفظ بالشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأداء بقية الحقوق الإسلامية.. وهذا هو الإسلام حقاً، وضده الكفر بالله ﷻ.

وهذا الأصل يجب التزامه والسير عليه، وهو أن توحد الله، وتخلص له العبادة أينما كنت مع أداء الحقوق التي فرضها الله، وترك ما حرم الله عليك، وبهذا تكون مسلماً مستحقاً لثواب الله ولكرامته سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة، ولذلك أنزل قوله جل وعلا: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات:٥٦]، فبين الحكمة في خلقهم، وهي أن يعبدوا الله وحده، وأنهم لم يُخلقوا عبثاً ولا سدى، بل خلقوا لهذا الأمر العظيم: وهو أن يعبدوا الله جل وعلا، ولا يشركوا به شيئاً، ويخصوه بدعائهم وخوفهم ورجائهم وصلاتهم وصومهم، وذبحهم ونذرهم وغير ذلك. وقد بعث بهذا الأمر الرسل، كما قال ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[النحل:٣٦].

نواقضها

فكل من أتى بناقض من نواقض الإسلام أبطل هذه الكلمة؛ لأن هذه الكلمة إنما تنفع

أهلـــها إذا عملوا بها واستقاموا عليها، فأردوا الله بالعبادة وخصوه به، وتركوا عبادة ما ســـواه واستقاموا على ما دلت عليه من المعنى، فأطاعوا أوامر الله وتركوا نواهي الله، و لم يأتوا بناقض ينقضها.

وبذلك يستحقون كرامة الله، والفوز بالسعادة والنجاة من النار. أما من نقضها بقول أو عمل فإنها لا تنفعه ولو قالها ألف مرة في الساعة الواحدة، فلو قال لا إله إلا الله وشهد أن محمداً رسول الله وصلى وصام وزكى وحج ولكنه يقول: إن مسيلمة الكذاب -الذي خرج في عهد رسول الله ﷺ ثم في عهد الصحابة يدعي أنه رسول الله- لو قال إنه صادق، كفر و لم ينفعه كل شيء.

أو قال: إن المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي ادعى النبوة في العراق إنه نبي صادق وأن الذين قاتلوه أخطئوا في قتاله.

أو قـــال في حـــق الأســـود العنسي الذي ادعى في اليمن أنه نبي، أو من بعدهم من الكذابين. إنهم صادقون يكون كافراً، ولو قال لا إله إلا الله، وكررها آلاف المرات.

وهكذا لو قالها وهو يعبد البدوي أو يعبد الحسين أو يعبد ابن علوان أو العيدروس، أو يعـــبد الـــنبي محمداً ﷺ أو يعبد ابن عباس ﷺ، أو يعبد الشيخ عبد القادر الجيلاني أو غيرهـــم يدعـــوهم ويستغيث بهم، وينذر لهم، ويطلب منهم المدد والعون- لم تنفعه هذه الكلمة، وهي "لا إله إلا الله "، وصار بذلك كافراً ضالاً، وناقضاً لهذه الكلمة مبطلاً لها.

وهكذا لو قال لا إله إلا الله، وصلى وصام ولكنه يسب النبي ﷺ، أو ينتقصه أو يهزأ بـــه، أو يقـــول: إنـــه لم يبلّغ الرسالة كما ينبغي، بل قصر في ذلك، أو يعيبه بشيء من العـــيوب، صـــار كافراً، وإن قال لا إله إلا الله آلاف المرات وإن صلى وصام؛ لأن هذه الـــنواقض تبطل دين العبد الذي يأتي بها، ولهذا ذكر العلماء، رحمهم الله، في كتبهم باباً سمـــوه: بـــاب حكم المرتد، وهو الذي يكفر بعد إسلامه وذكروا فيه أنواعاً من نواقض الإسلام منها ما ذكرناه آنفاً.

وهكذا لو قال لا إله إلا الله وجحد وجوب الصلاة، فقال: إن الصلاة ليست واجبة، أو الصوم ليس واجباً، أو الزكاة ليست واجبة، أو الحج ليس واجباً مع الاستطاعة -كفر و لم ينفعه قوله: لا إله إلا الله أو صلاته أو صومه إذا جحد وجوب ذلك، ولو صام وصلى وتعبد، ولكنه يقول إن الزنى حلال، أو غيره مما أجمعت الأمة على تحريمه كفر عند جميع المســـلمين، ونقـــض دينه بهذا القول، وإن قال: لا إله إلا الله وشهد أن محمداً رسول الله

وصلى وصام؛ لأن بتحليله الزنى صار مكذباً لله الذي حرمه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾[الإسراء:٣٢].

وهكذا لو قال: إن الخمر أو الميسر حلال- كفر ولو صلى وصام، ولو قال: لا إله إلا الله فإنه يصير مشركاً كافراً عند جميع المسلمين؛ لأنه مكذب لله في قوله تعالى سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[المائدة: ٩٠].

لكن إن كان من قال ذلك مثله يجهل الحكم لكونه نشأ في بلاد بعيدة عن المسلمين، بيّن له حكم ذلك بالأدلة الشرعية، فإذا أصر على حل الزنى أو الخمر ونحوهما من المحرمات المجمع عليها - كفر إجماعاً.

والمقصود من هذا أن يعلم أن الدخول في الإسلام والنطق بهذه الكلمة: "**لا إله إلا الله**"، والشهادة بأن محمداً رسول الله لا يكفي في عصمة الدم والمال، إذا أتى قائلها بما ينقضه.

وهكذا لو أن إنساناً صلى وصام وتعبد وقال هذه الكلمة آلاف المرات في كل مجلس، ثم قال مع ذلك: إن أمه حلال، له أن يجامعها، أو ابنته أو أخته، كفر عند جميع المسلمين، وصار مرتداً بذلك لكونه استحل ما حرّم الله، بالنص والإجماع، وهكذا لو كذب نبياً من الأنبياء، وقال: إن محمداً رسول الله، وأنا مؤمن به وموحد لله، وأقول لا إله إلا الله، ولكني أقول إن عيسى ابن مريم كذاب ليس برسول لله، أو موسى أو هارون أو داود أو سليمان أو نوحاً أو هوداً أو صالحاً أو غيرهم ممن نص القرآن على نبوته ليسوا أنبياء، أو سبهم كفر إجماعاً، و لم ينفعه قول لا إله إلا الله ولا شهادة أن محمداً رسول الله، ولا صلاته ولا صومه لأنه أتى بما يكذب به الله ورسوله، وطعن في رسل الله، وهكذا لو أتى بكل شيء مما شرعه الله، وعبد الله وحده وصلى وصام، ولكنه يقول الزكاة ليست واجبة، من شاء زكى ومن شاء لم يزك كفر إجماعاً، وصار من المرتدين الذين يستحقون أن تراق دماؤهم؛ لأنه قال: الزكاة غير واجبة؛ ولأنه خالف قول الله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾[البقرة:٤٣]، وخالف النصوص من السنّة على أنها فرض من فروض الإسلام وركن من أركانه.

وهكذا لو ترك الصلاة، ولو قال: إنها واجبة، فإنه يكفر في أصح قولي العلماء كفراً أكبر لقول النبي ﷺ: "إن العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر" [أخرجه

الإمام أحمد في مسنده، وأهل السنن بإسناد صحيح].

وقول النبي ﷺ: "بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة" [أخرجه الإمام أحمد في صحيحيه]. إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على كفر تارك الصلاة، ومن أراد التفصيل في هذا الأمر فليراجع باب حكم المرتد، ليعرف ما ذكر فيه العلماء من النواقض الكثيرة.

وبذلك يكون المؤمن على بصيرة في هذا الدين، ويعرف أن لا إله إلا الله هو أصل الدين، وهي أساس الملة مع شهادة أن محمداً رسول الله، وأنه لا إسلام ولا إيمان ولا دين إلا بهاتين الشهادتين، مع الإيمان بكل ما جاء به رسول الله ﷺ، والالتزام بذلك، مع الإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله ﷺ، ومع الإيمان بفرائض الله، ومع الإيمان بمحارم الله، ومع الوقوف عند حدود الله.

وهذا أمر أوضحه العلماء، وبينوه في كتبهم، وهو محل إجماع ووفاق بين أهل العلم، فينبغي لك يا عبد الله أن تكون على بصيرة، وألا تنخدع بقول الجاهلين والضالين من القبوريين وغيرهم، من عبّاد غير الله، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وجهلوا دين الله، حتى عبدوا مع الله غيره، ويزعمون أنهم بذلك ليسوا كافرين لأنهم يقولون: لا إله إلا الله، وهم ينقضونها بأعمالهم، وتعلم أيضاً هاتين الشهادتين هما أصل الدين وأساس الملة ينتقضان في حق من أتى بناقض من نواقض الإسلام.

فلو أن هذا الرجل أو هذه المرأة شهدا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وصليا وصاما إلى غير ذلك من أعمال، لكنهما يقولان إن الجنة ليست حقيقة، أو أن النار ليست حقيقة، فلا جنة ولا نار، بل كله كلام ما له حقيقة، فإنهما يكفران بذلك القول كفراً أكبر، بإجماع المسلمين، ولو صلى وصام من قال ذلك وزعم أنه مسلم موحد لله وترك الشرك ولكنه يقول: إن الجنة أو النار ليستا حقاً، ما هناك جنة ولا نار، أو قال: ما هناك ميزان، أو ما هناك قيامة، ولا هناك يوم آخر، فإنه بذلك يصير مرتداً كافراً ضالاً عند جميع المسلمين، أو قال: إن الله ما يعلم الغيب أو لا يعلم الأشياء على حقيقتها، فإنه يكفر بذلك لكونه بهذا القول مكذباً لقول الله سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[المجادلة:٧]، وما جاء في معناها من الآيات؛ ولأنه قد تنقص ربه سبحانه وتعالى، وسبّه بهذا القول، وبهذا تعلم يا أخي أن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله: هي أصل الإيمان وهي أساس الملة، ولكنها لا تعصم قائلها إذا أتى بناقض من نواقض الإسلام، بل لا بد من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.

ولا بد مع ذلك من أداء فرائض الله، وترك محارم الله، فمن أتى بعد ذلك بناقض من نواقض الإسلام بطل في حقه قول لا إله إلا الله، وصار مرتداً كافراً، وإن أتى بمعصية من المعاصـــي التي دون الشرك نقص دينه، وضعف إيمانه، و لم يكفر كالذي يزني أو يشرب الخمـــر، وهو يؤمن بتحريمهما فإن دينه يكون ناقصاً، وإيمانه ضعيفاً، وهو على خطر إذا مـــات علـــى ذلك من دخول النار والعذاب فيها، ولكنه لا يخلد فيها إذا كان قد مات مـــوحداً مسلماً، بل له أمد ينتهي إليه حسب مشيئة الله سبحانه وتعالى، ولكنه لا يكون آمـــناً، بل هو على خطر من دخول النار؛ لأن إيمانه قد ضعف ونقص بهذه المعصية، التي مات عليها و لم يتب من زنى أو سرقة أو غيرها من الكبائر.

بحث في لفظ التوبة[1]

توب: التوبة: الرجوع من الذنب، في الدين. وفي الحديث: الندم توبة، والتوب مثله. وقال الأخفش: التوب جمع توبة مثل عزمة وعزم.

وتاب إلى الله تعالى يتوب توباً وتوبة ومتاباً: أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة.

وأما قوله:

تبت إليك فتقبل تابتي وصمت ربي فتقبل صامتي

إنمـــا أراد توبتي وصومتي فأبدل الواو ألفاً لضرب من الخفة لأن الشعر ليس بمؤسس كله ألا ترى أن فيها:

أدلوك يا رب من النار التي أعددت للكفار في القيامة

فجاء بالتي وليس فيها ألف تأسيس.

وتاب الله عليه وفقه لها - أي التوبة — ورجل تواب تائب إلى الله تعالى.

تواب: يتوب على عبده وقوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ يجوز أن يكون عني به المصدر كالقول، وأن يكون جمع توبة كلورة ولور. (اللسان).

وقـــال أبو منصور: أصل تاب عاد إلى الله تعالى، ورجع وأناب. وتاب الله عليه أي: عاد عليه بالمغفرة وقوله تعالى: ﴿تُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا﴾ أي: عودوا إلى طاعته وأنيبوا إليه. والله التواب: يتوب على عبده بفضله إذا تاب إليه العبد من ذنبه.

---

(١) اللسان.

واســـتتبت فلانـــاً: عرضت عليه التوبة مما اقترف أي الرجوع والندم على ما فرط واستتابة: سأله التوبة.

قـــال العلماء: التوبة[1] من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط: أحدها أن يقلع [2] عن المعصية، والثاني أن يندم على فعلـــها، والـــثالث أن يعزم ألا يعود إليها أبداً. فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته. وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانـــت مالاً أو نحوه رده إليه، وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كان غيبة استحله منها. ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق[3] من ذلك الذنب وبقي عليه الباقي.

وقد تظاهرت دلائل الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة على وجوب التوبة.

قال الله تعالى: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [النور:٣١]. وقال تعالى: ﴿**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**﴾ [هود:٣]، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا**﴾[التحريم:٨].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة"[4]. رواه البخاري.

وعـــن الأغر بن يسار المزني ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب في اليوم مائة مرة "[5]. رواه مسلم.

---

(١) التوبة لغة: الرجوع، وشرعاً: الرجوع من العبد عن الله إلى القرب إليه سبحانه وتعالى.

(٢) يقلع: يكف وينقطع.

(٣) أهل الحق: أهل السنة والجماعة.

(٤) الحـــديث رواه الـــبخاري في الدعـــوات (باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة). لغة الحديث: أستغفر: أي أطلب المغفرة وهي الصفح عن الذنب، وأصل الغفر الستر. أفاد الحديث: حض الأمة على التوبة والاستغفار، فإنه ﷺ مع كونه معصوماً وخير الخلائق وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يستغفر ويتوب في اليوم سبعين مرة.

(٥) الحـــديث رواه مسلم في الذكر(باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه). أفاد الحديث: مع ما قـــبله أن المطلوب كثرة الاستغفار والمسارعة إلى التوبة، وما ذكر في هذا الحديث والذي قبله من العدد لا يقصد به التحديد، وإنما المقصود به الكثرة.

وعن أبي حمزة أنس بن مالك الأنصاري خادم رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة". متفق عليه. وفي رواية مسلم "لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بـــأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته. فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح"[١].

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: "إن الله تعالى يبسط يـــده باللـــيل ليـــتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها "[٢]. رواه مسلم.

وعـــن أبي هريـــرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه"[٣]. رواه مسلم.

---

(١) الحديث رواه البخاري في الدعوات (باب التوبة) ومسلم في التوبة (باب الحض على التوبة).
لغـــة الحـــديث: لله: جواب لقسم مقدر تقديره: والله لله. أفرح: أي أشد فرحاً، والفرح بالنسبة للإنســـان: السرور ولذة القلب بنيل ما يشتهي، وبالنسبة لله تعالى يراد الرضى. سقط على بعيره: أي عثـــر علـــيه وصـــادفه من غير قصد. أضله: ضيعه. فلاة: أرض واسعة لا نبات فيها ولا ماء. الـــراحلة: ما يركبه المسافر من ناقة أو غيرها. الخطام: قال في النهاية: خطام البعير: أن يؤخذ حبل مـــن لـــيف أو شـــعر أو كتان فيجعل في أحد طرفيه حلقة ثم يشد فيه الطرف الآخر حتى يصير كالحلقة ثم يقلد البعير ثم يثني على مخطمه، والخطم: من كل دابة مقدم الأنف والفم.
أفـــاد الحـــديث: رحمة الله تعالى بعباده بقبول توبتهم، وحبه إياهم، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الـــتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ الترغيب بالتوبة والحث عليها، عدم المؤاخذة في الخطأ غير المتعمد، الاقتداء بالنبي ﷺ في التعليم بضرب المثل لتقريب المعنى وزيادة الإيضاح، جواز القسم للتأكيد على ما فيه فائدة ومصلحة.

(٢) الحديث رواه مسلم في كتاب التوبة(باب غيرة الله تعالى).
لغـــة الحديث: يبسط يده: إن لله يداً هو أعلم بحقيقتها وكيفية بسطها، ويرى بعض أهل العلم أن هذا كناية عن بسط رحمته وسعتها، وفتحه باب التوبة لعباده.
أفاد الحديث: أن رحمة الله بعباده وعفوه عنهم شامل لجميع الأزمنة فلا يختص بها زمان دون زمان وإن كـــان لبعضـــها مزية على غيرها، الحث على المسارعة في التوبة إذا وقعت المعصية في ليل أو نهار، قبول التوبة مستمر مادام بابها مفتوحاً، ويغلق بابها بمطلع الشمس من مغربها الذي هو علامة كبرى من علامات قيام الساعة.

(٣) الحديث رواه مسلم في الذكر والدعاء(باب استحباب الاستغفار). =

وعـــن أبي عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "إن الله ﷻ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر"(١). رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وعـــن زر بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال ﷺ أسأله عن المسح على الخفين فقـــال: ما جاء بك يا زر؟ فقلت: ابتغاء العلم. فقال: "إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلـــم رضـــاءً بما يطلب". فقلت: إنه قد حك في صدري المسح على الخفين بعد الغائط والبول، وكنت امرأ من أصحاب النبي ﷺ فجئت أسألك هل سمعته يذكر في ذلك شيئاً؟ قال: نعم، كان يأمرنا إذا كنا سفراً -أو مسافرين- ألا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة، لكن من غائط وبول ونوم. فقلت: هل سمعته يذكر في الهوى شيئاً؟ قال: نعم، كـــنا مـــع رسول الله ﷺ في سفر فبينا نحن عنده إذا ناداه أعرابي بصوت له جهوري: يا محمد! فأجابه رسول الله ﷺ نحوا من صوته هاؤم، فقلت له: ويحك، اغضض من صوتك، فإنـــك عند النبي ﷺ وقد نهيت عن هذا! فقال: والله لا أغضض. قال الأعرابي: المرء يحب القوم ولما يلحق بهم؟ قال النبي ﷺ: "المرء مع من أحب يوم القيامة". فما زال يحدثنا حتى ذكـــر بابا من المغرب مسيرة عرضه، أو يسير الراكب في عرضه، أربعين أو سبعين عاماً. قال سفيان أحد الرواة: قبل الشام، خلقه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض مفتوحاً للتوبة، لا يغلق حتى تطلع الشمس منه"(٢). رواه الترمذي وغيره، وقال: حديث حسن صحيح.

= لغة الحديث: تاب الله عليه: أي قبل توبته.
أفاد الحديث: أن الله تعالى يقبل التوبة من عباده تفضيلاً منه إذا كانت مستجمعة لشروطها، ومن شروطها: أن تقع من التائب قبل طلوع الشمس من مغربها، وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**﴾ أن المراد بذلك طلوع الشمس من مغربها.

(١) الحديث رواه الترمذي في الدعوات(باب التوبة مقبولة قبل الغرغرة رقم[٣٥٣١]).
لغة الحديث: يغرغر: مأخوذ من الغرغرة، وهي جعل الشراب في الفم ثم ترديده إلى أصل حلقومه فلا يبتلعه، والمراد الاحتضار ووصول الروح إلى الحلقوم وهو أسفل الحلق.
أفاد الحديث: أن من شروط التوبة أن تقع من المكلف قبل أن يصل إلى حالة لا تمكن الحياة بعدها عـــادة، قال تعالى: ﴿**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ**﴾.

(٢) الحديث رواه الترمذي في الدعوات(باب ما جاء في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعـــباده رقـــم[٣٥٢٩،٣٥٣٠]، وفي الطهـــارة رقم٩٦. ورواه النسائي في كتاب الطهارة(باب التوقيت في المسح على الخفين للمسافر). وابن ماجة في كتاب الطهارة والفتن. =

وعـــن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض؛ فدل على راهب. فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عا لم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟! انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء؛ فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة

= لغـــة الحـــديث: مـــا جاء بك: ما حملك على المجيء. ابتغاء العلم: من أجل طلب العلم. تضع أجنحـــتها: مجاز عن معونته وتيسير سعيه. حك في صدري: حصل عندي شك. الغائط: في أصل اللغـــة هو المكان المنخفض من الأرض، وأطلق على ما يخرج من دبر الإنسان للمجاورة. سفراً: جمـــع ســـافر، مـــثل صـــحب جمع صاحب. أو: تدل على الشك من الراوي هل قال سفراً أو مســـافرين. خفافنا: جمع خف، وهو ما يلبس في قدم الإنسان كالحذاء. يأمرنا: الأمر هنا للإباحة والجـــواز. الجـــنابة: هي لغة البعد، وشرعاً ما يوجب الغسل من جماع أو إنزال. الهوى: الحب. أعـــرابي: نسبة إلى أعراب، وهم سكان البوادي، ونسب إلى الجمع تميزاً له عن عربي الذي يشمل مـــن يســـكن الـــبادية أو القرى. الجهوري: الشديد العالي. نحواً من صوته: أي بصوت مرتفع كصـــوته. هاؤم: خذ. ويحك: كلمة ترحم وتوجع تقال لمن وقع في سوء لا يستحقه. اغضض: اخفض. لما يلحق بهم: أي لم يعمل مثل عملهم من حيث الكمال. فما زال: أي النبي ﷺ. للتوبة: لقبول التوبة.

أفـــاد الحديث: الحث على طلب العلم وسؤال المكلف أهل العلم عما أشكل من أمر دينه، جواز المسح على الخفين ومدته للمسافر ثلاث أيام بلياليها، وللمقيم يوم وليلة، وتبتدئ المدة من الحدث بعد لبسه، ويشترط لجواز المسح: أن يكون الخف طاهراً، وأن يلبس بعد طهارة كاملة، وأن يكون ساتراً للكعبين، وأن يمكن تتابع المشي فيه لتردد المسافر لحاجته دون أن يبلى، وينوب مسح الخفين عـــن غســـل الرجلين في الطهارة من الحدث الأصغر فقط كما ذكر في الحديث: من غائط وبول ونوم، ولا ينوب عن غسلهما في الطهارة من الحدث الأكبر كالجنابة والحيض والنفاس، فلا بد في هـــذه الحالة من نزع الخف وغسل الرجلين، والتأدب مع العلماء والصالحين، وخفض الصوت في مجـــالس العلـــم، تعليم الجاهل حسن الأدب وقواعد السلوك، الاقتداء بالنبي ﷺ في حلمه وحسن خلقـــه ومخاطبته الناس على قدر علمهم وعقولهم، الحرص على مجالسة الصالحين وحبهم والقرب مـــنهم عـــن مخالطة الأشرار، والحذر من تعلق القلب بأهل المعاصي والفجور، من شأن المحبة أن تجـــذب المحب إلى طريق من يحب وتحمله على طاعته، فتح باب الأمل والرجاء، والتبشير بالنجاة واللطـــف في المـــوعظة، سعة رحمة الله ﷻ، وتيسيره الهداية، وفتحه باب التوبة، وذكر الباب ربما يكون كناية عن ذلك، وقد يكون باباً الله أعلم بحقيقته.

الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى! وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم -أي حكماً- فقال: قيسوا بين الأرضين، فإلى أيـــتهما كـــان أدنى فهو لها، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة" متفق عليه. وفي رواية الصحيح: "فكان في القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها".

وفي رواية في الصحيح: "فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي". وقـــال: "قيســـوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له". وفي رواية: "فنأى بصدره نحوها"[1].

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الأنبياء (باب ما ذكر عن بني إسرائيل). ومسلم في كتاب التوبة (باب قبول توبة القاتل).

لغـــة الحديث: راهب: هو المتخلي عن أشغال الدنيا والتارك لملاذها والزاهد فيها والمعتزل لأهلها المتعمد للمشاق. من يحول: استفهام استنكاري، أي: أي شيء يكون حائلاً وفاصلاً. بينه: أي بين التائب من الذنب والتوبة. أرض كذا وكذا: روى الطبراني أن اسمها بصرى، واسم القرية التي كان فيها كفرة. نصف الطريق: أي بلغ نصفها. الأرضين: أي التي خرج منها والتي ذهب إليها. أدنى: أقرب. نأى: نهض بجهد ومشقة رغم ثقل ما أصابه من الموت.

أفاد الحديث: حسن أسلوب النبي ﷺ في التوجيه والموعظة بضرب الأمثلة الواقعية، وكذلك جواز الـــتحدث عن الأمم السابقة مما لم يأت الإسلام بما يخالفه. النفوس التي فيها استعداد للخير والحق ترجع إلى الاستقامة وإن انحرفت بها الأهواء حيناً عن طريق الهدى. فضل العلم مع قلة العبادة على كثرة العبادة مع الجهل؛ لأن العابد الجاهل ربما أساء من حيث أراد أن يحسن صنعاً فهلك وأهلك، والعـــالم يهـــتدي بنور العلم فيوفق للحق فينتفع وينفع. باب التوبة مفتوح، والتائب مقبول مهما عظـــم منه الذنب وكثرت الخطايا. على الداعي إلى الخير ومن ينتصب لمعالجة النفوس أن يكون ذا حكمـــة بالغة بحيث يفطن لما يصلح النفوس ويسلك بها سبيل الأمل وفتح باب الرجاء. قبول توبة القاتل عمداً وعليه إجماع العلماء لأن الظاهر من الحديث أن قتله النفوس عمداً وعدواناً، ولم يمنع ذلك من قبول توبته، وهذا وإن كان في شرع من قبلنا لكنه جاء في شرعنا ما يؤيده كقوله تعالى في ســـورة الفـــرقان: ﴿**إِلاَّ مَـــن تَـــابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَـــنَاتٍ**﴾ بعد قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾. مجانبة أهل المعاصي ومقاطعـــتهم مـــا داموا على حالهم، ومصاحبة أهل التقوى والعلم والصلاح. حب الله تعالى لتوبة عـــباده وإخباره الملائكة بذلك مباهاة بهم، وأخذه بيد عباده التائبين إلى النجاة. بذل الجهد وتحمل المشـــقة من أجل اللحاق بالصالحين، وفعل عمل المقربين دليل صدق الرغبة في التوبة إلى الله ﷻ. يحسن بمن يصف حالاً أو ينقل كلاماً عن غيره مما يكره النطق به بلفظ الغائب، وكذلك إذا كان يخاطـــب بهذا الكلام غيره فلا يضيفه إليه مراعاة لحسن الأدب في الخطاب، كما أشار إليه قوله=

وعـــن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعب ﷺ من بنيه حين عمي قال: سمعـــت كعب بن مالك ﷺ يحدث بحديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني قد تخلفـــت في غـــزوة بدر، و لم يعاتب أحد تخلف عنه؛ إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله تعالى بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مـــع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها. وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، و لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرهـــا حـــتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد؛ واستقبل ســـفراً بعيداً ومفازاً واستقبل عدداً كثيراً؛ فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجههم الذي يريد؛ والمسلمون مع رسول الله كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ (يريد بذلك الديوان). قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى به ما لم ينزل فيه وحي من الله. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنـــا إليها أصغر، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معه فأرجـــع و لم أقـــض شيئاً، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، و لم أقض مـــن جهـــازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت و لم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلت! ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقـــت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة، إلا رجـــلاً مغموصـــاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله تعالى من الضعفاء، و لم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك وهو جالس في القوم بتبوك: "ما فعل كعب بن مالك؟" فقال رجـــل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه براده والنظر في عطفيه. فقال له معاذ بن جبل ﷺ: بئس ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ. فبينا هو على ذلك رأى رجلاً مبيضاً يزول السراب، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة، فإذا

="إنـــه قتل فهل له، ومن يحول بينه". وفي الحديث إشارة إلى قدرة الملائكة على التشكل، وتنويه بفضل الإنسان حيث جعل الملك الحكم على صورة الآدمي.

هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون. قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي، فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بم أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رســـول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني حتى عرفت أني لم أنج منه بشئ أبداً، فأجمعت صــــدقه، وأصـــبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعاً وثمانين رجلاً، فقبل منهم علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعـــالى حـــتى جئت. فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ثم قال: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي:" ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟" قال: قلت: يا رسول الله، إني والله لـــو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله يسخطك علي، وإن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقبى الله ﷻ. والله مـــا كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال: فقال رسول الله ﷺ: "أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك". وسار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا. لقد عجزت في ألا تكـــون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المخلفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم، لقي رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قال: قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمـــري، وهلال بن أمية الواقفي، قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أســـوة. قال: فمضيت حين ذكروهما لي. ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بـــين من تخلف عنه. قال: فاجتنبنا الناس -أو قال تغيروا لنا- حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فمـــا هـــي بـــالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاســـتكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان. وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشـــهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصـــلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي وإذا التفت نحوه

أعــرض عــني، حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حــائط أبي قــتادة -وهو ابن عمي وأحب الناس إلي- فسلمت عليه، فوالله ما رد علي الســلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله ﷺ؟ فسكت، فعــدت فناشــدته، فســكت فعدت فناشدته. فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاءني فدفع إلي كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتبا. فقرأته فإذا فيه: أما بعد فإنــه قــد بلغنا أن صاحبك قد جافاك، و لم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك. فقلت حين قرأها: وهذه أيضاً من البلاء! فتيممت بها التنور فسجرتها، حتى إذا مضــت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: لا بل اعتزلها فــلا تقربنها. وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك. فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حــتى يقضي الله في هذا الأمر. فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقــربنك. فقالت: إنه والله ما به من حركة إلى شيء، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمــره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني مــاذا يقــول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب، فلبث بذلك عشر ليالي، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا، ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجداً وعرفت أنه قد جاء فرج. فآذن رسول الله ﷺ الــناس بتوبة الله ﷻ علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا. فذهب قبل صــاحبي مبشرون وركض إلي رجل فرساً وسعى ساع من أسلم قبلي وأوفى على الجبل. فكــان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوتهما إياه ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أتــأمم رســول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجاً يهنئونني بالتوبة ويقولون لي: لتهنك توبة الله

علـيك؛ حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام طلحة بن عبيد الله ﷺ يهرول حتى صافحني وهنأني. والله ما قام رجل من المهاجرين غيره، فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: "أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك". فقلت: أمن عندك يا رسول الله أم مـن عند الله؟ قال: "لا بل من عند الله ﷻ"، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن مـن تـوبتي أن أنخلـع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله. فقال رسول الله ﷺ: "أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك". فقلت: إني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يـا رسول الله إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق، وإن توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، فـوالله ما علمت أحداً من المسلمين أبلاه الله تعالى في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسـول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى. والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومـي هذا. وإني لأرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقي، قال: فأنزل الله تعالى: **﴿لَقَـد تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾** حتى بلـغ: **﴿إِنَّـهُ بِهِـمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾**[1] حتى بلغ: **﴿اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾**[2]. قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ ألا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا: فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حـين أنـزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله تعالى: **﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَـيْهِمْ لِتُعْرِضُـوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِـبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾**[3]. قال كعب: كنا خلفنا -أي الثلاثة- عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول

---

(١) الـتوبة:١١٨. تتمة الآية: **﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَـيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾**. بما رحبت: أي مع رحبها وسعتها. ظنوا: أيقنوا. لا ملجـأ من الله إلا إليه: لا مفر من سخط الله إلا إلى استغفاره. تاب عليهم: ألهمهم أسباب التوبة. تواب: يقبل التوبة الصحيحة.

(٢) التوبة:١١٩. والآية بكاملها: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾**.

(٣) الـتوبة:٩٥،٩٦. انقلبتم: رجعتم. لتعرضوا عنهم: تتركوا معاقبتهم. رجس: قذر لخبث باطنهم. مأواهم: مسكنهم.

الله ﷺ حـــين حلفـــوا له، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله تعالى فيه بذلك. قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ وليس الذي ذكر مما خلفنا تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه، مـــتفق عليه. وفي رواية: "أن النبي ﷺ خرج في غزوة تبوك يوم الخميس، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس". وفي رواية "وكان لا يقدم من سفر إلا نهاراً في الضحى، فإذا قدم بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس فيه"(١).

---

(١) الحـــديث رواه البخاري في كتاب المغازي (باب غزوة تبوك) وفي التفسير، سورة براءة (باب تاب الله على النبي)، و(باب وعلى الثلاثة الذين خلفوا) وغيرها. ورواه مسلم في كتاب التوبة(باب توبة كعب بن مالك).
لغة الحديث: تبوك: اسم موضع. تخلف: لم يخرج معه إلى الجهاد. بدر: اسم لماء بين مكة والمدينة، وبـــه سمي المكان الذي وقعت فيه المعركة المشهورة بين الرسول ﷺ والمشركين. العير: الإبل التي علـــيها أحمالها. ميعاد: موعد واتفاق. ليلة العقبة: وهي الليلة التي بايع فيها الأنصار النبي ﷺ على الإسلام وأن يؤيدوه وينصروه، وهي بيعة العقبة الثانية. تواثقنا: تبايعنا عليه وتعاهدنا. ما أحب أن لي بهـــا مشـــهد بدر: أي ما أحب أني شهدت بدراً و لم أشهد ليلة العقبة. أذكر: أشهر ذكراً في الفضـــيلة. وري: أي أخفى مقصده وأظهر غيره، وذلك بأن يذكر كلاماً يحتمل مقصده ويحتمل شـــيئاً آخر وقد يفهم السامع أنه هو المقصود. مفازاً. ويقال مفازة، وهي الفلاة التي لا ماء فيها، سميت بذلك تفاؤلاً. فجلي: كشف وأوضح المقصد الذي يريده من غير تورية. ليتأهبوا: ليستعدوا بمـــا يحـــتاجون إليه في سفرهم، والأهبة: العدة. بوجههم: بمقصدهم الذي يتجهون إليه. طابت: أينعت ونضجت. أصعر: أميل. طفقت: جعلت، وهي من أفعال الشروع التي ترفع الاسم وتنصب الخـــبر. الجـــد: الاجتهاد في أمر السفر وشئونه. جهازي: حاجيات سفري. مغموصاً: مطعوناً في دينه. فقال رجل من بني سلمة: بنو سلمة بطن من الأنصار، والرجل هو عبد الله بن أنيس. حبسه بـــراده والنظر في عطفيه: حبسه منعه من الخروج، وبراده: مثنى برد وهو الإزار أو الرداء، والبرود ثـــياب من اليمن فيها خطوط. عطفيه: جانبيه، والجملة كناية عن العجب والكبر. مبيضاً: لابس البياض. يزول به السراب: يتحرك، والسراب ما يظهر للإنسان من بعد كالماء وقت اشتداد الحر. لمـــزه: طعن فيه. قافلاً: راجعاً. بثي: البث أشد الحزن. أظل قادماً: أقبل ودنا. زاح: زال وذهب. أبـــداً: الأبـــد الـــزمن المستقبل. أجمعت: عزمت. ابتعت: اشتريت. ظهرك: الظهر هي الإبل التي تـــركب. تجد عَلي: تغضب: عقبى الله ﷻ: أن يعقبني الله خيراً بتوبته علي وإرضاء نبيه ﷺ عني. وثـــار: وثـــب ونهض. يؤنبونني: يلومونني أشد اللوم. والعمري: هذا لفظ البخاري، وعند مسلم: العامـــري. أســـوة: قدوة. تنكرت: تغيرت فاستكانا: ذلا وخضوعاً. أشب القوم: أصغرهم سناً أجلـــدهم: أقـــواهم. أطـــوف: أمشي دائرًا. أسارقه النظر: أنظر إليه في خفية. جفوة: إعراض. تســـورت: علوت سورًا. حائط: بستان. أنشدك: أسألك فاضت عيناي: كثرت دموع عيني. =

=تولـــيت: رجعـــت مـــن حيث أتيت. نبطي: فلاح، سمي به لأنه يستنبط الماء أي: يستخرجه. الطعـــام: اسم لما يؤكل. طفق: أخذ. ملك غسان: هو جبلة بن الأيهم. لم يجعلك الله بدار هوان ولا مضـــيعة: أي لم يجعلك الله منقطعًا بدار تهان فيها أو يضيع فيها حقك. نواسيك: من المواساة أي نخفـــف عنك. البلاء: الابتلاء والاختبار من الله تعالى. فتيممت: قصدت. التنور: ما يخبز فيه. فســـجرتها: أوقـــدتها وأحـــرقتها. استلبث: أبطأ. اعتزلها: لا تخالطها مخالطة الأزواج من الجماع ومقدماتـــه. شـــيخ: ذو سن فوق الكهل وهو من جاوز الثلاثين، وقيل من جاوز الأربعين. ما به حـــركة: أي مـــا يحركه، وذلك من شدة كربه. بعض أهلي: أي ممن يخدمه، والظاهر أنه لم يكن داخـــلاً فيمن نهى عن الكلام معه. الحال التي ذكر الله عنا: أي في قوله تعالى (وعلى الثلاثة) الآية. بمـــا رحـــبت: وســـعت. صارخ: هو أبو بكر. رجل: هو الزبير بن العوام. ساع من أسلم: هو حمـــزة بن عمر الأسلمي. أوفى: صعد وارتفع. سلع: جبل في المدينة. فخررت ساجدًا: أي سجد ســـجدة الشـــكر. فآذن: أعلم. قبل صاحبي: جهتهما. أتأمم: أقصد. يبرق: يلمع وهو كناية عن الســـرور. استنار: زاد نورًا على نوره. إن من توبتي: أي من شكري لله على توفيقي للتوبة وقبوله لهـــا. أنخلـــع: أخرج، والمراد: أتصدق. سهمي: نصيبي وبقعتي فيها. أبلاه الله: أنعم عليه. قال:أي كعـــب مبيـــنًا للآية التي نزلت فيها التوبة عليه وعلى صاحبيه، وهي الآيات ١١٧ ــ ١١٩ من ســـورة الـــتوبة. لقد تاب الله: أي أدام توبته عليهم وقبوله لهم. ساعة العسرة: وقت الشدة، وهي حـــالهم في غزوة تبوك، فقد كانت حين اشتد الحر وطابت الثمار في المدينة كما ذكر في الحديث، كما كانوا على قلة في الزاد والراحلة مع بعد المسافة. أرجأ: أخسر.

أفـــاد الحديث: صراحة المسلم وصدقه، واعترافه بتقصيره، وعدم تلفيقه الأعذار. خطته صلى الله علـــيه وســـلم الحكـــيمة على الصعيد العسكري، كمحافظته على سرية الخطط وحسن تقديره للموقف، وعدم تغريره بجنده ووضعهم في الصورة الواقعية حتى يكونوا على مستوى المهمة الملقاة علـــى عاتقهم. اندفاع المسلمين إلى الجهاد في سبيل الله عز وجل عن رضا وطواعية رغم ما كانوا عليه من شدة ومخمصة. عدم التردد في التطوع، والمبادرة بأخذ الأهبة والاستعداد. تألم المسلم من تقصـــيره في أداء الواجب، وحرصه أن لا يكون من المتخلفين أو المنافقين. صراحة الصحابة رضي الله عـــنهم وصـــدقهم مـــع النبي صلى الله عليه وسلم وقولهم الحق ولو كان على أنفسهم. يعامل الإنســـان على ظاهره ويترك أمر باطنه إلى الله تعالى. لا يعفى المنافق من المسئولية انتحاله الأعذار وتزينه الباطل. الاقتداء بأهل الصلاح والتقوى والتشبه بهم في السلوك والأخلاق. عدم الاكترات بأهل النفاق والفسوق، وتركهم للأيام تفضحهم وتذلهم. وجوب مقاطعة من ظهرت منه المعصية بعدم مخالطته والسلام عليه والرد على سلامه وغير ذلك من دواعي المقاطعة مما يشعره بالهوان حتى يقلـــع عن الذنب ويظهر التوبة. ندم المؤمن وتألمه على ما فرط من فعل المعصية، والبكاء جزاء ما اقتـــرفت يـــداه. تشديد الإسلام في هجر العصاة ولو بعزلهم عن المجتمع ليكون أبلغ في التأديب. استحباب التعرض لمواطن الرحمة واستمطار المغفرة واستجلاب التوبة. تلطف المسيء بالتعرض لمن أساء إليه والتودد إليه بالاعتذار. حسن خلقه صلى الله عليه وسلم ورأفته في صحبه وإشفاقه عليهم وســـروره بسرورهم وفرحه بفرحهم. المؤمن يبتلى في دينه ودنياه، ومن أراد الله به خيرًا صدق=

١٠ـــ وعن أبي نجيد "بضم النون وفتح الجيم" عمران بن الحصين الخزاعي رضي الله عنهما أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنى فقالت: يا رسول الله أصـــبت حـــدًا فأقمه علي، فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال: أحسن إليها، فإذا وضعت فأتني ففعـــل فأمر بها نبي الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها. فقال له عمر: تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟ قال: لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهـــل المدينة لوسعتهم. وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل"(١) رواه مسلم.

١١ـــــ وعن ابن عباس وأنس بن مالك رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: "لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب"(٢) متفق عليه.

= مـــع الله تعـــالى وثـــبت على ما عاهد عليه. المؤمن يؤثر طاعة الله تعالى وطاعة رسوله على ما ســـواهما. مـــن بدرت منه معصية يظن فيها نفاقه أو كفره فلا يجوز لزوجته أن تمكنه من نفسها. يســـتحب التبشـــير بـــالخير، ومكافأة المبشر، وتقديم التهنئة في مناسبات الفرح والسرور. كراهة التصدق بجميع المال كي لا يؤدي ذلك إلى الافتقار وسؤال الناس. أثر الصدق في نجاة الإنسان في الدنيا والآخرة. شكر الله تعالى على تفضله وقبول التوبة، وعفوه عن المذنبين التائبين. التزام الوفاء بالعهود، والطاعة بعد المعصية. فرح المؤمن بالتوبة والتوفيق للحق والصدق. وللحديث فوائد جمة وإرشادات كثيرة، اقتصرنا على أهمها مما يخص باب التوبة.

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الحدود (باب من اعترف على نفسه بالزنى).

لغـــة الحـــديث: امـــرأة من جهينة: هي خولة بنت خويلد، وعند مسلم من غامد، وهي بطن من جهيـــنة. أصبت حدًّا: أي فعلت ما يعاقب عليه بحد. فشدت: أي جمعت أطرافها لتستتر. فقال له عمـــر: أي مســـتجليًا للحكمة وليس منكرًا. سبعين: أي من العصاة. لوسعتهم: لكفتهم في رفع آثامهم. أفضل: أعظم. جادت بنفسها: بذلتها لمرضاة الله تعالى.

أفاد الحديث: من خلق المؤمن التألم والندم إذا فرط منه الذنب، وحرصه على تطهير نفسه من لوثة الإثم ولـــو كـــان في ذلك هلاك نفسه، ليلقى الله عز وجل وهو عنه راض. العقوبة الدنيوية تكفر ذنـــب المعصية إذا اقترن ذلك بالندم والتوبة. لا يقام حد الزنى على الحامل حتى تضع حملها، فإن كـــان حـــدها الجلد فحتى تطهر من نفاسها، وإن كان الرجم فحتى يستغني الولد عنها ولو بلبن غيرها.

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب ما يتقي من فتنة المال وقول الله تعالى: إنما أموالكم وأولادكم فتنة) ومسلم في كتاب الزكاة (باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا). =

الحديث رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب ما يتقي من فتنة المال وقول الله تعالى: إنما أموالكم وأولادكم فتنة) ومسلم في كتاب الزكاة (باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا).

لغـــة الحديث: واديًا: ملء واد. ولن يملأ جوفه إلا التراب: أي لا يزال حريصًا حتى يموت ويمتلئ جوفه من تراب قبره.

أفاد الحديث: شدة حرص الإنسان على جمع المال وغيره من متع الدنيا، وهذا الحرص الشديد مذموم إذا كان فيه تضييع للطاعة، وانشغال القلب بالدنيا أكثر من الآخرة. يقبل الله تعالى توبة من تاب من الصفات المذمومة.

١٢ــــ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "يضحك الله سبحانه وتعـــالى إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيستشهد"[(١)] متفق عليه.

* * *

التوبة النصوح[(٢)]

قـــوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَـــنكُمْ سَــيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ

=لغة الحديث: واديًا: ملء واد. ولن يملأ جوفه إلا التراب: أي لا يزال حريصًا حتى يموت ويمتلئ جوفه من تراب قبره.

أفـــاد الحـــديث: شدة حرص الإنسان على جمع المال وغيره من متع الدنيا، وهذا الحرص الشديد مذمـــوم إذا كان فيه تضييع للطاعة، وانشغال القلب بالدنيا أكثر من الآخرة. يقبل الله تعالى توبة من تاب من الصفات المذمومة.

(١) الحـــديث أخرجه البخاري في كتاب الجهاد (باب الكافر يقتل المسلم ثم يسلم فيسدد بعد ويقتل) ومسلم في كتاب الإمارة (باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة).

لغـــة الحديث: يضحك: الله أعلم بهذا الضحك، وقيل: المراد بالضحك بالنسبة لله تعالى هنا محبته لفعلهما والرضا عنه والثواب عليه.

أفاد الحديث: وجوب التوبة من الذنب مهما كبر، وعدم اليأس من رحمة الله تعالى. الإسلام يمحو ما قبله من جريمة الكفر، والتوبة تمحو ما قبلها من الآثام.

(٢) تفسير القرطبي (٦٦٧٦-٦٦٨٣).

لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أمر بالتوبة، وهي فرض على الأعيان في كل الأحوال وكل زمان. وقد تقدم بيانها والقول فيها في "النساء" وغيرها.

﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ اختلفت عبارة العلماء وأرباب القلوب في التوبة النصوح على ثلاثة وعشرين قولا؛ فقيل: هي التي لا عودة بعدها كما لا يعود اللبن إلى الضرع. وروي عن عمر وابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم. ورفعه معاذ إلى النبي ﷺ وقال قتادة: النصوح الصادقة الناصحة. وقيل الخالصة؛ يقال: نصح أي أخلص له القول. وقال الحسن: النصوح أن يبغض الذنب الذي أحبه ويستغفر منه إذا ذكره. وقيل: هي التي لا يثق بقبولها ويكون على وجل منها. وقيل: هي التي لا يحتاج معها إلى توبة. وقال الكلبي: التوبة النصوح الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع عن الذنب، والاطمئنان على أنه لا يعود. وقال سعيد بن جبير: هي التوبة المقبولة؛ ولا تقبل ما لم يكن فيها ثلاثة شروط: خوف ألا تقبل، ورجاء أن تقبل، وإدمان الطاعات، وقال سعيد بن المسيب: توبة تنصحون بها أنفسكم. وقال القرظي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيئ الخلان. وقال سفيان الثوري: علامة التوبة النصوح أربعة: القلة والعلة والذلة والغربة. وقال الفضيل بن عياض: هو أن يكون الذنب بين عينيه، فلا يزال كأنه ينظر إليه. ونحوه عن ابن السماك: أن تنصب الذنب الذي أقللت فيه الحياء من الله أمام عينك وتستعد لمنظرك. وقال أبو بكر الوراق: هو أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، وتضيق عليك نفسك؛ كالثلاثة الذين خلفوا.[1] وقال أبو بكر الواسطي: هي توبة لا لفقد عوض؛ لأن من أذنب في الدنيا لرفاهية نفسه ثم تاب طلب لرفاهيتها في الآخرة؛ فتوبته على حفظ نفسه لا لله. وقال أبو بكر الدقاق المصري: التوبة النصوح هي رد المظالم، واستحلال الخصوم، وإدمان الطاعات. وقال رويم: هو أن تكون لله وجهاً بلا قفا، كما كنت له عند المعصية قفا بلا

(١) الثلاثة الذين خلفوا هم: كعب بن مالك، مرارة بن ربيعة العامري، هلال بن أمية الواقفي، راجع ج٨ ص ٢٨٢ من هذا الكتاب. وج ٢ص ٩٠٧ من سيرة ابن هشام طبع أوربا.

وجه. وقال ذو النون: علامة التوبة النصوح ثلاث: قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام. وقـــال شقيق: هو أن يكثر صاحبها لنفسه الملامة، ولا ينفك من الندامة، لينجو من آفاتها بالسلامة. وقال سري السقطي: لا تصلح التوبة النصوح إلا بنصيحة النفس والمؤمنين؛ لأن مـــن صحت توبته أحب أن يكون الناس مثله. وقال الجنيد: التوبة النصوح هو أن ينسى الـــذنب فلا يذكره أبداً؛ لأن من صحت توبته صار محبًّا لله، ومن أحب الله نسي ما دون الله. وقال ذو الأذنين(١): هو أن يكون لصاحبها دمع مسفوح، وقلب عن المعاصي جموح، وقال فتح الموصلي: علامتها ثلاث: مخالفة الهوى، وكثرة البكاء، ومكابدة الجوع والظمأ. وقال سهل بن عبد الله التستري: هي التوبة لأهل السنة والجماعة؛ لأن المبتدع لا توبة له؛ بدلـــيل قـــوله ﷺ: "حجب الله على كل صاحب بدعة أن يتوب". وعن حذيفة: بحسب الـــرجل من الشر أن يتوب من الذنب ثم يعود فيه. وأصل التوبة من الخلوص؛ يقال: هذا عســـل ناصح إذا خلص من الشمع. وقيل: هي مأخوذة من النصاحة وهي الخياطة. وفي أخـــذها منها وجهان: أحدهما: لأنها توبة قد أحكمت طاعته وأوثقتها كما يحكم الخياط الثوب بخياطته وتوثيقه. والثاني: لأنها جمعت بينه وبين أولياء الله وألصقته بهم؛ كما يجمع الخياط الثوب ويلصق بعضه ببعض. وقراءة (نصوحاً) بفتح النون، على نعت التوبة؛ مثل امرأة صبور، أي توبة بالغة في النصح.

وقـــرأ الحسن وخارجة وأبو بكر عن عاصم بالضم؛ وتأويله على هذه القراءة: توبة نصح لأنفسكم. وقيل: يجوز أن يكون (نصوحاً)؛ جمع نصح، وأن يكون مصدراً؛ يقال: نصح نصاحة ونصوحاً. وقد يتفق فعالة وفعول في المصدر؛ نحو الذهاب والذهوب. وقال المبرّد: أراد توبة ذات نصح؛ يقال: نصحت نصحاً ونصوحاً.

الثانية: في الأشياء التي يتاب منها وكيف التوبة منها. قال العلماء: الذنب الذي تكون منه التوبة لا يخلو؛ إما أن يكون حقًّا لله أو للآدميين. فإن كان حقًّا لله كترك الصلاة فإن التوبة لا تصح منه حتى ينضم إلى الندم قضاء ما فات منها. وهكذا إن كان ترك صوم أو تفريطاً في الزكاة. وإن كان ذلك قتل نفس بغير حق فأن يمكن من القصاص إن كان عليه وكان مطلوباً به. وإن كان قذفاً يوجب الحد فيبذل الحد ظهره للجلد إن كان مطلوباً به. فـــإن عفـــي عـــنه كفاه الندم والعزم على ترك العود بالإخلاص. وكذلك إن عفي عنه

(١) ذو الأذنـــين: لقـــب أنـــس بن مالك ﷺ؛ قال له النبي ﷺ ذلك. قيل معناه: أحض على حسن الاستماع والوعي. وقيل: إن هذا القول من جملة صلوات الله وسلامه عليه.

في القتل بمال فعليه أن يؤديه إن كان واجداً له؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾[سورة البقرة:١٧٨]. وإن كان ذلك حدًّا من حدود الله- كائناً ما كان. إذا تاب إلى الله تعالى بالندم الصحيح سقط عنه. وقد نص الله تعالى على سقوط الحد عن المحاربين إذا تابوا قبل القدرة عليهم. وفي ذلك دليل على أنها لا تسقط عنهم إذا تابوا بعد القدرة عليهم؛ حسب ما تقدم بيانه. وكذلك الشُّراب والسُّراق والزناة إذا أصلحوا وتابوا وعرف ذلك منهم، ثم رُفعوا إلى الإمام ينبغي له أن يحدهم. وإن رفعوا إليه فقالوا: تبنا؛ لم يتركوا، وهم في هذه الحالة كالمحاربين إذا غلبوا. هذا مذهب الشافعي. فإن كان الذنب من مظالم العباد فلا تصح التوبة منه إلا برده إلى صاحبه والخروج عنه -عينا كان أو غيره- إن كان قادراً عليه؛ فإن لم يكن قادراً فالعزم أن يؤديه إذا قدر في أعجل وقت وأسرعه. وإن كان أضر بواحد من المسلمين وذلك الواحد لا يشعر به أو لا يدري من أين أتى، فإنه يزيل ذلك الضرر عنه، ثم يسأله أن يعفو عنه ويستغفر له؛ فإذا عفا عنه فقد سقط الذنب عنه. وإن أرسل من يسأل ذلك له، فعفا ذلك المظلوم عن ظالمه -عرفه بعينيه أو لم يعرفه- فذلك صحيح. وإن أساء رجل إلى رجل بأن فزعه بغير حق، أو غمه أو لطمه، أو صفعه بغير حق، أو ضربه بسوطه فآلمه؛ ثم جاءه مستعفياً نادماً على ما كان منه، عازماً على ألا يعود، فلم يزل يتذلل له حتى طابت نفسه فعفا عنه؛ سقط عنه ذلك الذنب. وهكذا إن كان شانه بشتم لا حد فيه.

قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (عسى) من الله واجبة. وهو معنى قوله عليه السلام: "التائب من الذنب كمن لا ذنب له". وأن في موضع قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلَكُمْ﴾ معطوف على ﴿يُكَفِّرَ﴾. وقرأ ابن عبلة ﴿وَيُدْخِلْكُمْ﴾ مجذوماً، عطفاً على محل عسى أن يكفر. كأنه قيل: توبوا يوجب تكفير سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار. ﴿يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ﴾ العامل في يوم: ﴿يُدْخِلْكُمْ﴾ أو فعل مضمر. ومعنى: ﴿يُخْزِى﴾ هنا يعذب؛ أي لا يعذبه ولا يعذب الذين آمنوا معه. ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ تقدم في سورة الحديد. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين؛ حسب ما تقدم بيانه في سورة الحديد.

توبة المؤلف

عزيزي القارئ ترددت كثيراً قبل أن أحكي لك هذه التجربة المريرة، والتي أحكيها

لأول مــرة وهــي: تــرجع إلى عام ١٩٥٢م عندما قامت الثورة كنت في السنة الرابعة الابتدائية وكانت بالنسبة لي آخر سنة في المرحلة الابتدائية، ولكن طبق علي نظام الست سنوات، وفي السنة السادسة قرر والدي تسليمي إلى الشيخ أبو الوفاء محمد أحمد صلاح لكي يحفظني القرآن الكريم لكي ألتحق بالمعهد الديني بطهطا، وطهطا هذه عاصمة المركز، وتــبعد عــن قريتنا نجع حمادي بكيلو متر، ولما حصلت على الشهادة الابتدائية لم أتقدم مباشرة للمعهد الديني لقلة ما أحفظه من القرآن فقرر والدي أن أنتظر سنة للاستمرار في الحفظ المكثف، وفعلاً بعد مرور عام من حصولي على الشهادة الابتدائية، تقدمت بأوراقي إلى المعهــد الديني بطهطا، وكان ضمن أوراق الالتحاق استمارة يتعمدها عمدة القرية، وكــان العمدة أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، وكان يوقع بالخاتم، وذهبت إليه فقال لي: اذهب واشتري لي دخان لفّ وكان ثمنه يومئذ (٢,٥) قرش، فأحضرت الرشوة المطلوبة واعتمد لي الاستمارة، وفي اليوم التالي سلمت الملف لفضيلة الشيخ محمود رفاعة عنبر مدير المعهد، وكان المعهد في هذه الآونة خاصًّا وبدون مصروفات، ما عدا الكتب المقررة فكنا نشتريها من المكتبة، وبدأت الدراسة بالمعهد وكنا أول مجموعة من هذه القرية ندخل الأزهر وكان معي أحمد عبد العال عبد العلي وإسحاق أخوه وحسان محمد حسن عبد الهادي، وخلف أحمــد كاشف، ومحمود محمد علام، ومحمد بخيت بخواجي وقمنا باستئجار حجرة معاً في طهطا بجوار المعهد، وكانت الأسرة مصنوعة من الجريد وكان إيجار الحجرة (٥٠) قرشاً.

وكــنا نقيم في طهطا أيام السبت وحتى الخميس بعد انتهاء الدراسة نذهب إلى بلدنا ويوم الجمعة عصراً نرجع إلى طهطا وهكذا.

وفي أول خمــيس ذهبنا إلى القرية، ولله الحمد كنت مواظباً على الصلاة من صغري، وفي وقــت الجمعــة ذهبت إلى المسجد القديم واسمه مسجد (الحساسنة) وكان خطيب المسجد اسمه الشيخ أبو الفتوح صلاح وكان يخطب من كتاب قديم وكلامه مكرر، وفي هــذه الســاعة تأخــر الشيخ و لم يحضر لخطبة الجمعة، وكنت أجلس في الصف الأول وبجواري الشيخ أبو ضيف إسماعيل أبو رحاب (رحمه الله)، فغمزني بشدة وقال لي: اطلع اخطب يا شيخ علي مش أنت في الأزهر، وفجأة وجدت نفسي في أعلى درجات المنبر- وكنت دون البلوغ وفعلت كما يفعل الشيخ ألقيت السلام ثم جلست ثم أذن المؤذن، ثم قمــت وفي يــدي اليمنى العصا؛ لأن الشيخ كان يواظب على أن يمسك العصا في يده الــيمنى، وفعلاً تحدثت وكان جسدي يرتجف من الرهبة، وفعلاً وفقني الله تعالى وكانت

الخطبة على النبي ﷺ، ولما نزلت كان الشيخ قد حضر فقدمته للصلاة، لأنني كما قلت لك: كنت دون البلوغ، ولما تعودت على الخطابة كان في بلدنا خمسة مساجد، كنت كل يوم خميس أذهب إلى خطيب أي مسجد فيهم وأطلب منه الخطبة وكان يسمح لي بكل سرور.

وكانت الطرق الصوفية ما زالت مسيطرة على القرى، وكل قرية تباهي القرى الأخرى بعدد الأضرحة الموجودة فيها، وكان في بلدنا خمسة أضرحة، وكانت عقيدتنا التي تعلمناها من أجدادنا وآبائنا أن صاحب الضريح له باع طويل، وبجوار منزلنا يوجد ضريح للشيخ حجازي وشهرته (المروم) وكلمة المروم هذه تطلق على صاحب هذا الضريح؛ لأنه يقوم بالصلح بين المواشي وأولادها، كيف؟ رجل عنده جاموسة أو معزاة حاملا ثم بعد ولادتها أخذت تعاكس وليدها وتشاغب معه ولا تسمح له بأن يرضع من ثديها، يأتون بهذه البقرة وغيرها من كل فج عميق ويقفون بهما أما الضريح ويأتي السادن ــ الخادم ــ وكان اسمه عم أحمد، يأمر عم أحمد أحد الناس بإمساك البقرة من رأسها ويجلس هو تحتها ويمسك بيده اليمنى وليدها وباليسرى الضرع (ثديها) وينادي على الشيخ المروم لكي يخرج من قبره ويصلح بينهما وبعد مجهود تسمح البقرة لوليدها بالرضاعة فيقوم الرجال بالتصفيق والنساء بالزغاريد واشتهرت بلدنا بنجع المروم.

وبعد شهور قليلة انضم المعهد إلى الأزهر، وأذكر أنه كان لا يسمح لأي طالب مهما كان سنه بدخول باب المعهد إلا بالزي الأزهري، واقترب امتحان نهاية السنة الأولى، وكان راسخًا في عقلي أن أصحاب الأضرحة الخمسة في بلدنا، إذا أكرمتهم فسوف يدخلون لجنة الامتحان لمساعدتي، وفعلاً في جميع ليالي الامتحان كنت أقوم بشراء كيروسين (جاز) وأملأ به مصابيح الأضرحة الخمسة، ثم أشعل المصابيح للإنارة، لكي أذكرهم بنفسي، وأنني في أمس الحاجة إليهم في الامتحان، وكنت أنجح سنويًا وفي اعتقادي أنهم هم أصحاب الفضل في ذلك، واستمررت في ذلك طيلة السنوات الأربع لأن الإعدادية الأزهرية نظام أربع سنوات.

انظر يا أخي كنت أخطب الجمعة وطالبًا بالأزهر ولم أجد من ينصحني؟!! وكانت لا تفوتني حلقة ذكر مع الطرق الصوفية أبدًا وكانوا فرحين مسرورين بي جدًّا.

وكانت لا تفوتني جنازة أبدًا وأكون أول المشيعين وأمشي أمام الجنازة وأقول بأعلى

صوتي [١]: لا إله إلا الله محمد رسول الله، والناس جميعهم يقولون خلفي ذلك معتقدين أن ذلك يرحم وينفع الميت.

ثم جـــاء دوري في التجنيد بالقوات المسلحة فذهبت إلى مندوب التجنيد بطهطا، ثم منطقة تجنيد أسيوط لأنها مختصة بالوجه القبلي (الجنوب) ورحلوني إلى القاهرة في ألماظة في ســـلاح (م ط) يعني مدفعية مضادة للطائرات، وكان والدي الحاج أحمد عمله في القاهرة وفي منطقة عابدين صاحب مقهى بشارع البورصة الجديدة، وكان يقيم مدة في القاهرة، ومـــدة في القرية، وكان يحضر لزيارتي، وكنت أحضر عنده في الإجازات، ثم رحلوني إلى الإســـكندرية في أبي قـــير، وكـــنت مكلفًا بالخطابة في مسجد الوحدة أو المعسكر؛ لأن الخطيب خرج على الاحتياط، وانتهت مدة التجنيد وبعد سنوات فضلت أن أشق طريقي، وأجرت سكنًا لوحدي في منطقة ساقية مكي، وهناك بجوار السكن مسجد كبير يسيطر عليه الطرق الصوفية المتناحرة واسمه مسجد محمود مسلم، تعرف علي رئيس طريقة منهم اسمه الشيخ أحمد علام وكان يعمل مساعد شرطة، فدعاني لزيارة بيته القريب من سكني، فذهبت وكانت ليلة الجمعة، دخلت شقته فوجدت عشرات الرجال والنساء في اختلاط، فقـــام الشيخ ورحب بي وأجلسني بجواره وقال: أعطني يدك اليمنى ثم وضع يده في يدي وقال لابنته: أحضري منديلاً ووضعه فوق أيدينا وتمتم بكلام غير مفهوم، ثم نزع يده من يدي وقال: مبروك إنك أصبحت ابني في الطريقة، ثم جلسنا خلفه وجلس هو في الوسط وأخذ ينشد ويهلل وينادي على أسياده البدوي، والدسوقي، والقناوي، والسيدة وغيرهم، ثم وقـــف وأشـــار إلينا بالوقوف، وأخذ يصفق ويتمايل، وأمرنا أن نفعل مثله، وأخذوا كلـــهم، ويقولون: "اللع للع اللهو اللهو، لا إيلاه إلا الله، وكان ذلك في مكبر الصوت (الميكروفون)".

لمـــا انتهى الذكر أعطانا الأوامر بأن نجتمع يوم الخميس القادم في منزله لكي نذهب لـــزيارة مقام سيدهم الشامي، والشامي هذا في منطقة جزيرة الذهب، وقبل أن ننصرف قال لي أنا بالذات: يا ابني يا علي لو دخلت مجلس فيه شيخ الأزهر على اليمين وأنا على اليسار ابدأ بالسلام عليّ ومصافحتي أنا أولاً؟

وفي الميعاد المحدد ذهبت إلى منزله واجتمع كل أولاده في الطريقة من رجال ونساء،

---

(١) وكان من هدي السلف الصالح عدم رفع الصوت بالذكر أو بالكلام في الجنائز.

وتوجهـــنا إلى المقـــام المذكور، وكان كل واحد منهم يضع يده في يد أخته في الطريقة وكـــنت جديدًا ليس لي أخت فمشيت خلفهم فإذا الضحكات كأننا في ملهى أو مسرح في شـــارع الهـــرم، فلما وصلنا أشار إلينا الشيخ بالوقوف صفوفًا كصفوف الصلاة أو صـــفوف الجيش أو الشرطة، وقال: انتظروا إلى أن أدخل آخذ الإذن من سيدنا صاحب المقـــام، وقـــال لي أنا بالذات: يا علي أوعى تدخل بدون إذن لربما الشيخ يخرب بيتك، فانســـللت خلفه ودخلت فوجدته يحتضن ركنًا من أركان الضريح ويبكي بكاء شديدًا، ويقول: يا سيدنا أنا أحضرت لك الأرز باللبن اللي نفسك فيه، وفجأة لمحني فأخذ يهددني ويســـتعطف الشيخ لكي يسامحني ويرضى عني، ثم أشار للذين هم خارج المقام بالدخول وجلسنا حلقة كالمعتاد واشتغل النحيب وكنا نتبارى من الذي يقدر يلف ويتمايل أكثر، وكان كل همنا كل يوم خميس نروح مكان لكي نرقص.

واتضح لي أن جميع الطرق الصوفية في ضلال وإضلال.

قـــال صاحب الإبداع ص ٣٢٢: وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار، وقاموا يرقصون حواليه ويتواجدون، فهو دين الكفار وعباد العجل.

ونقل القرطبي عن الإمام الطرموس أنه سئل عن قوم في مكان يقرءون شيئًا من القرآن ثم ينشـــد لهـــم منشد شيئًا من الشعر فيرقصون ويطربون ويضربون بالدف والشيابة فهل الحضور معهم حلال أم لا؟

فأجاب مذهب الصوفية أن هذا بطالة وضلالة.

وما الإسلام إلا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ: وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلاً جسدًا له خوار ــ صوت ــ قاموا يرقصون حوله ويتواجدون وهو أي الرقص دين الكفار وعباد العجل.

وإنمـــا كان مجلس النبي ﷺ مع أصحابه كأنما على رءوسهم الطير من الوقار (فينبغي) للسلطان ــ الحاكم ــ ونوابه أن يمنعوهم من الحضور في المساجد وغيرها ولا يحل لأحد يـــؤمن بـــالله تعالى واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا أن يعينهم على باطلهم هذا مذهب الشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم من أئمة المسلمين.

وقال الإمام الكبير ابن قدامة جوابًا على مثل هذا السؤال: إن فاعل هذا مخطئ ساقط

المـــروءة والـــدائم على هذا الفعل مردود الشهادة في الشرع غير مقبول القول، فإن هذه معصـــية ولعب بدين الله تعالى ورسوله ﷺ وكرهه أهل العلم وسموه بدعة ونهوا عن فعله ولا يتقـــرب إلى الله تعالى بمعاصيه، ولا يطاع بارتكاب مناهيه، ومن وسيلته إلى الله تعالى معصية كان حظه الطرد والإبعاد، ومن اتخذ اللهو واللعب دينًا كان كمن سعى في الأرض الفســـاد ومن طلب الوصول إلى الله تعالى من غير طريق رسوله ﷺ وسنته فهو بعيد عن الوصول إلى المراد.

ثم قـــال الشيخ علي محفوظ في ص (٣٢٣) ومن قبائحهم التصفيق حالة الذكر فإنه خفة ورعونة مشابهة لرعونة الأوثان ولا يفعله إلا أرعن أو متصنع جاهل يدل على جهالة فاعله.

إن الشـــريعة لم ترد به لا في كتاب ولا سنة ولا فعل ذلك أحد من الأنبياء ولا أحد من أتباع الأنبياء. وإنما فعله السفهاء الذين لبست عليهم الحقائق بالأهواء وقد حرم بعض العلماء التصفيق على الرجال لقوله ﷺ: "إنما التصفيق للنساء" أي إن النساء تصفق في حالة واحدة فقط أي في الصلاة خلف الإمام إذا التبس على الإمام فالرجال يقولون سبحان الله والنساء يصفقن بباطن اليد اليمنى وبظهر اليد اليسرى.

- ومـــن بـــدعهم قراءة الفاتحة بنية كذا وبنية كذا يفعلون ذلك عقب الفراغ من الذكر ومنهم من يقول للحاضرين منا الفاتحة على هذه النية من غير بيان لما ينويه.
- ومن بدعهم وضع السبحة في العنق أو اليد.

- ومن بدعهم الموالد، فالموالد اليوم هي أسواق الفسق والفجور فيها أماكن الخمور، ومراقص يجتمع فيها الشبان لمشاهدة الراقصات المتبرجات المتهتكات الكاسيات العاريات، فـــيها أماكن أخرى لضروب من يسيء من الأعمال وساقط الأقوال يقصد بها أصحاب الحاضرين، فيها إسراف وتبذير للأموال وإضاعة الأوقات فيما لا فائدة منه ولا خير منه.

الاحتفال بالموالد بين الإتباع والابتداع

مقدمة(١)

الحمـــد لله رب العالمين يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم، والصلاة والسلام على عبده ورسوله النبي الأمين، وبعد: لما رأيت الخلاف بين المسلمين في قضية المولد بين مؤيد ومعارض فقد عقدت العزم على أن أدلي بدلوي لعلي أقدم ما يشفي غليل من يريد الحق والصواب ويلتمس الطريق الموصل إلى بر النجاة، ولعلي في هذا الكتيب قد بينت أُموراً قد تخفـــى علـــى عامة الناس. وأما الذي يتعصب لأمر من الأمور ويهواه ويدافع عنه سواء كانـــت الأدلة الشرعية في جانبه أو ضده إن مثل هذا من المستحيل أن يصرفه عن موقفه أي دلـــيل أو برهان ولو كان مثل الشمس في رابعة النهار، ولقد تأصلت بدعة الاحتفال بالمولد في نفوس هؤلاء أكثر من تأصل السنة، وأنا لم أكتب هذا من أجل ثني هذا النوع مـــن الناس ولكني كتبته لطالب الحق عسى الله أن يوفقنا وجميع المسلمين إلى الحق الذي يرضاه رب العالمين. ولا شك أن رسول الله ﷺ وأصحابه على الحق يقيناً، ولذا فأنا أدعو طريقة سلف الأمة وترك الابتداع، والعاقل لا يترك طريقاً واضحة توصله إلى الهدف يقيناً ثم يلتمس طرقاً أخرى للوصول إلى الهدف عن طريقة غير مضمونة، والله الهادي إلى سواء السبيل.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله النبي الأمين وبعد:

لقد جرت العادة في كثير من بلاد المسلمين أن يحتفل الناس بذكرى مولد الرسول ﷺ -كمـــا أن بعض الناس- تقليداً تحتفل به كل عام، وسوف أتعرض لموضوع الموالد بالبحث والمناقشة مؤيداً ما أذهب إليه بالأدلة فالذين يحتفلون بمولد الرسول ﷺ ويتخذونه عيداً إنهم ينهجون في ذلك مناهج شتى فمنهم من يقول: يستحب صومه، ومنهم من يقول: يكره صـــومه لأنـــه أشبه بالعيد، ومنهم من يذكر الله تعالى على شكل حلق، ومنهم من يقرأ القصائد في مدح الرسول ﷺ ومنهم من يذبح الذبائح ويقيم الولائم، ومنهم من يستخدم آلات الطرب والأغاني، وبعضهم يختلط الرجال مع النساء في الخيام أو في العراء ويحصل

---

(١) الاحتفال بالموالد بين الإتباع والابتداع للشيخ محمد بن سعد بن شعير.

فـــيه مـــن المنكرات ما لا يخفى على عاقل، ومنهم من يعظم الصالحين ويدعوهم لقضاء حاجـــته وشـــفاء مريضه حتى أوقعهم ذلك في الشرك بالله الذي هو أعظم ذنب عند الله تعـــالى، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النســـاء:٤٨،١١٦]. وإذا نظرنا إلى حياة المصطفى وسيرته وجدناه لم يحتفل بمولده و لم يأمـــر به و لم يفعله أحد من الصحابة ولا من التابعين، كما لم يفعله و لم يقبل به أحد من الأئمة الأربعة.

هذا هو شأن سلف الأمة الصالح الذين قال عنهم رسول الله ﷺ :" خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ".

فهـــذه القرون الثلاثة المفضلة على سائر القرون إلى يوم القيامة لم يحتفل أحد منهم بمـــولد الرسول ﷺ ولا بمولد غيره، وإنما أول من احتفل بمولد الرسول ﷺ في الإسلام هم الفاطميون الرافضة في مصر في القرن الرابع الهجري. وذلك أنهم لما رأوا النصارى يحتفلون بمولد عيسى عليه السلام ويعظمونه ويعطلون فيه البيع والشراء اقتبسوا منهم هذا، فأخذوا يحتفلون بمولد الرسول ﷺ ثم أخذوا يحتفلون بمولد عليّ والحسن والحسين وفاطمة الزهراء رضي الله عنهم.

وكان هذا التاريخ هو أول إدخال هذه البدعة في بلاد المسلمين، فعليهم وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

وإذا نظـــرنا إلى احتفال النصارى بمولد عيسى عليه السلام وجدنا أن ذلك ليس من دينهم أيضاً، بل هو بدعة وثنية دخلت النصرانية فلم تستطع الكنيسة مقاومتها فتركتها، ومـــن أراد التأكد من ذلك فلينظر الموسوعة البريطانية أو الموسوعة الأمريكية، وإذا كان أصل الاحتفال بمولد الرسول ﷺ هو تقليد للنصارى باحتفالهم بعيسى فإن الرسول ﷺ قد حـــذرنا من أخذ طريقتهم أو التشبه بهم ، قال محذراً:" لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شـــبراً وذراعـــاً ذراعاً حتى لو دخلوا جُحر ضَب لدخلتموه " قالوا: يا رسول الله اليهود والنصـــارى؟ قـــال:" فمن " أي فمن يكون غيرهم إذا لم يكونوا هم. أخرجه البخاري

ومسلم[١] وأخرج مسلم[٢] عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:" ليس منا من تشبه بغيرنا، لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى " رواه الترمذي، وقال أيضاً: " من تشبه بقوم فهو منهم " أخرجه أحمد وأبو داود[٣] " اتبع ولا تبتدع " أخرجه الدارمي[٤].

أما تعريف البدعة: فقد عرفها بعض العلماء بأكثر من تعريف نختار منها تعريف الإمام الشاطبي رحمه الله وهو من علماء المالكية حيث حارب البدعة وتمسك بالسنة فقال: البدعة: طريقة في الدين مخترَعة تضاهي الشريعة، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه.

إذن نفهم من هذا التعريف أن البدعة الممنوعة شرعاً هي ما كانت في الدين، أما البدعة في أمور الدنيا فليست بمذمومة؛ لأن هناك قواعد عامة فكل أمور الدنيا من مآكل ومشارب وملابس ومساكن وعقود وغيرها فإن الأصل فيها الحلّ والإباحة إلا ما ورد دليل شرعي بتحريمه كتحريم الخمر والربا. وأما أمور الدين فإن الأمر بالعكس فإن الأصل فيها الحظر والمنع، فلا عبادة إلا بدليل شرعي من كتاب أو سنة. ومن يتأمل أمور الدين فإنه لن يجد أي عبادة مشروعة إلا بدليل من كتاب أو سنة، وما دام الاحتفال بالمولد لم

---

(١) متفق عليه. البخاري(٧٣٢٠ ، ومسلم(٢٦٦٩) عن أبي سعيد الخدري، وهذا لفظ البخاري لكن بدل" لدخلتموه "" تبعتموهم ".)

(٢) ضعيف. الترمذي(٢٦٩٥)، ومن طريقه ابن الجوزي في" العلل "(٢/٢٣٤)، واخرجه القضاعي في " مسند الشهاب "(١١٩١) من طريق ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب به. وضعفه الترمذي، وابن الجوزي وانظر: الإرواء "(١٢٧٠).

(تنبيه): هذا الحديث لم يخرجه مسلم، وصحيفة عمرو بن شعيب لم يخرج مسلم منها شيئاً.

(٣) حسن: أخرجه أحمد(٢/٥٠،٩٢)، وعبد بن حميد(٨٤٨)، وابن شيبة(٥/٣١٣) عن ابن عمر: حديث طويل، وهذا جزء منه، وأخرج أبو داود(٤٠٣١)منه: " من تشبه... " وانظر " الإرواء "(١٢٦٩).

(٤) هذا قول ابن مسعود أخرجه الدارمي(١/٦٩)، وابن نصر في(السنة)(٧٨)، وابن وضاح في " البدع والنهي عنها "(١٨) وفيه تدليس الأعمش لكن أخرجه أبو خيثمة في" العلم "(٥٤) عن إبراهيم قال: قال ابن مسعود، وهذا إسناد صحيح، وانظر " تحفة التحصيل "(ص ٢٠) والتعليق عليه.

يرد فيه دليل شرعي فإنه يبقى على الأصل وهو الحظر والمنع، وإن دين الله قد كمل قبل وفاة الرسول ﷺ بدليل قوله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا** ﴾[المائدة:٣]، وإن الله سبحانه يذم الذين يبتدعون في الدين ما ليس منه، قال تعالى: ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ**﴾ [الشورى:٢١]، وأما الأحاديث الواردة في شأن الإحداث والابتداع في الدين فكثيرة نذكر بعضها، فعن العِرباض بن سارية رضي الله عنه قال وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وَجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال:" أوصيكم بتقوى الله ﷻ ، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار "[1] وأخرج مسلم في صحيحه[2] أن النبي ﷺ كان يقول في خطبه:" أما بعد فإن أفضل الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة ".

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ :" من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " رواه البخاري[3]. ومعنى في أمرنا أي في ديننا، ومعنى فهو رد أي مردود عليه لا يقبله الله تعالى. وفي رواية لمسلم:" من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " وقد بيّن الرسول ﷺ أن الإحداث في الدين يكون سبباً في منع الناس من الورود إلى حوضه في عَرَصات يوم القيامة ذلك اليوم الذي قدره خمسون ألف سنة، فقد روى البخاري ومسلم وأحمد[4] عدداً من الأحاديث في الحوض وفيها وصف للحوض وآنيته وأنه يصب فيه ميزابان من نهر الكوثر في الجنة من شرب منه فلم يظمأ أبداً إلى أن قال: "ليردنَّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم، فاقول: إنهم من أمتي، فيقال:

(١) صحيح: أخرجه أبو داود(٤٦٠٧)، والترمذي(٢٦٧٦،٢٦٧٧)، وابن ماجة(٤٣،٤٤)، وأحمد (٤/١٢٦-١٢٧)، وانظر السنة(١٧) لابن أبي عاصم.

(٢) مسلم (٨٦٧) عن جابر.

(٣) البخاري(٢٦٩٧)، ومسلم(١٧١٨/١٨).

(٤) البخاري (٦٥٨٣،٦٥٨٤)، ومسلم(٢٢٩٠)، وأحمد(٥/٣٣٣) عن سهل بن سعد.

إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول: سُحقاً سحقاً لمن غيَّر بعدي " ومعنى سحقا: أي بُعداً، إن هذا من إضرار الإحداث والابتداع في دين الله ما ليس منه، والرسول ﷺ حريص على سعادة أمته وفلاحها فقد قال:" سألت ربي لأمتي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة. سألت ربي لأمتي أن لا يهلكهم بسنة عامة، وسألت ربي أن لا يسلط على أمتي عدواً فيستبيح بيضتهم، وسألت ربي أن لا تكون أمتي شيعاً وأحزابا. فقال الله ﷻ : يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرَدّ وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن اجتمع عليهم مَن بأقطارها إلا أن يقتل بعضهم بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً "(١) فالتفرق قد كتبه الله على هذه الأمة وإن البدع هي سبب تفرق المسلمين إلى فرق وأحزاب قال ﷺ:" افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. قالوا: مَن هي يا رسول الله؟ قال: مَن كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي "(٢) وإن من يريد أن يكون من هذه الفرقة الناجية فإن مواصفاتها واضحة، ومن يكون منها فعليه أن يلتزم وأن يقتدي برسولنا ﷺ والسلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ومنهم الأئمة الأربعة، حيث لم يقل أحد منهم بالاحتفال بمولد الرسول ﷺ ولا بمولد غيره، ولم يبتدعوا في دين الله ما ليس منه.

ومع أن الاحتفال بالمولد بدعة في الدين فهو أيضاً من الغلو الذي نهى الله ورسوله عنه وقد سمعنا من أهل البدع من يبالغ في رسول الله ﷺ حيث رفعوه إلى مرتبة الألوهية فبعضهم يقول:: إن الرسول ﷺ ليس بشراً والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ** ﴾[الكهف:١١٠] ومنهم من يقول إنه نور عرش الرحمن ومن نوره خلقت الشمس والقمر والله جلّ وعلا يقول: ﴿ **اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [النور:

(١) مسلم(٢٨٨٩/١٩)عن ثوبان.

(٢) ضعيف بهذا اللفظ. أخرجه الترمذي(٢٦٤١)، ومن طريق ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٦)، وابن وضاح في" البدع والنهي عنها"(٢٧٠)، والآجري في"الشريعة" (ص١٥)، وابن نصر في " السنة"(٦٢)، والعقيلي في" الضعفاء"(٢٦٢/٢)، وانظر الصحيحة(٢٠٤،٢٠٥).

٣٥] ومنهم من يقول إنه يعلم الغيب والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ** ﴾[النمل:٦٥]والقرآن يخبر أنه ﷺ وهو حي لا يعلم ببعض المنافقين وهم معه في المدينة قال تعالى: ﴿ **وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ** ﴾[التوبة:١٠١].

وقل هذه الأقاويل والخرافات لا يسندها دليل عقلي أو نقلي فمحمد بشر بنص القرآن يحيا حياة بشرية ويموت كما يموت البشر إلا أن الله تعالى شرفه بالنبوة والرسالة، فالغلو لا يجوز في دين الله قال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ** ﴾ [المائدة:٧٧]. وقال ﷺ :" إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو "[(١)]، وعن أنس رضي الله عنه أن أناساً قالوا لرسول الله: أنت خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا. فقال:" أيها الناس قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، وما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ "[(٢)] رواه النسائي.

وقال:" لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله "[(٣)]، والإطراء هو المبالغة في المدح.

فالتفرق قد كتب على هذه الأمة كما كتب على الأمم السابقة ولكن بعد بيان طريق النجاة كما قال تعالى: ﴿ **لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَة وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَة** ﴾[الأنفال: ٤٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ** ﴾ [هود: ١١٩،١١٨]، فالذين رحم ربما لا يختلفون ولا يتفرقون، ونهى الإسلام عن تفرق المسلمين إلى فرق وجماعات فقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ**

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد(٢/٢١٥)، والنسائي(٥/٢٦٨)، وابن ماجة(٣٠٢٩)، وانظر صحيح حبان (٣٨٧١).

(٢) صحيح: النسائي في" اليوم والليلة "(٢٤٨،٢٤٩)، وأحمد(٣/١٣٥،٢٤١)، وابن ماجة(٣٢٤٠).

(٣) البخاري (٣٤٤٥).

منهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾[الأنعام:١٥٩]، وقال جل شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِــهِ وَلاَ تَمُــوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا ﴾[آل عمــران:١٠٢،١٠٣]، وقد قال ﷺ: " إنها ستكون فتن كقطع الليل المظلم " قالوا: فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال:" كتاب الله وسنة رسوله "[١].

أمــا محبة رسول الله ﷺ فهي واجبة على كل مسلم، ولا يؤمن أحد حتى يحب الله ورســوله أكثــر من ماله وولده ووالده والناس أجمعين[٢]، بل وحتى أكثر من نفســه كمــا في قصة عمر[٣]، ثم إن الصلاة على الرسول ﷺ من أفضل الأعمال قــال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَــلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦]، وقد قال ﷺ:" من صلى عليَّ صلاة واحدة صــلى الله عليه بها عشراً "[٤] وهي مشروعة في كل وقت، ويستحب الإكثار منها يــوم الجمعــة وليلتها[٥]، وأما الذين يحتفلون بمولده ﷺ ويَدَّعون أن هذا من محبته فقــد خالفــوا ســنته و لم يلتزموا بها، وهل من محبة الرسول ﷺ أو التأدّب معه أن يعقّــب مســلم على رسول الله ﷺ حين قال:" وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثــة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار "[٦] فيعقب عليه فيقول: لا بــل البدعة منها بدعة حسنة وبدعة سيئة، أو يقول: تنقسم إلى بدعة واجبة، وبدعة مســتحبة، وبدعة مباحة، وبدعة مكروهة، وبدعة محرمة، مع أن "كل" في الحديث تفــيد الاستغراق أي استغراق جميع الأفراد، أي معناها في الحديث أن جميع البدع في الــدين ضــلالة بدون استثناء كما في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمــران:١٨٥]. فهل يمكن أن يقول أحد إن بعض الناس لن يموتوا. إن المحبة الصــادقة لرسول الله ﷺ تكون بطاعته والانقياد للشرع الذي جاء به، فلا يعبد الله

---

(١) لم أجد حديثاً بهذا اللفظ.

(٢) متفق عليه. البخاري(١٥)، ومسلم(٤٤)، عن أنس بلفظ" ... حتى أكون أحب إليه ... ".

(٣) البخاري(٦٦٣٢).

(٤) مسلم(٤٠٨)عن أبي هريرة.

(٥) الأحاديث فيها كثيرة، أنظر في" جلاء الأفهام "(ص٤٦) وما بعدها.

(٦) سبق تخريجه، وزيادة" كل ضلالة في النار" أخرجها النسائي وإسنادها صحيح.

إلا بما شرع الرسول ﷺ لأن أصول المحبة الاتباع قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[آل عمران: ٣١]

وقال الشاعر:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه	هذا لعَمْري في القياس شَنِيعُ
لو كان حبك صادقاً لأطعته	إن المحب لمن يحب مُطِيعُ

فالمحبة الصادقة لرسول الله ﷺ تكون بطاعته، وبكثرة الصلاة عليه، والعودة إلى سنته فندرس أحاديثه ونعمل بها ونقرأ سيرته ونقتدي به، ونقدم قوله على كل قول، فإنه لا أحد من الأمة معصوم من الخطأ إلا رسول الله ﷺ فيجب أن يؤخذ قوله كله ولا يرد منه شيء، وما أحسنَ ما قال إمام دار الهجرة الإمام مالك رحمه الله حيث قال: كل يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر، ويشير إلى النبي ﷺ. وقال الإمام مالك أيضاً: مَن زعم أن في الإسلام بدعة حسنة فقد زعم أن محمداً خان الرسالة، فما دمنا نريد لأنفسنا الصلاح والفلاح والنجاة فعلينا العودة إلى دراسة أحاديث رسول الله ﷺ والعمل بها بدلاً من الاعتماد على الهوى والاستحسان بغير دليل شرعي، وقد قال الإمام عليّ رضي الله عنه: لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أَولى بالمسح من أعلاه[1]، وقال ﷺ:" لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خزلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله "[2].

أسأل المولى جلت قدرته أن يجعلنا من هذه الطائفة المفلحة، وأن يرد الضال عنها إلى الحق إنه على كل شيء قدير.

وأما الذين يعملون لأنفسهم أعياد ميلاد فهذا تقليد لأعداء الإسلام وفيه خطر كبير، وهو مردود شرعاً بالأدلة السابقة، ولأن الأعياد هي من أمور الدين وليست من أمور الدنيا، والله الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) أخرجه أبو داود(١٦٢-١٦٤).

(٢) مسلم(٢٨٨٩)من حديث ثوبان.

فانظـــر إلى أيـــن وصل المسلمون ببركة التصوف واعتقاد أهله بغير فهم ولا مراعاة لشـــرع ـــ فلا عجب إذا عم فيهم الجهل واستحوذ عليهم الضعف وحرموا ما وعد الله تعالى المؤمنين من النصر؛ لأنهم انسلخوا من مجموع ما وصف الله تعالى به المؤمنين في نحو قـــوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْـــوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُـــمُ الْعَـــادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[المؤمنون: ١ -١١].

ونـــرجع إلى حلقـــات الشيخ أحمد حيث حكى لي قصة واهية قال: هل تعرف لماذا سمـــيت مصر بالمحروسة؟ قلت: لا. قال: لأن مصر يحفظوها أربعة ولولاهم لأصبحت شر مكـــان قلـــت له: احك قال: إن البدوي والدسوقي يحفظان الوجه البحري، والقناوي والسيوطي يحفظان الوجه القبلي، قلت له ـــ مازحًا ـــ إن الوجه القبلي مساحته أضعاف الوجه البحري ونحن نطالب بحراسة أكبر عددًا فقال: مصدقًا قولي ـــ سوف أعرض هذا الأمر على رئيسة الديوان في جلسة يوم الخميس، فقلت له: من هذه رئيسة الديوان؟ قال: إن الســـيدة زينب تعقد جلسة كل يوم خميس وأنا عضو هذه الجلسة لحل مشاكل مصر وأهلـــها فلما وجدته يحسبني أنني أكلمه كلام جد قلت له: أين كان هؤلاء الأربع عندما انهـــزمت مصـــر في ســـت ساعات في ١٩٦٧؟ هل كانوا في إجازة اعتيادية؟ أم إجازة مرضـــية؟ أم أهملـــوا في ذلك؟ إنا لله وإنا إليه راجعون كل الدول تتقدم إلى الأمام ونحن نتقهقر للخلف ونباهي أن لنا حضارة (٧) آلاف سنة ونعبد الأموات ونشركهم في ملك الله تعـــالى حيث أصبح حجاج السيد البدوي (٤) مليون حاج (كافر) وأن أهل مصر لا يعلمـــون شيئًا عن الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى ومؤلفاته العلمية ومنها كتاب الجامع الصـــغير وتفســـير الجلالين وكنت أخطب الجمعة يومًا في مسجد بمصر القديمة وكنت أتحـــدث عـــن الطواف وغيره من العبادات، وفي أثناء الدرس قال لي رجل -شيخ كبير وملـــتحٍ- يا شيخ إن الطواف حول الكعبة (٧) أشواط، أما الطواف حول هذه المقامات فمـــرة واحدة -هذا في اعتقاد القائل أن هذا صحيح- قلت له: لو أنت في طواف حول الكعـــبة وانـــتقض وضوءك هل تستمر في الطواف قال كل الحاضرون: لا، لا بد له أن

يتوضأ ثم يكمل الطواف لأن الطواف عبادة كالصلاة.

ونكـــرر أن المـــوالد أسواق للفجور وأنها بدعة وضلالة، ويشرفني أن أقدم لك هذا البحث الذي أعده الشيخ محمد بن سعيد بن شقر وعنوانه "الاحتفال بالموالد بين الاتباع والابتداع"، نسيت أن أقول: إنني كنت في كل عام أسافر أنا وأمي (عليها رحمة الله) إلى القاهرة في إجازة المعهد عند والدي الحاج أحمد عبد العال، وكنا نزور جميع الأضرحة التي في القاهـــرة، ثم بعد ذلك نذهب إلى طنطا لزيارة السيد البدوي، وكنت أنا وأمي نباهي الـــناس في بلدنا بهذه الزيارات والبركات، وفي يوم ذهب معي والدي إلى طنطا، وكانت أمي في مسجد الحريم فقامت بنزع القرط [الحلق] من أذنيها، وقالت لي: خذه وضعه في صندوق السيد البدوي "علشان يأخذ بيدك ويخلي باله منك"، وأثناء ذهابي إلى الصندوق ســـولت لي نفسي أن أخفي القرط (الحلق)، وأقول لأمي: أنا وضعته في الصندوق: وإذا بأمي خلفي تراقبني حتى تطمئن أنني وضعته في الصندوق، ووضعناه فعلاً (رحم الله أمي)، وكـــان عمري وقتها (١١) سنة بعدها هداني ربي (سبحانه وتعالى)، وسبب لي الأسباب وذلك أن أحد الناس حكى لي عن الجمعية الشرعية، ووصف لي مقرها في منطقة الدرب الأحمر، فذهبت وحددوا لي موعدًا لمقابلة الشيخ وكيل الجمعية ليعقد لي امتحانًا ليقرر من خلاله صلاحيتي للخطابة، وفعلاً وفقت –ولله الحمد–؛ لأنني كما قلت سابقًا: كنت أقوم بالخطابـــة وأنا في السنة الأولى الإعدادية، وتسلمت جدولاً للخطابة في مساجد الجمعية الشـــرعية، ثم الـــتحقت بمعهد الإمامة بها، وبدأ النور يظهر ووضعت نفسي على الطريق الصحيح، ثم بعد فترة قال لي رئيس مكتب التوزيع وكان اسمه الشيخ أحمد الشرقاوي: إننا قد اخترناك للعمل معنا في المكتب، وكان هذا المكتب مخصصًا لتوزيع السادة الوعاظ على مســـاجد الجمعـــية في جميع أنحاء الجمهورية، فعملت معهم موظفًا بالنهار، ومحاضرًا في حلقـــات دروس مسائية في المساجد من المغرب حتى العشاء، وبدأت أقتني الكتب المفيدة كالإبـــداع للشيخ علي محفوظ، والسنن والمبتدعات للشقيري، وبدأت أتعرف على جميع الجمعيات الدينية كأنصار السنة، ودعوة الحق، ولاحظت أن هناك تناحرًا ونزاعًا بين كثير من الجمعيات، وكنت مواظبًا على قراءة مجلة التوحيد شهريًا.

سبب خلافي مع الجمعية الشرعية :

ولما وفقني الله تعالى لهذا الخير العظيم عقدت العزم على أن أعوض ما فاتني من الطرق الصوفية الضالة، فكانت جميع خطبي ودروسي عن العقيدة الصحيحة وبيان ما عليه الطرق

الصوفية من الضلال والانحراف، وكنت أعارض كبار علماء الجمعية الذين يحضرون الموالد وحلقات الذكر (الرقص)، وكان الشيخ الشرقاوي الذي يبلغ من العمر (٨٠) عامًا كلما جاء زائرًا عندنا في المكتب يحكي لنا كرامات الشيخ محمود خطاب السبكي (رحمه الله) مؤسس الجمعية، وكان ضمن ما قال: في يوم من الأيام كان الشيخ يمشي في شارع القلعة في وضح النهار فرأى النبي ﷺ جهارًا نهارًا يقظة لا منامًا، فعارضته في ذلك، وقلت له: لا يمكن للنبي ﷺ أن يخرج من القبر إلا يوم القيامة، وقلت له: إنما يرى النبي ﷺ في المنام فقط، وحكى أيضًا أن الشيخ كان في زيارة في بني سويف، ولما انتهى من الندوة الدينية وتوجه الشيخ محمود خطاب والوفد المرافق له إلى محطة بني سويف لركوب القطار، وجاء القطار على المحطة ثم أذن المغرب فنادى الشيخ على القطار: قف مكانك وإياك أن تتحرك إلا بإذني، ثم أمر الوفد بالوضوء، ثم صلوا المغرب والسنة البعدية، ثم قال للوفد: اركبوا ثم ركب هو وقال للقطار: يا قطار سر، فسار القطار، وفي يوم من الأيام دارت مناقشة في المكتب مع أحد الوعاظ وكان قد اشترى فتح الباري فقال الشيخ للواعظ: ما هذا الكتاب؟ قال: فتح الباري، قال له: ما عندك الدين الخالص للإمام محمود خطاب، والله إن الدين الخالص أفضل من فتح الباري، وإن الإمام محمود خطاب أفضل من الصحابة!! وفي يوم من الأيام دار حديث عن الإمام الأكبر شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) فلاحظت من حديثهم أنهم يكرهونه لماذا؟ قالوا: لأنه فوقاني، قلت: وما معنى فوقاني؟ قالوا يعني أنه يقول: إن الله (تعالى) في السماء، ومن قال ذلك فهو كافر، ووجدت فيهم الغلظة وتزكية النفس، ووجدت أنهم يكرهون غيرهم، ويعتقدون أنهم وحدهم على الحق وما سواهم على باطل.

ومن ضمن ما لاحظته فيهم: عدم التثبت، فلو أن أحد الناس قال لهم: أي ملحوظة على الواعظ يصدقونه ويقومون بسحب جدول الواعظ فورًا بدون تنفيذ لقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾[الحجرات:٦].

مثال ذلك: أحد رواد المساجد التي كنت أخطب فيها، قال لهم: إن الشيخ علي تحدث عن الموالد في خطبته، وعاب على كبار العلماء الذين يحضرون هذه الموالد، فما كان من الشيخ أحمد الشرقاوي عند ذهابي إلى عملي إلا أن أخطرني بسحب جدولي، وأنه لا بد من الذهاب إلى الشيخ عبد الناصر وكيل الجمعية لمقابلته، وكان رجلاً طيبًا

فأمر بإعطائي الجدول، وفي آخر مرة طلبت منهم اعتماد فرع للجمعية الشرعية في منطقة ساقية مكي، فقال لي الشيخ عليان (رحمه الله): يا شيخ علي "مش عاوزين زعامات في الجيزة".

وأخيرًا بسبب الوشايات، وعدم التفاهم انفصلت عنهم، واجتمعت مع السادة وعاظ المنطقة وقررنا رفع طلبنا للشئون الاجتماعية لإشهار "جمعية أهل القرآن والسنة"، وكان ذلك يوم الأحد ١٣/٢/١٩٩٠، وهذه الجمعية تدعو إلى الله على بصيرة ولا عدو لها إلا إبليس (عليه اللعنة) ثم الطرق الضالة الهدامة، وأصبحت رئيسًا ـــ بفضل الله وحده ـــ لهذه الجمعية.

وأردت كتابة هذه المذكرات لكي أهديها لكل من يريد الطريق الصحيح والطريق واحد وهو: طريق (الصراط المستقيم) طريق المصطفى ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

وإذا أردت المزيد فعليك بكتبنا وعددها يزيد بفضل الله تعالى عن (٢٠٠) مؤلف أكثرها في العقيدة والتوحيد، ومنها على سبيل المثال "بدع المقابر والجنائز"، "بدع الصوفية والكرامات والموالد"، "بدع النذور"، "كرامات أولياء الله الصالحين"، "عقيدة أهل القرآن والسنة"، "السنة والبدعة".

وأقول للسادة علماء الأزهر والأوقاف والجمعية الشرعية: اتقوا الله تعالى وانصحوا الأمة، لأنكم ورثة الأنبياء

٢ـ توبة الأستاذ عبد المنعم الجداوي [(١)]

"الخرافة" عجوز متصابية تتعلق بصاحبها..!؟ "التوحيد" يهدم أولا.. ثم يبني من جديد..!؟

ليس سهلاً أن يتراجع "القبوري"..! "التوحيد" يحتاج إلى إرادة واعية..! ترددت كثيرًا في كتابة هذه الاعترافات ـــ لأكثر من سبب، وأسباب الإحجام والإقدام واحدة.. فقد خشيت أن يقرأ العنوان بعض القراء في المنطقة النفسية التي كنت أعيشها قبل تصحيح عقيدتي.. فيقرؤون اعترافاتي.. فيفهمون، ويعبرون من ظلمة الخرافات إلى نور العقيدة وفي ذلك وحده ما يقويني على الكشف عن ذاتي أمام الناس ما دام أن ذلك سوف يكون سببًا في هداية بعضهم إلى حقيقة التوحيد..؟

---

(١) كتاب كنت قبوريًا.

ولقد كنت من كبار معظمي القبور فلا أكاد أزور مدينة بها أي قبر أو ضريح لشيخ عظيم.. إلا وأهرع فورًا للطواف به.. سواء كنت أعرف كراماته أو لا أعرفها.. وأحيانًا أخترع لهم كرامات.. أو أتصورها أو أتخيلها.. فإذا نجح ابني هذا العام.. كان ذلك للمبلغ الكبير الذي وضعته في صندوق النذور.. وإذا شفيت زوجتي كان ذلك للسمنة التي كان عليها الخروف الذي ذبحته للشيخ العظيم فلان ولي الله..!

وحينما التقيت بالدكتور جميل غازي، وكان اللقاء لعمل مجلة إسلامية تقوم بالإعلام والنشـــر عـــن جمعـــية العزيز بالله القاهرية، والتي تضم مساجد أخرى، ورسالتها الأولى "التوحيد"، وتصحيح العقيدة، وبحكم اللقاءات المتكررة.. كان لا بد من صلاة الجمعة في مسجد العزيز بالله.. وهاجم "الدكتور جميل" في بساطة، وبعقلانية شديدة.. هذا المنحنى المخـــيف في العقـــيدة، وسماه شركًا بالله؛ وذلك لأن العبد في غفلة من عقله يطلب المدد والعون من مخلوق ميت..!!

أفـــزعني الهجوم، وأفزعتني الحقيقة.. وما أفزع الحقيقة للغافلين.. ولو أن "الدكتور جمـــيل" اكتفـــى بـــذلك لهان الأمر.. لكنه في كل مرة يخطب لا بد أن يمس الموضوع بإصـــرار.. فالضريح لا يضم سوى عبد ميت فقط.. بل قد يكون أحيانًا خاليًا حتى من العظام التي لا تنفع ولا تضر..!

في أول الأمر اهتززت.. فقدت توازني.. كنت أعود إلى بيتي.. بعد صلاة كل جمعة حـــزينًا.. شيء ما يجثم فوق صدري.. يقيد أحاسيسي ومشاعري.. أحاول في مشقة أن أخـــرج عـــن هـــذا الخاطر.. هل كنت في ضلالة طوال هذه الأعوام..؟ أم أن صديقي "الدكـــتور" قـــد بالغ في الأمر.. فأنا أعتقد أن كل من نطق بالشهادة لا يمكن أن يكون كافرًا.. لهفوة من الهفوات أو زلة من الزلات..!

شيء آخر أشعل في فؤادي لهبًا يأكل طمأنينتي ببطء.. إن الدكتور يضعني في مواجهة صـــريحة.. ضد أصحاب الأضرحة الأولياء.. والخطباء على المنابر صباح مساء.. يعلنوها صـــريحة.. إن الذي يؤذي وليًا.. فهو في حرب مع الله سبحانه وتعالى.. وهناك حديث صحيح في هذا المعنى.. وأنا لا أريد أن أدخل في حرب ضد أصحاب القبور والأضرحة؛ لأنني أعوذ بالله من أن أدخل في حرب مع الله جل جلاله..!

وقلت: إن أسلم وسيلة للدفاع هي الهجوم.. واستعددت بقراءة بعض الصفحات من كتاب "الغزالي" (إحياء علوم الدين)، وصفحات أخرى من كتاب (لطائف المنن) "لابن

عطـــاء الســـكندري"، وحفظت عن ظهر قلب الكرامات، وأسماء أصحابها، ومناسبات وقوعها، وذهبت الجمعة الثانية، وكظمت غيظي وأنا أستمع إلى "الدكتور" فلما انتهى من الدرس.. أصر على أن يدعوني لتناول طعام الغداء معه، وبعد الغداء.. تسلمته هجومًا بلا هـــوادة.. معتمدًا على عاملين.. الأول هو أنني حفظت كمية لا بأس بها من الكرامات، والـــثاني أنني على ثقة من أنه لن يتهور فيداعبني بكفيه الغليظتين لأنني في بيته، وتناولت طعامه فأمنت غضبته.. وقلت له، والآتي هو المعنى وليس نص الحوار:

"إن الأولياء لا يدرك درجاتهم إلا من كان على درجتهم من الصفاء والشفافية، وإنهم رجال أخلصوا لله.. فجعل لهم دون الناس ما خصهم به من آيات.. وإن.. وإن.. وانتظر الدكتور حتى انتهيت من هجومي.. وأحسست أنه لن يجد ما يقوله.. وإذا به يقول: هل تعتقد أن أي شيخ منهم كان أكرم على الله من رسوله..؟ ــ قلت مذهولاً: لا.. ــ إذن كيف يمشي بعضهم على الماء؟ أو يطير في الهواء.. أو يقطف ثمار الجنة وهو على الأرض.. ورسول الله لم يفعل ذلك..؟ كان يمكن أن يكون ذلك كافيًا لإقناعي أو لتراجعي.. لكنه التعصب قاتله الله.. كبر علي أن أسلم بهذه البساطة، كيف ألقى ثقافة إسلامية عمرها في حـــياتي أكثر من ثلاثين عامًا.. قد تكون مغلوطة.. غير أني فهمتها على أنها الحقيقة، ولا حقيقة سواها..!

وعـــدت أقرأ من جديد في الكتب التي تملأ مكتبتي.. وأعود إلى "الدكتور"، ويستمر الحـــوار بيننا إلى ساعة متأخرة من الليل ــ فقد كنت من كبار عشاق الصوفية.. لماذا؟ لأنـــني أحـــب أشعارهم وأحب موسيقاهم، وألحانهم التي هي مزيج من التراث الشعبي، وخليط من ألحان قديمة متنوعة.. شرقية، وفارسية، ومملوكية، وطبلة إفريقية أحيانًا.. تدق وحـــدها.. أو ناي مصري حزين ينفرد بالأنين مع بعض أشعارهم التي تتحدث عن لقاء الحبيب بمحبوبه وقت السحر..!

لهذا وللأسباب الأخرى.. أحببت الصوفية.. وكنت أعشقها، وأحفظ عن ظهر قلب الكـــثير من شعر أقطابها. لا سيما "ابن الفارض"، وكل حجتي التي أبسطها في معارضة "الدكـــتور" أنـــه وأمثاله من الذين يدعون إلى "التوحيد" لا يريدون للدين روحًا، وإنما يجـــردونه من الخيال، وأنهم لا بد أن يصلوا إلى ما وصل إليه أصحاب الكرامات.. لكي يدركوا ما هي الكرامات..! فلن يعرف الموج إلا من شاهد البحر، ولا يعرف العشق إلا من كابد الحب، وهذا أسلوب صوفي أيضًا في الاستدلال ولهم بيت شهير في هذا المعنى..!

وحـــتى لا يضـــطرب وجـــداني، وتتمزق مشاعري.. حاولت أن أنقطع عن لقاء "الدكـــتور".. ولكنه لم يتركني.. فوجئت به يدق جرس الباب و لم أصدق عيني.. كان هـــو.. قد جاء يسأل عني.. وتكلمنا كالعادة كثيرًا وطويلاً.. فلما سألني عن سبب عدم حضوري لصلاة الجمعة معه.. قلت له بصراحة:

لقد يأست منك..!

قال: ولكني لم أيأس منك.. أنت فيك خير كثير للعقيدة..

قلـــت: إنه يستدرجني على طريقته.. ولمحت معه كتابًا من وضعه عن سيرة "الإمام محمد بن عبد الوهاب".

فقلت له: أعطني هذه النسخة.. هل يمكن ذلك..؟ قال: هذه النسخة بالذات ليست لـــك، وسوف أعدك بواحدة.. وهذه هي طريقته للإثارة دائمًا.. لا يعطيني ما أطلب من أول مرة.. فخطفت النسخة.. ورفضت إعادتها له..! وبعد منتصف الليل بدأت القراءة.. وشـــدني الكتاب موضوعًا وأسلوبًا.. فلم أنم حتى الصباح..! كان الكتاب على حجمه المتواضـــع -كالإعصـــار- كالزلزال.. أخذني من نفسي ليضعني على حافة آفاق جديدة حكايـــة الشـــيخ "محمد بن عبد الوهاب" نفسه.. ثم قصة دعوته، وما كابده من معاناة طـــويلة.. حينما كان في صدره حنينًا وكلما قرأت صفحة.. وجدت قلبي مع السطور.. فـــإذا أغلقـــت الكتاب لأمر من الأمور.. يتطلب التفكير أو البحث في كتب أخرى.. استشـــعرت الذنب؛ لأنني تركت الشيخ في "البصرة" و لم أصبر حتى يعود.. أو تركته في بغـــداد يســـتعد للســـفر إلى "كردستان".. ولا بد أن أصبر معه حتى يعود من غربته إلى بلده..!

يقـــول الدكـــتور في كـــتابه (مجدد القرن الثاني عشر الهجري شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب): "وبعد هذا التطواف والتجوال هل وجد ضالته المنشودة..؟".

لا.. فـــإن العـــالم الإســـلامي كله كان يعاني نوبات قاسية من الجهل والانحطاط والتأخر.. عاد الرجل إلى بلده يحمل بين جوانحه ألما ممضًّا، لما أصاب المسلمين من انتكاس وتقهقر في كل مناحي حياتهم..

عـــاد إلى بلده وفي ذهنه فكرة تساوره بالليل والنهار. لماذا لا يدعو الناس إلى الله..؟ لماذا لا يذكرهم بهدي رسول الله ﷺ..؟ لماذا.. لماذا..؟

إذن فهــذه العقيدة التي يريدها "الدكتور" لم تأت من فراغ. فمنذ القرن الثاني عشر الهجـري والإمام محمد بن عبد الوهاب.. يفكر، ويقدم.. لكي يهدم صروح الأضرحة، ويحطـم شـبح الخـرافات ويطارد المشعوذين الذين لطخوا وجه الشريعة السمحاء.. بخزعبلاتهم التي اكتسبت مع الأيام قداسة.. تخلع قلوب المؤمنين. إذا فكروا في إزالتها وفي ذلك يقول الكتاب:

"ماذا كان وقع هذه الأعمال على نفوس القوم..؟".

ويجيب المؤرخون على ما يرويه الأستاذ أحمد حسين في كتابه "مشاهداتي في جزيرة العرب": إن القوم لم يقبلوا مشاركة الرجل فيما قام به من قطع الأشجار، وهدم القباب بل تركوا له وحده أن يقوم بهذا العمل حتى إذا ما كان هناك شر أصابه وحده..!".

هــل يكون ما يزلزل كياني الآن هو الخوف الذي ورثته..؟ وهو نفس الذي جعل الناس في بلدة (العيينة) موطن الشيخ يتركونه يزيل الأشجار، وقبة قبر "زيد بن الخطاب" بنفسه.. خوفًا من أن تصيبهم اللعنات المختلفة من كرامات هذه الأماكن وأصحابها؟

ومضـيت أقرأ، ومع كل صفحة أشعر أنني أخلع من جذر الوهم في أعماقي حجرًا ضـخمًا.. وحيـنما بلغت منتصف الكتاب.. كانت فجوة كبيرة داخلي قد انفتحت، وتسـلل منها ومعها نور اليقين.. ولكن في زحمة الظلمة التي كانت تعشعش في داخلي.. كان الشعاع يومض لحظة ويختفي لحظات..!

لقـد استطاع الدكتور أن ينتصر.. تركني أحارب نفسي بنفسي.. بل جعلني أتابع مسـيرة التوحيد مع شيخها محمد بن عبد الوهاب، وأشفق عليه من المؤامرات التي تحاك ضـده، وحـوله، وكيف أنه حينما أقام الحد على المرأة التي زنت في (العيينة).. غضب حـاكم "الإحسـاء" "سليمان بن محمد بن عبد العزيز الحميدي"، واستشعر الخطر من الدعـوة الجديدة وصاحبها.. فكتب إلى حاكم العيينة "ابن معمر" يأمره بكتم أنفاسها، وقتل المنادي بها، والعودة فورًا إلى حظيرة الخرافات والخزعبلات.

ولما كان "ابن معمر" قد ارتبط مع الشيخ في مصاهرة.. فقد زوجه ابنته.. فإنه تردد في قتله، ولكنه دعاه إلى اجتماع مغلق، وقرأ عليه رسالة حاكم "الإحساء"؛ لأنه لا قبل له بـه.. ولعلها لحظة يأس كشفت للشيخ عن عدم إيمان "ابن معمر".. ولم تزد الشيخ إلا إصـرارًا علـى عقيدته، وقوة توحيده. فالحكام الطغاة لا يحاربون دائمًا إلا داعية الحق..

وقبل الشيخ في غير عتاب أن يغادر "العيينة".. مهاجرًا في سبيل الله بتوحيده.. باحثًا عن أرض جديدة ليزرع التوحيد فيها..!

وفي الصباح استيقظت على ضجة في البيت غير عادية.. واعتدلت في فراشي ووصلت إلى أذني أصوات لا آدمية خالصة، ولا حيوانية خالصة.. ثغاء، وصياح، وكلام.. غير مفهوم العبارات.. وقلت لا بد أنني أعاني من بقية حلم ثقيل.. فتأكدت من يقظتي، ولكن "الثغاء" هذه المرة.. اخترق طبلة أذني.. ودخلت عليَّ زوجتي تحمل إليَّ أنباء سارة جدًّا.. وهي تتلخص في أن ابنة خالتي التي تعيش في أقصى الصعيد.. ومعها زوجها، وابنها البالغ من العمر ثلاث سنوات.. قد وصلوا في قطار الصعيد فجرًا، ومعهم "الخروف"..!

وظننت أن زوجتي تداعبني.. بخبر ابنة خالتي، وكنت أعرف أن أولادها يموتون في السنوات الأولى.. قد أطلقت على طفل لها اسم "خروف" لكي يعيش مثلا. وهي عادات معروفة في الصعيد.. وقبل أن أتبين المسألة.. أحسست بمظاهرة من أولادي تقترب من حجرة نومي.. وفجأة وبدون استئذان اقتحم الباب "خروف" له فروة، وقرون، وأربعة أقدام. واندفع في جنون من مطاردة الأولاد له.. فحطم ما اعترض طريقه.. ثم اتجه إلى المرآة، وفي قفزة "عنترية" اعتدى على المرآة بنطحة قوية.. تداعت بعدها، وأحدثت أصواتًا عجيبة، وهي تتحطم..!

ثم كل ذلك في لحظة سريعة.. وقبل أن أسترد أنفاسي، وخيل إلي أن بيتنا انفتح على حديقة الحيوانات.. رغم أنني أسكن في العباسية، والحديقة في الجيزة.. ولكن وجدت نفسي أقفز من على السرير، وخشيت زوجتي ثورة "الخروف"، وتضاءلت في ركن، ترمقني بعينيها، وتشجعني لكي أتصدى لهذا الحيوان المجنون.. الذي اقتحم علينا خلوتنا.. ولكن الصوت والزجاج المتناثر.. زاد من هياج الحيوان.. ولمح في عينيه، وفي قرنيه الموت الزؤوم.. واستعدت في ذهني كل حركات مصارعي الثيران، وأمسكت بملاءة السرير.. وقبل أن أجرب رشاقتي في الصراع مع "الخروف" دخلت ابنة خالتي.. وهي في حالة انزعاج كامل.. فقد خيل لها أنني سوف أقتله.. وصاحت، وهي على يقين من أنني سأصرعه

حاسب هذا خروف السيد البدوي.

ونادته فتقدم إليها في دلال، وكأنه الطفل المدلل.. فأمسكت به تربت على رأسه،

وروت لي أنها قدمت من الصعيد ومعها هذا الخروف البكر الرشيق الذي أنفقت في تربيته ثلاثة أعوام.. هي عمر ابنها؛ لأنها نذرت للسيد البدوي إذا عاش ابنها.. أن تذبح على أعتابه "خروفًا"، وبعد غد يبدأ العام الثالث موعد النذر..!

كانت تقول كل هذه العبارات، وهي سعيدة: وخرجت إلى الصلاة لأجد زوجها، وهو في ابتهاج عظيم.. يطلب مني أن أرافقهم إلى "طنطا".. لكي أرى هذا المهرجان العظيم؛ لأنهم نظرًا لبعد المسافة اكتفوا بالخروف.. فالذين على مقربة من "السيد البدوي" يبعثون بجمال.. وأصبح علي أن أجامل ابنة خالتي لكي يعيش ابنها، وإلا اعتبرت قاطعًا للرحم.. لا يهمني أن يعيش ابنها أو يموت.. ولا بد أن أذهب معهم إلى مهرجان الشرك وفي نفس الوقت كنت أسأل نفسي.. كيف أقنعها بأنها في طريقها إلى الكفر..؟ وماذا سيحدث حينما أحطم لها الحلم الجميل الذي تعيش فيه منذ ثلاث سنوات..؟

وقلت أبدأ بزوجها أولا؛ لأن الرجال قوامون على النساء.. وأخذت الزوج إلى زاوية في البيت، وتعمدت أن يرى في يدي كتاب "الإمام محمد بن عبد الوهاب".. ومد يده فجعل الغلاف ناحيته، وما كاد يقرأ العنوان حتى قفز كأنه أمسك بجمرة نار...!

قرأ عنوان الكتاب -الذي يقول إن في الصفحات قصة "الشيخ محمد بن عبد الوهاب"، ودعوته- وهتف صارخًا.. ما هذا الذي أقرأه..؟ وكيف وصلني هذا الكتاب.. لا بد أن أحدهم دسه علي.. فهو يعرف أنني رجل متزن.. أحرص على ديني، وعلى زيارة الأضرحة، وتقديم الشموع، والنذور، وأحيانًا القرابين المذبوحة والحية. كما يفعل هو تمامًا.. ورأيت في عينيه نظرة رثاء.. إلى ما رماني به القدر في تلك النسخة.. وكان علي أن أقف منه.. موقف الدكتور جميل غازي مني سابقًا.. وشاء الله أن يكون ذلك بمثابة الامتحان لي.. وهذا في استطاعتي أن أطبق ما قرأت أم لا..؟ وهل استوعبت عن يقين ما قرأت أم لا..؟ والأهم من ذلك هو مدى إصراري على عقيدتي وإقناع الآخرين بها أيضًا.. فالذي لا يؤثر في المحيط الذي يعيش فيه.. هو صاحب عقيدة سلبية.. غير إيجابية.. فليس من المعقول في شيء.. أن أطوي "توحيدي" على نفسي، وأترك الآخرين يعيشون في ضلالة؛ لأنهم بعد فترة سوف يغرقونني في خرافاتهم.. وعليه فلا بد أن أجادلهم بالتي هي أحسن.. لا أتركهم يشعرون أن الأمر هين.. لا بد أن أنفرهم من شركهم.. وهم لا بد أن يتراجعوا؛ لأن "الخرافة" نظرًا لأنها تقوم على ضلالات هشة.. لا يكاد الشك يدخلها حتى يداهمها.. والحق في تعقبها إذا كان لحوحًا.. قضى عليها.. أو على

أقـــل تقدير أوقف نموها حتى لا تصيب الآخرين.. ومن أجل ذلك كله قررت أن أتوكل على الله وأبدأ الشرح للرجل.. و لم تكن المهمة سهلة.. فلا بد أولاً من أن أطمئنه، وأزيل مـــا بينه، وبين سيرة الشيخ "محمد بن عبد الوهاب".. ثم ما ترسب في ذهنه من زمن عن "الوهابية والوهابيين".. ففي أول الحديث.. اتهم "الوهابية" بعدد من الاتهامات يعلم الله أن دعوة "التوحيد".. بريئة منها.. براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام..!

ورحـــت أحاول في حماس شديد.. أشرح له سر حملات الكراهية والبغضاء.. التي يشـــنها الـــبعض علـــى دعوة "التوحيد".. وكيف أنها أحيت شعائر الشريعة، وأصول العبادات، وفي ذلك القضاء على محترفي الدجل، وحراس المقابر، وسدنة الأضرحة، والذين يكدسون الأموال عامًّا بعد عام.. من بيع البركات، وتوزيع الحسنات على طلاب المقاعد في الجنة.. فالمقاعد محدودة والوقت قد أزف..! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..!

ولمحـــت علـــى ملامحه بعض سمات الخير.. نظر في دهشة.. كأنه يفيق من غيبوبة.. ورغـــم ذلـــك.. فقد راح يتشنج، ويدافع عن أهل الله الذين ينامون في قبورهم.. لكن يتحكمون بأرواحهم في بقية الكون، وأنهم يدعون كل ليلة جمعة للاجتماع عند قطب من الأقطاب.. وحتى النساء الشهيرات يلتقين أيضًا مع الرجال الأقطاب، وينظرون في شئون الكون..!

و لم أكـــن أطمع في زحزحته عن معتقدات في ضميره عمرها أكثر من ثلاثين سنة. فاكتفيت أن طلبت منه أن ينظر في الأمر. هل هؤلاء الموتى من أصحاب الأضرحة.. أكرم عـــند الله أم محمد رسول الله ﷺ..؟ ثم يفكر طويلاً، ويجيء إلي بالنتيجة.. دون ما تحيز أو تعصـــب.. ووعدني بأن يفكر، ولكنه فقط يطلب مني أن أرافقهم في رحلتهم الميمونة إلى "طـــنطا".. فقلت له: إن هذا هو المستحيل ولن يحدث.. وإذا كان مصممًا على الذهاب هو وزوجته إلى "السيد البدوي" حتى يعيش ابنهم.. فالمعنى الوحيد لذلك هو أن الأعمار بيد "السيد البدوي".. وحملق فيّ، وصاح: لا تكفر يا رجل..؟

فقلت له: أينا يكفر الآخر..؟ أنا الذي أطلب منك أن تتوجه إلى الله؟ أم أنت الذي تصر على أن تتوجه إلى "السيد البدوي"..؟

وســـكت واعتـــبر هذا مني إهانة لضيافته وأخذ زوجته، وأخذت زوجته الخروف وابـــنها، وانصرفوا من العباسية في القاهرة إلى "طنطا"، وحينما وقفت أودعهم.. همست في أذن الـــزوج أنـــه إذا تفضل بعدم المرور علينا بعد العودة من مهرجان الشرك.. فإنني

أكـــون شـــاكرًا له ما يفعل.. وإلا لقي مني ما يضايقه.. وازداد ذهول الرجل، ومضى الركب الغريب.. يسوق الخروف نحو "طنطا"..!

وانثـــنت زوجتي تلومني؛ لأنني كنت قاسيًا معهم، وهم الذين يخافون على طفلهم، الـــذي عـــاش لهم بعد أن تقدم بهما العمر، مات لهما من الأطفال الكثير.. وصحت في زوجـــتي: إن الطفل إذا كان سيعيش فذلك لأن الله يريد له أن يعيش، وإن كان سيموت فذلك لأن الله يريد ذلك.. لا شريك لله في أوامره، ولا شريك له في إرادته.

وذهـــبت إلى إدارة الجريدة التي أعمل بها.. وإذا بالدكتور يتصل بي تليفونيًّا ليتحدث معـــي في شأن له، و لم يخطر بباله أن يسألني.. ماذا فعل بي الكتاب؟ أو ماذا فعلت به.. واضطررت أن أقول له.. إنني في حاجة إلى مناقشة بعض ما جاء في الكتاب معه.. والتقينا في اللـــيل وحدثـــته عن الكارثة التي جاءتني من الصعيد، و لم يعلق على محاولتي إقناعهم بالعدول عن شركهم.. مع أنني منذ أيام فقط.. كنت لا أقل شركًا عنهم. وقلت له: ألا يلفت نظرك أنني أقول لهم ما كنت تقوله لي..؟

قال في هدوء يغيظ.. إنه كان على يقين من أنني سوف أكون شيئًا مفيدًا للدعوة.. وأردت الاحـــتجاج علـــى أنني من "الأشياء"، ولست من الآدميين: لكن الدكتور.. لم يـــتوقف، وقال: لقد صدر منك كل هذا بعد قراءة الكتاب فكيف بك إذا قرأت الكتب الأخرى.. وأغرق في الضحك..!

وعلمت بعد أيام أن قريبتي عادت من "طنطا" إلى الصعيد مباشرة دون المرور علينا في القاهـــرة، وأنها غاضبة مني، وشكتني لكل شيوخ الأسرة، وفي الأسبوع الثاني.. فوجئت بجرس الباب يدق.. وذهب ابني الصغير ليستطلع الأمر.. ثم عاد يقول لي:

– إبراهيم الحران..

"الحـــران".. إنـــه زوج ابنة خالتي.. ماذا حدث..؟ هل جاءوا بخروف جديد ونذر جديـــد لضريح جديد.. أم ماذا؟ وقررت أن يخرج غضبي من الصمت إلى العدوان هذه المرة، ولو بالضرب.. ومشيت في ثورة إلى الباب.. وإذا بهذا "الحران" يمد يده ليصافحني، ودعـــوته إلى الدخول فرفض.. إذن لماذا جاء..؟ وفيما جاء وابتسم ابتسامة مغتصبة وهو يقـــول.. إنـــه يطلب كتاب "الشيخ محمد بن عبد الوهاب" الذي عندي، وحملقت فيه طويلاً، وجلست على أقرب مقعد..!

ســـقطت قلعة من قلاع الجاهلية.. لكن لماذا؟ وكيف كان ذاك السقوط؟.. إن وراء عـــودته أمـــرًا لـــيس من المعقول أن يحدث ذلك بلا أسباب قوية جعلت أعماقه تتفتح، وتفيق.. على حقائق غفل عنها طويلاً..!

ورحمـــة بي مـــن الذهول، والإغماء الذي أوشك أن يصيبني.. بدأ يتكلم، وكانت الجملة التي سقطت من فمه.. ثقيلة كالحجر الذي يهبط من قمة جبل.. صكت سمعي.. ثم أقلت بنفسها تتفجر على الأرض.. تصب وتدمي شظاياها وقال:

– لقد مات ابني عقب عودتنا..! إنا لله وإنا إليه راجعون.. هذا هو الولد الرابع الذي يموت لإبراهيم تباعًا، وكلما بلغ الطفل العام الثالث.. لحق بسابقه.. وبدلاً من أن يذهب إلى الأطباء ليتعالج مع زوجته، ويعمل التحليلات اللازمة.. فقد يكون مبعث ذلك مرض في دم الأب أو الأم.. اقتـــنع، وقـــنع بأن ينذر مع زوجته مرة للشيخ هذا، ومرة للضريح ذاك، وأخـــرى لمغارة في جبل بني سويف.. إذا عاش طفله، ولكن ذلك كله لم ينفعه.. ورغـــم الجهـــل والظلم الذي يظلمه لنفسه.. إلا أنني حزنت من أجله.. تألمت حقيقة.. أخذته من يده.. أدخلته.. جلست أستمع إلى التفاصيل..!

لقد عاد من طنطا مع زوجته إلى بلدهما.. وحملا معهما بعض أجزاء من "الخروف" الذي كان قد ذبح على أعتاب ضريح "السيد البدوي".. فقد كانت تعاليم الجهالة تقضي بـــأن يعودا ببعضه.. التماسًا لتوزيع البركة على بقية المحبين، وأيضًا لكي يأكلوا من هذه الأجزاء.. التي لم تتوفر لها إجراءات الحفظ الصالحة ففسدت.. وأصابت كل من أكل منها بنزلـــة معـــوية.. وقد تصدى لها الكبار وصمدوا.. أما الطفل.. فمرض، وانتظرت الأم بجهلها.. أن يتدخل "السيد البدوي".. لكن حالة الطفل ساءت.. وفي آخر الأمر ذهبت به للطبيب الذي أذهله.. أن تترك الأم ابنها يتعذب طوال هذه الأيام.. فقد استغرق مرضه أربعة أيام.. وهز الطبيب رأسه، ولكنه لم ييأس.. وكتب العلاج.. "أدوية" وحقن، ولكن الطفل اشتد عليه المرض، و لم يقوَ جسمه على المقاومة.. فمات..!

من موت الطفل بدأت المشاكل.. كانت الصدمة على الأم.. أكبر من أن تتحملها.. ففقـــدت وعـــيها.. أصابتها لوثة.. جعلتها تمسك بأي شيء تلقاه، وتحمله على كتفها وتهدهـــده وتداعـــبه على أنه ابنها.. أما الأب فقد انطوى يفكر في جدية بعد أن جعلته الصدمة.. يبصر أن الأمر كله لله.. لا شريك له.. وأن ذهابه عامًا بعد عام إلى الأضرحة، والقـــبور.. لم يزده إلا خسارة.. اعترف لي بأن الحوار الذي دار بيني وبينه. كان يطن في

أذنيه. عقب الكارثة، ثم صمت..! فقلت له بعض الكلام الذي يخفف عنه، والذي يجب أن يقـــال في مثل هذه المناسبات.. ولكن بقي في نفسه شيء من حديثه. فهو لم يكتمل، ماذا حدث للسيدة المنكوبة؟ وهي شفيت من لوثتها أم لا؟

فقلت له: لعل الله قد شفى الأم من لوثتها؟! فأجاب وهو مطأطئ الرأس.. إن أهلها يصرون على الطواف بها.. على بعض الأضرحة والكنائس أيضًا.. ويرفضون عرضها على أي طبيب من أطباء الأمراض النفسية والعصبية..

لـــيس ذلك فحسب.. بل ذهبوا بها إلى "سيدة" لها صحبة مع الجن فكتبت لها على طـــبق أبـــيض.. وهكذا تزاد العلة عليها في كل يوم وتتفاقم.. وكل ما يفعله الدجالون يذهب مع النقود المدفوعة إلى الفناء..!

وحيـــنما أراد أن يحسم الأمر.. وأصر على أن تعرض على طبيب.. أو يطلقها لهم؛ لأنهـــم ســـبب إفسادها.. برزت أمها تتحداه، وركبت رأسها فاضطر إلى طلاقها وهو كاره..!

أثارتني قصته، رغم حرصي على النسخة التي حصلت عليها من "الدكتور جميل" إلا أنني أتيته بها وناولتها له.. فأمسك بها وقلبها بين يديه. وعلى غلافها الأخير كان مكتوبًا كلام راح يقرأه بصوت عال.. كأنه يسمع نفسه قبل أن يسمعني "نواقض الإسلام" من كلمات شيخ الإسلام "محمد بن عبد الوهاب".. **﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَـــنَّةَ وَمَـــأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾** [المائدة: ٧٢]. ومنه الذبح لغير الله كمن يذبح للجن أو للقبر.

ورفـــع رأسه فحملق في وجهي.. ثم أخذ الكتاب، وانصرف، واشترط أن يعيده لي بعد أيام، وأن أحضر له من الكتب ما يعينه على المضي في طريق "التوحيد"...

انصـــرف إبراهيم، والمأساة التي وقعت له تتسرب إلى كياني قطرة بعد قطرة.. فهي ليســـت مأســـاة فرد، ولا جماعة، وإنما هي مأساة بعض المسلمين في كثير من الأمصار.. فالخرافة أحب إليهم من الحقيقة، والضلالة أقرب إلى أفئدتهم من الهداية، والابتداع يجتذبهم بعيدا عن السنة..!

حاولـــت الاتصـــال تليفونيًا "بالدكتور جميل".. فقد كنت أريد أن أنهي إليه أخبار "إبراهيم"، ولكني لم أجده فبدأت العمل في كتابات لمجلة شهرية تصدر في قطر.. اعتادت

أن تنشر لي أبحاثًا عن الجريمة في الأدب العربي، وصففت أمامي المراجع، وبدأت مستعينًا بـــالله على الكتابة، وإذا بالتليفون يدق.. كان المتكلم مصدرًا رسميًّا في وزارة الداخلية.. يدعوني بحكم مهنتي كصحفي متخصص في الجريمة. لحضور تحقيق في قضية مصرع أحد عمال البلاط، وكان قد عثر على جثته في كيس من يومين..!!

تـــركت كـــل ما كان يشغلني إلى مكان التحقيق.. والغريب في الأمر.. أن يكون الأســـاس الـــذي قامت عليه هذه الجريمة هو السقوط أيضًا. في هاوية الشرك، والدجل والشـــعوذة.. بشكل يدعو إلى الإشفاق.. فالقتيل كان يدعي صحبة الجن، والقدرة على التوفـــيق بين الزوجين المتنافرين، وشفاء بعض الأمراض وقضاء الحاجات المستعصية.. إلى جانب عمله في مهنة البلاط..!

أما المتهم القاتل.. فكان من أبناء الصعيد.. تجاوز الخمسين من عمره، وكان متزوجًا مـــن امـــرأة لم تنجب.. فطلقها وتزوج بأخرى في السابعة عشرة من عمرها لكنها هي الأخرى لم تنجب.. وبلغه من تحرياته أن مطلقته.. قامت بعمل سحر له نكاية فيه.. يمنعه مـــن الإنجـــاب مـــن زوجته الجديدة.. فاتصل بذلك الرجل الذي كان شابًّا لم يتجاوز الأربعين.. واتفق معه على أن يقوم له بعمل مضاد، وتلقف الدجال فرصة مواتية.. وذهب معه إلى البيت.. وكتب له الدجال بعد أن تناول العشاء الدسم، بعض مستلزمات حضور الجـــن مـــن بخور وشموع وعطور، وذهب الرجل ليشتريها.. وترك "الدجال" وزوجته الحسناء في البيت..

خـــرج الرجل مسرعًا يشتري البخور الذي سيحرق تمهيدًا لاستحضار الجن.. وترك الدجال الشاب مع الزوجة الحسناء.. وكان لا بد أن يحدث ما يقع في مثل هذه المواقف.. فقـــد حـــاول المشعوذ أن يعتدي على الزوجة. إذ راودها في عنف ليفتك بشرفها، وهي العفـــيفة الشريفة.. فقامت لتغادر البيت إلى جارة لها.. حتى يصل زوجها.. وإذا بها تجد زوجها على الباب.. فقد نسي أن يأخذ حافظة نقوده.. وروت له في غضب ما وقع من الـــدجال، وانفعل الزوج الصعيدي، وحمل عصاة غليظة، ودخل على الدجال في الغرفة، وانهـــال عليه بالعصاة.. حتى حطم رأسه.. بعدها وجد نفسه أمام جثة لا بد أن يتخلص منها.. فجلس يفكر..!

خرج ليلاً فاشترى كيساً على حجمه، وعاد فوضع الجثة فيه.. وانتظر حتى انتصف اللـــيل.. ثم حمل الجثة على كتفه، وألقى بها في خلاء على مقربة من الحي الذي يسكنون

فيه.. وعاد إلى غرفته يحاول طمس الآثار ومحوها.. وظن أنه تخلص من الدجال الشاب إلى الأبد..!

ولكن رجال الشرطة.. بعد عثورهم على الجثة.. بدءوا أبحاثهم عن الكيس الذي كان يحتوي على الجثة.. وما كادوا يعرضونه على البقالين في المنطقة. حتى قال لهم أحدهم إن الذي اشتراه منه هو فلان، وكان ذلك بالأمس فقط، وألقت الشرطة القبض على الرجل، وفتشت غرفته فوجدت الآثار الدالة على ارتكاب الجريمة.. وضيق عليه الخناق فاعترف بتفاصيل الجريمة..!

لم يكن حضوري هذا التحقيق صدفة فكل شيء يجري في ملكوت الله بقدر.. إذ يسوق لي هذه الجريمة المتعلقة أيضًا بفساد العقيدة. لتجعلني أناقش مع الآخرين.. قضية العقيدة والخرافة من بذورها الأولى.. ولماذا تروج الخرافة، وتتغلغل في كيانات البشر دون وازع؟ هل لأن الذين يتاجرون بها أوسع ذكاء من الضحايا؟ وماذا يجعل الضحايا وهم ملايين.. يندفعون إلى ممارستها، والإيمان بها والتعصب لها..؟ أم أن "الوثنية" التي هي الإيمان بالمحسوس والملموس.. التي ترسبت في أذهان العالمين سنين طويلة.. تفرض نفسها على الناس من جديد.. تساندها الظروف النفسية لبعض البشر.. الذين يعجزون عن الوصول إلى تفسير لها!!؟

فالقاتل والقتيل في هذه الجريمة.. كلاهما فاسد العقيدة.. لا يعرفان من الإسلام سوى اسمه.. فالقتيل مشعوذ يمشي بين عباد الله بالسوء، ويكذب عليهم، ويدعي أنه على صلة بالجن، وأنه يشقي ويسعد، ويشفي ويمرض بمعاونة الجن، وفي ذلك شرك مضاعف مع الأضرار بالناس.. أما القاتل فهو من فرط جهالته يعتقد أن إنسانًا مثله في وسعه أن يجعله ينجب ولدًا أو بنتًا.. وقد يكون عذره أنه في لهفته على الإنجاب ألغى عقله.. غير أنه لو أن له عقيدة سليمة.. ترسخ في ذهنه أن الله بلا شركاء، وأن النفع والضر بيد الله فقط، وتؤصل هذه المفاهيم في أعماقه.. ما كان يمكنه أن يستسلم لدجال.. ولاستطاعت عقيدته أن تحميه من السقوط في أيدي مثل هذا المشعوذ!!

وفي كثير من الأحيان يصل الأمر ببعض المتعصبين إلى أن يجعل من نفسه داعية للخرافة.. يروج لها، ويدافع عنها. وعلى استعداد للقتال في سبيلها.. فقد نجد من ينبري في المجالس.. فيروي كيف أن الشيخ الفلاني أنقذه هذه الأيام من ورطة كانت تحيق به، وأنه كان لن يحصل على الترقية هذا العام لولا أن الشيخ الفلاني صنع له تحويطة، وأنه

كان على خلاف مع زوجته وضعهما على حافة الطلاق لولا أن الشيخ الفلاني كتب له ورقة وضعها تحت إبطه... إلخ.

وتحضـرني في هـذا المجال.. قصة سيدة تخرجت من جامعة القاهرة، ودرست حتى حصلت علـى الدكتوراه.. عثر زوجها ذات يوم على حجاب تحت وسادته ــ فسأل زوجـته.. فقالت: إنها دفعت فيه ما لا يقل عن خمسين جنيهاً.. لكي تستميل قلبه؛ لأنها تشعر بجفوته في الأيام الأخيرة.. وكانت النتيجة أن زوجها طلقها طبعًا.. وراوي قصتها هو محاميها نفسه الذي تولى دعوتها التي أقامتها ضد زوجها..؟

وتـرتفع الخـرافة إلى الذروة.. حينما يعمد المتخصصون فيها إلى تقسيم تخصصات المشـايخ والأضـرحة.. فضـريح السيدة فلانة يزار لزواج العوانس، والشيخ فلان يزار ضريحه، في مسائل الرزق، والقادرة الشاطرة صاحبة الضريح الفلاني يحج إليها في مشاكل الحـب، والهجر، والفراق، والطلاق، وأخرى في أمراض الأطفال، والعيون وعسر الهضم وهكـذا.. مؤامرة محكمة الحلقات.. تلف خيوطها حول السذج والمساكين، وكأنهم لم يقـرءوا في القرآن ﴿**وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [الأنعام:١٧]. وكأنهم لم يسمعوا بالحديث الشريف: "من علق تميمة فقد أشرك".

إن الانصـياع إلى الخرافات ليس وقفًا على عامة الناس أو جهلتهم. بل من المؤسف أنها تتمتع بسلطان كبير بين المتعلمين، والذين درسوا في أرقى الجامعات.. وإذن فالأصل فيها هو أنها تتسلل إلى ضمائر الناس. الذين لا تحميهم عقيدة سليمة.. تصدر عنهم هذه "الشركيات" الشرسة الضارية.. فالذي لا شك فيه.. هو أن الرجل الذي وثق إيمانه بالله، واقتنع بأن الله هو مالك كل شيء، ورب كل شيء لا شريك ولا وسيط له.. هذا الرجل سوف يعيش في مناعة إيمانه.. متحصنًا بعقيدته.. لا تصل إليه المفاسد.. بل وتنكسر على صـخرة إيمانـه كل هذه الخزعبلات.. لماذا؟ لأنه أنهى أمره إلى الله، و لم تعد المسألة في حسابه قابلة للمناقشة!

فالإيمـان بـالله، واعتـناق العقيدة السليمة شيء ليس بالضرورة في الكتب أو في الجامعات.. إنه أبسط من ذلك.. فالله سبحانه وتعالى جعله في متناول الجميع حتى لا يحرم منه فقير لفقره.. أو يستأثر به غني لغناه..!!

وبيـنما أنا منهمك أكتب هذه الحلقة. إذا بضجيج تصحبه دقات عنيفة لطبل يمزق

سكون الليل ويبدده.. وراح هذا الضجيج يعلو، ويعربد في ليل الحي.. دون أن يتوقف إلا للحظات.. يتغير فيها الإيقاع ثم يعود ضاريًا.. متوحشًا.. يهز الجدران.. وعرفت بخبرتي من الألحان، والأصوات المنفرة التي تصاحبها.. أن إحدى المترفات من الجيران تقيم حفلة "زار".. وأنهـــا لا بد أن تكون قد دعت كل صديقاتها المصابات مثلها بمس من الجان.. لكي يشهدن حفلها.. إذ لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تقيم فيها مثل هذه الحفلة فهي تقوم بعملها هذا مرة كل ستة شهور.. حرصًا على إرضاء الجن الذي يسكن جسدها..!

وعبـــثًا حاولت الوصول إلى وسيلة للهرب من تلك الكارثة التي تقتحم علي أذني.. فتـــركت الكـــتابة وحاولت أن أقرأ.. وفي خضم هذه المعاناة.. جاء صديق لي من كبار علماء الأزهر، ومن الذين يعملون في وزارة الأوقاف وشئون الأزهر، ليزورني واستقبلته فـــرحًا.. لأنني أحب النقاش معه، ولأنه سوف يخلصني من عذاب الاستماع إلى الدقات الهمجية.

وشكوت إليه جارتي، ودخلنا في مناقشة عن "الجن" وشكوى الناس منه وما يفعلونه من بدع وخرافات وحفلات "الزار"، وإذا بالرجل الذي يحمل شهادة أزهرية عليا.. يؤكد لي أنـــه كانـــت له شقيقة.. مسها الجن عقب معركة نشبت بينها وبين زوجها، فعطل "الجن" ذراعها الأيمن عن العمل بضعة أيام.. ولم يتركها الجن إلا بعد أن أقاموا لها حفلة "زار"، وعقدت الشيخة بينها وبين "الجن" معاهدة تعايش سلمي.. وترك ذراعها على أن تقيم هذا الحفل مرة كل عام.

كـــان هذا كلام الرجل العالم.. طال صمتي.. فقد كنت أفكر في المسكين إبراهيم الحران، وزوجته الأمية.. فلا عتاب عليهما ولا لوم.. ما دام هذا هو رأي مثل هذا الرجل في "الـــزار".. وكانت الدقات العنيفة لا تزال تصل إلى آذاننا، والصمت المسكين يتلاشى أمـــام الأصوات المسعورة التي تصرخ في جنون تستجدي رضاء الجن، وتستعطف قلوب العفاريت..!

انتهت سهرتي مع صديقي العالم الأزهري الخالص.. الذي فجعني فيه إخلاصي فيه.. إذ وجدته من المؤمنين بالخرافة، والمؤيدين لحكايات الجن.. وأحسست بأن وقتي ضاع بين هذا المغلوط العقيدة، ودقات "الزار" التي كانت تقتحم علي نوافذ مكتبي.. دون مجير شهم ينقذني من الاثنين..!

وفي الصـــباح اســـتيقظت على جرس التليفون.. يصيح صيحات طويلة ومعناها أن

مكالمــة قادمــة من خارج القاهرة.. ورفعت السماعة.. لأجد أن المكالمة من الصعيد، والمـتكلم هــو زوج خالتي، ووالد زوجة "إبراهيم الحران".. يعلنني أنهم سوف يصلون القاهرة غدًا.. وقد اتصل ليتأكد أنني في القاهرة.. خوفًا من أكون على سفر.. فهو يريدني لأمر هام.. ورحبت به، وقلت إنني في انتظاركم.. و لم يكن أمامي سوى أن أفعل هذا.. لألف سبب وسبب!

أولهــا أن الرجل الذي اتصل بي أكن له الاحترام والحب، وأنني لمست في صوته رقة الــرجاء، وأنــا ضعيف أمام اليائس الذي يلجأ إلي في حاجة في وسعي أن أقضيها له.. أخشــى أن أرده ولو بالحسنى.. وأحاول جاهدًا أن أكون من الذين يجري الله الخير على أيــديهم للــناس.. رغــم أن هذا يسبب لي الكثير من المتاعب، وضياع الوقت إلا أنني أحتسب كل ذلك عند الله..!

وفي الغــد ومــع الــركب الحزين، وكان مؤلفًا من زوج خالتي، وخالتي أم زوجة "إبراهيم الحران" وابنتها التي أصابتها اللوثة بعد وفاة طفلها.. وكانت في حالة يرثى لها.. تفاقمت الحالة العقلية عندها ــ ودخلت في مرحلة الكآبة العميقة.. رفضت معها الكلام، وفقدت فيها الشعور بما يدور حولها.. لا تستطيع أن تفرق بين النوم واليقظة، ولا تجيب من يحدثها.. انتقلت من دنيا الناس.. إلى دنيا من الوهم، والكآبة.. حتى زوت، وصارت هيكلاً عظميًّا.. ليس فيه من علامات الحياة.. سوى عينين كآلة زجاج.. يرسلان نظرات بــلا معنى.. وقال لي الأب وهو حزين.. إنه يريد مني أن أتصل بابني وهو طبيب أمراض عصبية ونفسية، ويعمل في "دار الاستشفاء للأمراض النفسية والعصبية بالعباسية" لكي يجد لها مكانًا في الدرجة الأولى..!

كانت الأم تبكي وهي نادمة تعترف بآثامها.. وكيف أنها بإصرارها على علاج ابنتها عند المشايخ، وبالجري والطواف حول الأضرحة، وضياع الوقت جعلت المرض يستفحل، ويهــدم كــل قــدرة لابنتها على مقاومته.. واعترفت بأنها أخطأت في حق زوج ابنتها "إبراهيم الحران" واستفزته بإصرارها على الخطأ، ولكن عذرها أنها كانت ضحية لجهلها، ولعشرات السيدات اللاتي كن يؤكدن لها أن تجارهن مع المشايخ والأضرحة والدجالين.. تجارب ناجحة، والمثل يقول "اسأل مجربًا ولا تسأل طبيبًا"..!

واســتطعنا بفضل الله أن نجد لها مكانًا، وأن نلحقها في نفس اليوم بالدرجة الأولى، وقــال لي ابني إنها في حالة مطمئنة، ولا تدعو إلى اليأس.. كل ما في الأمر.. أن الإهمال

جعلــها تــتفاقم.. وبعد مضي أسبوع واحد من العلاج.. تحسنت السيدة، وقد عولجت بالصــدمات الكهربائية.. إلى جانب وسائل علاجية أخرى يعرفها المتخصصون، وخلال ذلــك اتصــل بي "إبراهيم الحران" فقلت له إنني أريده في أمر هام، ولا بد أن يزورني في البــيت.. وحينما جاء شرحت له الأمر، وقلت له إن الأطباء يرون في استرداده لزوجته جــزءًا من العلاج أيضًا.. ولكن لفت نظري فيه.. أنه بعد قراءته للكتب التي حصلت له علــيها من "الدكتور جميل غازي" في التوحيد أنه أصبح إنسانًا جديدًا.. فالعبارات التي كانت تجري على لسانه.. من القسم تارة بالمصحف، وتارة بالأنبياء، وتارة ببعض المشايخ قــد اختفت نهائيًّا.. وعاد يمارس حياته بأسلوب الرجل الذي لا يعبد غير الله، ولا يخشى إلا الله، ولا يــرجو سوى الله.. وحتى بعد أن حدثته في أن يعيد زوجته.. أصر على أن يجعــل هــذه العودة مشروطة.. بأن تقلع أم زوجته عن معتقداتها القديمة، وكذلك والد زوجــته.. أمــا زوجته.. فقال إنه كفيل بها.. وعقدت بينهم جميعًا مجلسًا لم ينقصه إلا الزوجة لأنها كانت بالمستشفى.. وقبلوا شروطه بعد هذا الدرس القاسي..!!

كــان لــزيارته لزوجته في المستشفى.. أكبر الأثر في شفائها، وزادت بهجتها حينما عرفت أنه أعادها إلى عصمته.. قال لي ابني الذي كان يشرف على علاجها.. إن عودتها إلى زوجهــا، وزيارتــه لها كانت العلاج الحقيقي الذي عجل بشفائها؛ لأن المرأة وهي وحــيدة أبــويها.. حطمــتها وفاة ابنها.. ثم قضت على البقية الباقية من عقلها صدمة طلاقهــا.. بعد شهر وعشرة أيام تقريبًا تقرر خروجها، وكان ينتظرها زوجها ووالدها ووالدتها في سيارة على الباب رحلت بهم إلى الصعيد فورًا..!

لم أســتطع أن أنزع من نفسي بقايا هذه المأساة، ولم يكن من السهل أن أتغافل عن الخرافة التي تخرب أو تهدم كل يوم بل وكل لحظة عشرات النفوس والبيوت في عشيرتي، وأبناء ديني.. وعلى امتداد الوطن الإسلامي كله.. ووجدتني أسأل نفسي: لماذا نحن الذين في الشــرق الأوســط.. تمزقنا الخرافة، وتجثم على صدر مجتمعنا الخزعبلات. فتمسك بنا وتعوقنا عن ممارسة الحضارة..؟

مــع أن الغــرب، والمجــتمع الأوربي لــيس خاليًا من الخرافات، وليس خاليًا من الخزعبلات، ومع ذلك فهم يعيشون في حضارة ويمارسونها.. تدفع بهم ويدفعون بها دائمًا إلى الأمام؟!

الواقع أن خزعبلاتهم، وخرافاتهم في مجموعها معادية للروح.. تدفع بهم إلى الانزلاق أكثر من الماديات، وهذا هو ما يتفق وحضارتهم..!!

أما هنا في الشرق.. فإن خرافاتنا معادية للعقل، وللمادة معًا..! ولهذا كانت خرافاتنا هي المسئولة عن تدمير حياتنا.. في الحاضر والمستقبل، وليس هناك من سبيل لخروجنا من هـــذا المـــأزق الاجتماعـــي، والحضاري سوى تنقية العقيدة مما ألصق بها، وعلق بها من الشوائب التي ليست من الدين في شيء..!

فحينما يصبح "التوحيد" أسلوب حياة، وثقافة، وعقيدة.. سوف تختفي من أفقنا وإلى الأبد.. هذه الغيوم.. غيوم الخرافات، والدجل والشعوذة، والكهانة التي لا تقوى.

وتلـــك مسئولية ينبغي أن تقوم بها أجهزة التربية المباشرة وغير المباشرة فإن ما تعيشه الآن هـــو صـــورة أسوأ مما قرأت في هذه الاعترافات، ولو أنك اخترت مائة أسرة كعينة عشـــوائية وبحثت فيها لوجدت أن كل ما رويته لك من هذه الاعترافات لا يمثل إلا أقل القليل!

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[آل عمران: ٥٣].

* * *

٣- توبة الثلاثة الذين خلفوا[1]

يقـــول تعـــالى: ﴿وَعَلَـــى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُـــبَتْ وَضَـــاقَتْ عَلَـــيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

ويقول تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ قيل: عن التوبة؛ عن مجاهد وأبي مالك. وقال قتادة: عن غزوة تبوك. وحكي عن محمد بن زيد معنى ﴿خُلِّفُوا﴾ تركوا؛ لأن معنى خلفـــت فلانا تركته وفارقته قاعدًا عما نهضت فيه. وقرأ عكرمة بن خالد ﴿خَلَفُوا﴾ أي أقامـــوا بعقـــب رســـول الله ﷺ. وروى عن جعفر بن محمد أنه قرأ ﴿خُلِّفُوا﴾. وقيل: ﴿خُلِّفُـــوا﴾ أي أرجئوا وأخروا عن المنافقين فلم يقض فيهم بشيء. وذلك أن المنافقين لم تقـــبل توبـــتهم، واعتذر أقوام فقبل عذرهم، وأخر النبي ﷺ هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم

---

(١) تفسير القرطبي (٣١٢٠ ــ ٣١٢٧).

القــرآن وهذا هو الصحيح لما رواه مسلم والبخاري وغيرهما. واللفظ لمسلم قال كعب: كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه؛ فبذلك قال الله ﷻ: ﴿**وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا**﴾ وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفْنَا تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له وعتذر إليه فقبل منه.

وهذا الحديث فيه طول، هذا آخره.[١]

والثلاثة الذين خلفوا هم: كعب بن مالك، ومرارة بن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفــي، وكلــهم من الأنصار. وقد خرّج البخاري ومسلم حديثهم، فقال مسلم عن كعب بن مالك قال: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غــير أني قــد تخلفت في غزوة بدر و لم يعاتب أحدًا تخلف عنه، إنما خرج رسول الله ﷺ والمســلمون يريدون عير قريش؛ حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بــدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غــزوة تبوك: أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله مــا جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حــر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازا، واستقبل عدوًّا كثيرًا؛ فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهــم كتاب حافظ ــ يريد بذلك الديوان ــ قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب، يظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه ولي من الله تعالى، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حــين طابت الثمار والظلال؛ فأنا إليها أصعر[٢]، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمسلمون معــه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع و لم أقض شيئًا، وأقول في نفسي: أنا قادر علــى ذلك إذا أردت! فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غازيًــا والمسلمون معه و لم أقض من جهازي شيئًا، ثم غدوت فرجعت و لم أقض شــيئًا، فلــم يــزل كذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو؛ فهممت أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلت! ثم لم يقدر ذلك لي فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج

(١) راجع صحيح مسلم كتاب التوبة.
(٢) أي أميل.

رسـول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصا[1] عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، و لم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القـوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه بـراده والنظر في عطفيه[2]. فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله ما علمـنا عليه إلا خيرًا. فسكت رسول الله ﷺ ثم قال: كن أبا خيثمة؛ فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حتى لمزه المنافقون. فقال كعب بن مالك: فلما بلغـني أن رسـول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي، فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بم أخرج من سخطه غدا، وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي؛ فلما قيل لي: إن رسـول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدًا، فأجمعت صدقه، واصبح رسول الله ﷺ، قادمًا، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فـركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفـون لـه، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واسـتغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت فلما سلمت تبسم تبسم المغضب، ثم قـال: تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ قال: قلت يا رسول الله، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً[3] ـ ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صـدق تجد[4] على فيه إني لأرجو فيه عقبى الله، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضـي الله فيك. فقمت وثار[5] رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنبًا قبل هذا! لقد عجزت في ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المـتخلفون، فقـد كـان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك! قال: فوالله ما زالوا

---

(١) أي مطعونا عليه في دينه، متهماً بالنفاق.

(٢) هذا كناية عن كونه معجبًا بنفسه، ذا زهو وتكبر.

(٣) أي فصاحة وقوة كلام بحيث أخرج من عهدة ما ينسب إلي بما يقبل ولا يرد.

(٤) تجد: تغضب.

(٥) أي وثبوا علي.

يؤنبوني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي. قال: ثم قلت لهم هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم! لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لــك. قال قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن ربيعة العامري وهلال بن أمية الواقفي. قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة؛ قال: فمضيت حين ذكروهما لي. قــال: ونهـى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه. قال فاجتنبـنا الناس، وقال: تغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعــرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة؛ فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلمـني أحد؛ وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفســي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا! ثم أصلي قريبًا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت علــى صــلاتي نظر إلى وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك عليّ من جفوة المســلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله! هل تعلمن أني أحــب الله ورسوله؟ قال: فسكت، فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته فقال: الله ورســوله أعلم! ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينا أنا أمشي في سوق المديــنة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعــب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاءني فدفع إلي كتابًا من ملك غســان، وكنت كاتبًا فقرأته فإذا فيه: أما بعد! فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، و لم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك.

قال فقلت حين قرأتها: وهذه أيضًا من البلاء! فتيامت بها التنور فسجرته[1] بها، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي إذا رسول[2] رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنها. قال: فأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك. قال فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالــت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن

---

(١) أي أوقدته بالصحيفة.

(٢) قال الواقدي: هذا الرسول هو خزيمة بن ثابت.

أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك فقالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء! ووالله ما زال يبكـي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. قال: بعض أهلي لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، ومـا يـدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب! قال: فلبثت بذلك عشر ليالٍ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا.

قـال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جـالس علـى الحال التي ذكر الله منا قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت أوفى على سلع[1] يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر.

قـال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج. قال: فآذن رسول الله ﷺ الناس بـتوبة الله علينـا حين صلى صلاة الفجر؛ فذهب الناس يبشروننا، فذهب قبل صاحبي مبشـرون، وركـض رجـل إليّ فرسا، وسعى ساع من أسلم قبلي وأوفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس؛ فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهمـا ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما؛ فانطلقت أتأمم رسـول الله ﷺ؛ فـتلقاني الناس فوجا فوجا، يهنؤنني بالتوبة ويقولون: لتهنئك توبة الله علـيك، حـتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس؛ فقام طلحـة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره. قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يـبرق وجهه من السرور ويقول: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قال: فقلت أمن عند الله يا رسول الله أم من عندك؟ قال: لا بل من عند الله. وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كان وجهه قطعة قمر. قال: وكنا نعرف ذلك. قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبة الله علي أن أنخلع من مالي صدقة لله وإلى رسوله فقال رسول الله -ﷺ-: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. قال فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. قال وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن ن توبتي ألا احـدث إلا صدقًا ما بقيت. قال: فوالله ما علمت احدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحـديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمـدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو الله أن يحفظني

---

(١) أي أشرف على جبل سلع. قال الواقدي: هو أبو بكر الصديق ﷺ.

فيما بقى، فانزل الله ﷻ: ﴿لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ -حتى بلغ -﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾- حتى بلغ - ﴿اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾. قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، وقال الله تعالى: "سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون. يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين". قال كعب: كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ﴾، وليس الذي ذكر الله مما خلفنا تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.

قوله تعالى: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي بما اتسعت؛ يقال: منزل رحب ورحيب ورحاب. و "ما" مصدرية؛ أي ضاقت عليهم الأرض برحبها؛ لأنهم كانوا مهجورين لا يعاملون ولا يكلمون. وفي هذا دليل على هجران أهل المعاصي حتى يتوبوا.

قوله تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي ضاقت صدورهم بالهم والوحشة، وبما لقوه من الصحابة من الجفوة. ﴿وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ﴾ أي تيقنوا أن لا ملجأ يلجئون إليه في الصفح عنهم وقبول التوبة منهم إلا إليه. قال أبو بكر الوراق: التوبة النصوح أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه؛ كتوبة كعب وصاحبيه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ فبدأ بالتوبة منه.

قال أبو زيد: غلطت في أربعة أشياء: في الابتداء مع الله تعالى، ظننت أني أحبه فإذا هو أحبني؛ قال الله تعالى: "يحبهم ويحبونه". وظننت أني أرضى عنه فإذا هو قد رضي عني؛ قال الله تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. وظننت أني أذكره فإذا هو يذكرني؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾". وظننت أني أتوب فإذا هو قد تاب علي؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾. وقيل: المعنى ثم تاب عليهم ليثبتوا على التوبة؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[سورة النساء:١٣٦]. وقيل: أي فسح لهم و لم يعجل عقابهم كما فعل بغيرهم؛ قال جل وعز: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾

الفصل الأول
من كتاب التوابين لابن قدامة المقدسي
رحمه الله تعالى..

بسم الله الرحمن الرحيم

١- [توبة الملكين هاروت وماروت][1]

أخــبرنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أحمد بن النقور رحمه الله، أنبأ الأمين أبو طالب عــبد القــادر بن محمد اليوسفي، أنبأ ابن الذهب، أنبأ أبو بكر القطيعي، ثنا عبد الله بن أحمد، ثنا أبي رحمه الله، ثنا يحيى بن أبي بكير، ثنا زهير بن محمد، عن موسى بن جبير، عن نافع، عن عبد الله بن عمر أنه سمع نبي الله ﷺ يقول: "إن آدم عليه السلام لما أهبطه الله إلى الأرض قالــت الملائكــة: أي ربنا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَــبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[البقرة: الآية٣٠] قالوا: ربنا! نحــن أطــوع لك من بني آدم. قال الله تعالى للملائكة: هلموا ملكين من الملائكة حتى نهــبطهما إلى الأرض فتنظــروا كيف يعملان. قالوا: ربنا! هارون وماروت. فأهبطا إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة[2] امرأة من أحسن البشر، فجاءتهما، فسألاها نفسها، قالت: لا والله! حــتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك. فقالا: لا والله! لا نشرك بالله شيئًا أبدًا. فذهــبت عنهما ثم رجعت بصبي تحمله، فسألاها نفسها، فقالت لا والله! حتى تقتلا هذا الصبي، فقالا: لا والله! لا نقتله أبدا. فذهبت ثم رجعت بقدح خمر تحمله، فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تشربا هذه الخمر، فشربا حتى سكرا، فوقعا عليها وقتلا الصبي. فلما أفاقــا، قــال المرأة: والله ما تركتما شيئًا مما أبيتماه إلا فعلتماه حين سكرتما، فخيّرا بين عذاب الدنيا والآخرة، فاختارا عذاب الدنيا"[3].

أخــبرنا أبــو العباس أحمد بن المبارك بن سعد، أنا جدي لأمي أبو المعالي ثابت بن

---

(١)انظر: كتاب التوابين (ص٩).

(٢)الزهرة: الكوكب المعروف، ويقال: بأنه موجوّد في السماء الثالثة: القاموس المحيط/ ج٢.

(٣) أخــرج هذا الحديث الإمام أحمد في مسنده، ج٢، ص ١٣٤. وابن حبان في صحيحه حديث رقم ١٧١٧، ص ٤٢٥. مع اختلاف لبعض الألفاظ.

بندار، أنا أبو علي بن دوما، أنا أبو علي الباقر حي، أنا الحسن بن علويه، أنا إسماعيل، أن إسحاق بن بشر، عن جويبر عن الضحاك، عن مكحول، عن معاذ، قال:

لما أن أفاقا جاءهما جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل وهما يبكيان، فبكى معهما، وقال لهما: ما هذه البلية التي أجحف[١] بكما بلاؤها وشقاؤها؟ فبكيا إليه، فقال لهما: إن ربكما يخيركما بين عذاب الدنيا وأن تكونا عنده في الآخرة. فعلما أن الدنيا منقطعة[٢]، وأن الآخرة دائمة، وأن الله بعباده رءوف رحيم. فاختارا عذاب الدنيا، وأن يكونا في المشيئة عند الله. قال: فهما ببابل فارس معلقين بين جبلين في غار تحت الأرض، يعذبان كل يوم طرفي النهار إلى الصيحة. ولما رأت ذلك الملائكة حفقت بأجنحتها في البيت، ثم قالوا: اللهم اغفر لولد آدم، عجبًا كيف يعبدون الله ويطيعونه على ما لهم من الشهوات واللذات!

وقال الكلبي[٣]: فاستغفرت الملائكة بعد ذلك لولد آدم، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾[الشورى: الآية ٥].

وروى عن ابن عباس: أن الله تعالى قال للملائكة: انتخبوا ثلاثة من أفاضلكم. فانتخبوا عزرا وعزرايل وعزويل. فكانوا إذا هبطوا إلى الأرض كانوا في حدي بني آدم وطبائعهم. فلما رأى ذلك عزرا وعرف الفتنة، علم أن لا طاقة له.

فاستغفر ربه عز وجل واستقاله فأقاله[٤]. فروى أنه لم يرفع رأسه بعد ذلك حياء من الله تعالى.

قال الربيع بن أنس[٥]: لما ذهب عن هاروت وماروت السكر عرفا ما وقعا فيه من

---

(١) أجحف به: ذهب. القاموس المحيط، ج٣، ص١٢٦.

(٢) منقطع الشيء: حيث ينتهي إليه طرفه. القاموس المحيط، ٧٤/٣.

(٣)هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو، أبو النضر، نسابة، راوية، عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب. مولده ووفاته بالكوفة. قال النسائي: حدث عنه ثقات من الناس ورضوه في التفسير، وأما في الحديث ففيه مناكير. وهو صاحب كتاب "الأصنام". الأعلام٦/ ١٣٣.

(٤)أقلته: فسخته، واستقاله: طلب إليه أن يقيله. القاموس المحيط ٤٣/٤.

(٥)هو الربيع بن أنس البكري، ويقال: الحنفي البصري ثم الخراساني. ذكره ابن حبان في الثقات وقال: الناس يتقون في حديثه ما كان من رواية أبي جعفر عنه؛ لأن في أحاديثه عنه اضطرابًا كثيرًا. ذكر الذهبي أنه توفى سنة ١٣٩ هـ أو سنة ١٤٠ هـ. ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٣٨/٣ (ط١).

الخطيئة وندما، وأرادا أن يصعدا إلى السماء فلم يستطيعا، و لم يؤذن لهما.

فبكيا بكاء طويلاً وضاقا ذرعًا بأمرهما. ثم أتيا إدريس عليه السلام وقالا له: ادع لنا ربك فإنا سمعنا بك تذكر بخير في السماء. فدعا لهما فاستجيب له، وخيرا بين عذاب الدنيا والآخرة.

وروى أن الملائكة، لما قالوا لله تبارك وتعالى: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ [البقرة: ٣٠]، طافوا حول العرش أربعة آلاف عام يعتذرون إلى الله ﷻ من اعتراضهم.

٢ـ [توبة يونس عليه السلام][١]

قال إسحاق بن بشر: وأخبرنا سعيد عن قتادة، عن الحسن: أن يونس عليه السلام كان مع نبي من أنبياء بني إسرائيل، فأوحى الله إليه أن ابعث يونس إلى أهل نينوى[٢] يحذرهم عقوبتي. قال: فأتاهم فحذرهم وأنذرهم، فكذبوه وردوا عليه نصيحته، ورموه بالحجارة وأخرجوه، فانصرف عنهم. فقال له نبي بني إسرائيل: ارجع إلى قومك. فرجع إليهم. فرموه بالحجارة وأخرجوه. فقال له النبي: ارجع إلى قومك، فرجع فكذبوه، وأوعدهم[٣] العذاب، فقال: يا رب! إن قومي أبوا إلا الكفر، فأنزل عليهم نقمتك.

فأوحى الله تعالى إليه: إني أنزل بقومك العذاب. قال: فخرج عنهم يونس، وأوعدهم العذاب بعد ثلاثة أيام. وأخرج أهله وانطلق فصعد جبلاً ينظر إلى أهل نينوى، ويترقب العذاب. فجاءهم العذاب وعاينوه، فتابوا إلى الله تعالى فكشف عنهم العذاب. فلما رأى ذلك، جاءه إبليس فقال: يا يونس! إنك إن رجعت إلى قومك اتهموك وكذبوك. فذهب مغاضبًا لقومه. فانطلق حتى أتى شاطئ دجلة[٤]، فركب سفينة. فلما توسطت به الماء أوحى الله إليها أن اركدي، فركدت السفينة، والسفن تمر يمينًا وشمالاً. فقالوا: ما بال سفينتكم؟ فقالوا: لا ندري. قال يونس: أنا أدري. قالوا: فما حالها؟ قال: فيها عبد آبق[٥] من ربه، فلا تسير حتى تلقوه في الماء. قالوا: ومن هو؟ قال أنا، وعرفوه. قالوا: أما أنت

---

(١) انظر: كتاب التوابين (ص٢٥).

(٢) نينوى: قرية في أرض الموصل في العراق. معجم البلدان، ١٩٦/٨.

(٣) أوعد: وعده شرًا. القاموس المحيط، ١٠/ ٣٥٩.

(٤) دجلة: نهر بغداد. معجم البلدان، ٣٨/٤.

(٥) أبق العبد: ذهب بلا خوف ولا كدّ عمل أو استخفى ثم ذهب. القاموس المحيط، ٢١٥/٣.

فليس نلقيك، والله ما نرجو النجاة منها إلا بك! قال: فاقترعوا، فمن قرع فألقوه في الماء. قال: فاقترعوا، فقرعهم يونس، فأبوا أن يلقوه قال: فاقترعوا الثانية، فقرعهم. قال: فاقترعوا الثالثة، فقرعهم. قال: ألقوني في الماء.

وفي رواية قال: يا قوم! اطرحوني في الماء وانجوا. فقام القوم، فاحتملوه شبه المشفقين عليه. فقال: ائتوا بي صدر السفينة. ففعلوا، فلما أشرفوا ليلقوه، فإذا الحوت فاتح فاه. فلما رأى ذلك، قال: يا قوم! ردوني إلى مؤخرة السفينة. ففعلوا، فلما أشرفوا، ذهبوا يطرحونه، فاستقبله الحوت فاتحًا فاه. فلما رأى جوفه وهوله[1] قال: يا قوم! ردوني إلى وسط السفينة. ففعلوا، فاستقبله. فقال: ردوني إلى الجانب الآخر. فاستقبله فاتحًا فاه ليأخذه. فقال: اطرحوني وانجوا فلا منجا من الله. فطرحوه، والتقمه الحوت قبل أن يبلغ الماء، وتصوب به.

رجع الحديث إلى الحسن، قال: فانطلق به الحوت إلى مسكنه من البحر، ثم انطلق به إلى قرار الأرض، فطاف بالبحار أربعين يومًا. فسمع يونس تسبيح الحصى وتسبيح الحيتان. قال: فجعل يسبح ويهلل[2] ويقدس. وكان يقول في دعائه: سيدي! في السماء مسكنك، وفي الأرض عجائب قدرتك. سيدي! من الجبال أهبطتني، وفي البلاد سيرتني، وفي الظلمات الثلاث حبستني. إلهي! سجنتني بسجن لم تسجن به أحدًا قبلي. إلهي! عاقبتني بعقوبة لم تعاقب بها أحدًا قبلي. فلما كان تمام أربعين يومًا وأصابه الغم، ﴿**فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[الأنبياء:٨٧] قال: فسمعت الملائكة بكاءه وعرفوا صوته، وبكت الملائكة لبكاء يونس، وبكت السماء والأرض والحيتان. فقال الجبار: يا ملائكتي! ما لي أراكم تبكون؟ قالوا: ربنا! صوت ضعيف حزين نعرفه في مكان غريب. قال ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر. فقالوا: يا رب! العبد الصالح الذي كان يصعد له في كل يوم وليلة العمل الصالح الكثير؟ قال ابن عباس: قال الله تعالى: نعم. قال: فشفعت له الملائكة والسماوات والأرض. فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام، فقال: انطلق إلى الحوت الذي حبست يونس في بطنه، فقل له: إن لي في عبدي حاجة، فانطلق الحوت بيونس، وهو

---

(١) الهول: المخافة من الأمر لا يدري ما هجم عليه منه. القاموس المحيط، ٤/٧٢.

(٢) يسبح ويهلل: أي يقول سبحان الله ولا إله إلا الله. القاموس المحيط، ٢٣٤؛ ٧١٤.

يقول: يا رب! استأنست[1] في البحر بتسبيح عبدك، واستأنست به دواب البحر، وكنت أزكـى شيء به، وجعل بطني له مصلى يقدسك فيه، فقدست به وما حولي من البحار. فتخرجه عني بعد أنس كان به؟! قال الله تعالى: إني أقلته عثرته ورحمته فألقه.

قال: فجاء به إلى حيث ابتلعه ببلد على شاطئ دجلة. فدنا جبريل من الحوت وقرب فاه من فم الحوت، فقال: السلام عليك يا يونس! رب العزة يقرئك السلام. فقال يونس: مـرحبًا بصـوت كنت خشيت أن لا أسمعه أبدًا، مرحبًا بصوت كنت أرجوه قريبًا من سـيدي! ثم قـال جـبريل للحوت: اقذف يونس بإذن الله الرحمن! فقذفه مثل الفرخ الممعوط[2] الذي ليس عليه ريش فاحتضنه جبريل عليه السلام.

قـال الحسـن: فأنبت الله عليه شجرة من يقطين، وهو الدباء، فكان لها ظل واسع يستظل به، وأمرت أن ترضعه أغصانها، فكان يرضع منها كما يرضع الصبي.

وعـن الحسن، قال: بعث الله إلى يونس وعلة من وعول[3] الجبل يدر ضرعها لبنًا، حتى جاءت إلى يونس وهو مثل الفرخ، ثم ربضت[4] وجعلت ثديها في في يونس. فكان يمصـه كمـا يمص الصبي، فإذا شبع انصرفت. فكانت تختلف إليه حتى اشتد ونبت عليه شعره خلقًا جديدًا، ورجع إلى حاله قبل أن يقع في بطن الحوت. فمرت به مارة فكسوه كسـاء. فبيـنا هـو ذات يوم نائم، إذ أوحى الله إلى الشمس أن احرقي شجرة يونس، فأحرقتها. فأصابت الشمس جلده فأحرقته، فقال: يا رب! نجيتني من الظلمات، ورزقتني ظل شجرة كنت أستظل بها فأحرقتها، أفتحرقني يا رب! وبكى، فأتاه جبريل عليه السلام فقـال: يا يونس! إن الله تعالى يقول: أنت زرعتها أم أنت أنبتها؟ قال: لا. قال: فبكاؤك حين تعلم أن الله قد أعطاكها فكيف دعوت على مائة ألف وزيادة عشرين ألفًا أردت أن تهلكهم؟!

وقال ابن عباس: قال له جبريل: أتبكي على شجرة أنبتها الله لك ولا تبكي على مائة ألـف أو يـزيدون أردت أن تهلكهـم في غداة واحدة؟! فعند ذلك عرف يونس ذنبه، واستغفر ربه فغفر له.

---

(١) استأنس: ذهب توحشه. القاموس المحيط، ٢/٢٠٥.

(٢) امتعط الشعر: تساقط. القاموس المحيط، ٢/٤٠٠.

(٣) الوعل: تيس الجبل. القاموس المحيط، ٤/٦٦.

(٤) ربض: برك. القاموس المحيط، ٢/٣٤٣.

وعـــن الزهري، قال: لما قوي يونس، كان يخرج من الشجرة يمينًا وشمالاً، فأتى على رجل يصنع الجرار، فقال يونس: يا عبد الله ما عملك؟ قال: أصنع الجرار وأبيعها وأطلب فـــيها فضـــل الله. فأوحى الله إلى يونس: أن قل له يكسر جراره، فقال يونس ذلك له، فغضـــب الجـــرار، وقال: إنك رجل سوء! تأمرني بالفساد وتأمرني أن أكسر شيئًا صنعته وعملته ورجوت خيره. فأوحى الله إلى يونس: ألا ترى إلى هذا الجرار كيف غضب حين أمـــرته بكســـر ما صنع؟ وأنت تأمرني بهلاك قومك! فما الذي يشق عليه أن يصلح من قومك مائة ألف أو يزيدون! قال الله سبحانه: ﴿**فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ**﴾[الصافات: ١٤٣] يعـــني مـــن المصـــلين من قبل أن تنزل البلية، ﴿**لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ [الصافات: ١٤٤].

قـــال ابن عباس: من كان ذاكرًا لله في الرخاء، ذكره الله الشدة واستجاب له، ومن يغفل عن الله في الرخاء، وذكر الله في الشدة، لم يستجب له. وقال الله تعالى:﴿**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّـــي كُـــنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[الأنبياء:٨٧]. فقال الله ﷻ: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَـــذَلِكَ نُنْجِـــي الْمُؤْمِـــنِينَ**﴾. يقول الله تعالى: كذلك نفعل بالصالحين، إذا وقعوا في الخطيئة، ثم تابوا إلي، قبلت منهم.

قال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: "دعا أخي يونس بهذه الدعوة في الظلمات، فأنجاه الله. فـــلا يدعو بها مؤمن مكروب إلا كشف الله عز وجل ذلك عنه. إنما عدة من الله لا خلف لها"[1].

٣- [توبة امرئ القيس الشاعر][2]

وروى المرزباني[1] عن الأزدي، قال: كان امرؤ القيس الكندي[2]، وهو مخرق الأول،

---

(١) روى هـــذا الحديث عن سعد بن أبي وقاص مرفوعًا بلفظ: "دعوة ذي النون إذا دعا وهو في بطن الحـــوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له". الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٨٢، حديث رقم ٣٥٠٥.

أمـــا الحاكم فرواه بلفظ: "... لا يدعو بها رجل مسلم في شيء..." المستدرك، ١/٥٠٥؛ ٢/ ٣٨٢ — ٣٨٣.

(٢) انظر: كتاب التوابين (ص٣٩).

طويل المصاحبة للهو واللذات، كثير العكوف[٣] على اللعب.

فركب يومًا إما متبديًا[٤] وإما متصيدًا، فانقطع عن أصحابه. فإذا هو برجل جالس قد جمع عظامًا من عظام الموتى وهي بين يديه يقلبها. فقال: ما قصتك أيها الرجل وما بلغ بك إلى ما أرى من سوء الحال وشسوف[٥] الجسم وتلويح اللون والانفراد في هذه الفلاة؟ فقال: أما ذلك فلأني على جناح سفر بعيد، وبي موكلان مزعجان يحدوان بي إلى منزل ضنك المحل، مظلم القعر، كريه المقر. ثم يسلماني إلى مصاحبة البلى ومجاورة الهلكى تحت أطباق الثرى. فلو تركت بذلك المنزل مع جفائه وضيقه ووحشته، وارتعاء خشاش[٦] الأرض في لحمي وعصبي حتى أعود رفاتًا وتصير أعظمي رممًا[٧]، كان للبلاء انقضاء وللشقاية نهاية؛ ولكني أدفع بعد ذلك إلى صبيحة الحشر وأرد لهول مواقف الجزاء. ثم لا أدري إلى أي الدارين يؤمر بي. فأي حال يلتذ به من يكون إلى هذا الأمر مصيره.

فلما سمع الملك كلامه ألقى نفسه عن فرسه وجلس بين يديه، وقال: أيها الرجل! لقد كدر مقالك علي صفو عيشي، وملك الإشفاق قلبي، فأعد علي بعض قولك، واشرح لي دينك. فقال له: أما ترى هذه التي بين يدي؟ قال: بلى. قال: هذه عظام ملوك غرهم الدنيا بزخرفها، واستحوذت على قلوبهم بغرورها. فألهتهم عن التأهب لهذه المصارع[٨] حتى فاجأهم الآجال وخذلتهم الأموال وسلبتهم بهاء النعمة. وستنشر[٩] هذه العظام فتعود

---

(١) هو محمد بن عمران بن موسى، أبو عبيد الله المرزباني. إخباري، مؤرخ، أديب. أصله من خراسان، مولده ووفاته ببغداد كان على مذهب أهل الاعتزال. قالوا: كان جاحظ زمانه. وقال الأزهري: كان المرزباني يضع المحبرة وقنينة النبيذ، يكتب ويشرب، توفي سنة ٣٨٤ هـ. الأعلام، ٣١٩/٦.

(٢) هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار. أشهر شعراء العرب على الإطلاق. يماني الأصل مولده بنجد. كان أبوه ملك أسد وغطفان وأمه أخت المهلهل الشاعر، فلقنه المهلهل الشعر، فقاله وهو غلام. ثار بنو أسد على أبيه وقتلوه فنهض يثأر له من بني أسد، وقال في ذلك شعرًا كثيرًا. توفي بأنقرة سنة ٨٠ ق.هـ. الأعلام، ٢/ ١١ ١٢.

(٣) عكف عليه عكوفًا: أقبل عليه مواظبًا. القاموس المحيط، ١٨٣/٣.

(٤) تبدى: أقام بالبادية. القاموس المحيط، ٣٠٤/٤.

(٥) الشاسف: اليابس ضمرًا وهزالاً. القاموس المحيط، ١٦٣/٣.

(٦) الخشاش: حشرات الأرض والعصافير ونحوها. القاموس المحيط، ٢٨٢/٢.

(٧) الرمة: العظام البالية. القاموس المحيط، ١٢٤/٤.

(٨) الصرعة: المصارع: الحالة. القاموس المحيط، ٥١/٣.

(٩) النشر: إحياء الميت. القاموس المحيط، ١٤٧/٢.

أجسادًا، ثم تجازى بأعمالها، فإما إلى دار القرار، وإما إلى محل البوار[١].

ثم اختلس الرجل فلم ير له أثر. وتلاحق أصحاب الملك. وقد امتقع[٢] لونه وتواصلت عبراته وركب وقيذًا[٣]. فلما جن[٤] عليه الليل، نزع ما عليه من لباس الملك، ولبس طمرين وخرج تحت الليل، فكان آخر العهد به.

٤- [توبة ابن عابد من بني إسرائيل][٥]

أخبرنا أبو العباس بن المبارك قال: أخبرنا أبو المعالي بن بندار، قال: أخبرنا أبو علي النعالي، أخبرنا مخلد بن جعفر الباقرحي، أنا الحسن، أنا إسماعيل بن عيسى، أنا إسحاق بن بشر، أنا علي بن عاصم، عن داود بن أبي هند، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كان في بني إسرائيل عابد قد أعجبوا به، فذكروه يومًا عند نبيهم، فأثنوا عليه، فقال: إنه لكما تقولون، لكنه تارك لشيء من السنة فبلغ العابد، فقال: فعلام أدئب[٦] نفسي؟!

قال: فهبط من مكانه فأتى النبي وعنده الناس، والنبي لا يعرفه بوجهه. فسلم عليه، ثم قال: يا نبي الله! بلغني أني ذكرت عندك فقلت: إنه لكذلك، لولا أنه تارك لشيء من السنة، ففيم أدئب نفسي بالليل والنهار وأعتزل الناس، وإنما أطلب سنة الرب عز وجل! قال: أنت فلان؟ قال: نعم. قال: أما والله ما هو شيء أحدثته في الإسلام ولكنك لم تتزوج. قال له العابد: وليس إلا هذا؟ قال: لا. قال: فلما رأى النبي استهانته[٧] قال: أرأيت لو فعل الناس مثل الذي فعلت من كان يتقي العدو عن المسلمين، ومن كان يأخذ للمظلوم من الظالم؟ قال: وذكر الصلاة. قال له العابد: صدقت، يا نبي الله! ما أحرمه، ولكني أكره أن أتزوج امرأة مسلمة وأنا فقير فأعضلها[٨]، وليس عندي ما أنفق عليها،

---

(١) البوار: الهلاك. القاموس المحيط، ٣٩١/١.
(٢) امتقع: تغير لونه من حزن أو فزع. القاموس المحيط، ٨٨/٣.
(٣) الوقيذ: البطيء والثقيل والشديد المرض. القاموس المحيط، ٢٧٤/١.
(٤) جن عليه الليل: ستره. القاموس المحيط، ٢١٢/٤.
(٥) انظر: كتاب التوابين (ص٤٣).
(٦) دأب في عمله: جد وتعب. القاموس المحيط، ٦٦/١.
(٧) هان هونًا: سهل. القاموس المحيط، ٢٨٠/٤.
(٨) عضل عليه: ضيق، والمرأة يعضلها وعضلها، منعها الزوج ظلمًا. القاموس المحيط، ١٧/٤.

وأما الأغنياء فلا يزوجونني. فقال له النبي: ما بك إلا هذا؟ قال: فما بي إلا هذا. قال: أنا أزوجك ابنتي. قال: قد فعلت، قال: فزوجه، فولدت له غلامًا. قال ابن عباس: فوالله ما وُلد في بني إسرائيل مولود ذكر قط كانوا أشد فرحًا به من ذلك الغلام.

قال: قالوا: ابن نبينا وابن عابدنا! إنا لنرجو أن يبلغ بنا ما بلغ رجل. قال: فلما بلغ الغلام انقطع إلى عبَدَة الأوثان، وانقطعوا إليه، وكثروا عنده. قال: فبينا هم عنده يومًا، إذ قال: إني أراكم كثيرًا، فما بال هؤلاء القوم قاهرين[1] لكم؟ فقالوا: إن لهم رأسًا يجمعهم وليس لنا رأس. قال: فما يمنعكم إلا هذا؟ قالوا: نعم. قال: فأنا رأسكم. قالوا: وتفعل؟ قال: نعم. قال: فخرج وخرجوا معه. قال: فبلغ ذلك النبي وبلغ أباه، فاجتمع بنو إسرائيل إلى النبي وأبوه معهم، فأرسل إليه يذكره بالله، وأن يرجع إلى الإسلام، فأبى. فخرج إليه النبي، وخرج أبوه معه، فالتقى القوم واقتتلوا حتى كثرت الدماء فيهم، وقُتل النبي وقُتل أبوه مع النبي. وانهزم بنو إسرائيل، واتبعهم يفنيهم ويبعث في آثارهم يقتلهم. قال: فلحق أحبارهم[2] بالجبال، واستقام له الناس. قال: فجعلت نفسه لا تدعه وظن أن ذلك الملك لا يستقيم له حتى يفني بني إسرائيل. قال: فجعل يبعث في طلبهم في الجبال يقتلهم، فاستقام له الناس، واشتد ملكه. فلما رأى أحبار بني إسرائيل ما يفعل بهم، قالوا: خلينا عن هذا الرجل وعن ملكه وليس يدعنا! لقد بؤنا[3] بغضب من الله، فررنا عن نبينا وعابدنا حتى قتلا وليس يدعنا، فتعالوا نتوب إلى الله ﷻ ونلقى هذا الرجل فنقاتل ونحن تائبون. قال: فولوا رجلاً منهم أمرهم، وبايعوا له، وهبطوا وقد وطنوا أنفسهم على الموت، وتابوا إلى الله ﷻ قال: فخرج إليهم، فاقتتلوا أول يوم من أول النهار حتى حال بينهم الليل. ثم غدوا فاقتتلوا حتى كثرت الدماء في الفريقين، حتى حال بينهم الليل. قال ابن عباس: فغدوا اليوم الثالث وقد صبروا أنفسهم لله فاقتتلوا قتالاً شديدًا. وقال لهم صاحبهم: إني لأرجو أن يكون الله قد تاب عليكم وقبل توبتنا، فإني أرى الصبر قد أنزل علينا، وصارت الريح لنا، فإن ظفرتم به، فإن استطعتم أن تأخذوه سليمًا فلا تقتلوه. قال: فاقتتلوا إلى قريب من الليل، لا هؤلاء يفرون ولا هؤلاء يهربون. فلما كان في آخر النهار وعرف الله منهم الصدق، أنزل عليهم النصر، فهزموهم بإذن الله، وقتلوهم، وأخذوه

---

(١) القهر: الغلبة. القاموس المحيط، ١٢٨/٢.

(٢) الحبر: العالم أو الصالح. القاموس المحيط،٢/٢.

(٣) باء إليه: رجع. القاموس المحيط، ٩/١.

سليمًا فأتوا به. قال: فاجتمع بنو إسرائيل إلى صاحبهم، فقال لهم: ما جزاء رجل من أنفسنا قتل نبينا وقتل والده، وأدخل علينا عبدة الأوثان حتى قتلونا وشردونا في البلاد؟ فقائل يقول: احرقوه! وقائل يقول: قطعوه! وقائل يقول: عذبوه! فكلما قالوا له شيئًا من هذا قال: هذا يأتي على نفسه. قالوا: فأنت أعلم. قال: فإني أرى أن نأخذه فنصلبه حيًّا ولا نطعمه ولا نسقيه ولا نقتله وندعه حتى يموت. قالوا له: افعل. فصلب حيًّا وجعلوا عليه الحرس. قال: فمكث يومه، ومن الغد في اليوم الثالث حتى أمسى، فلما أمسى رأى الموت. فدعا آلهته التي كان يعبد من دون الله ﷻ. قال: فبدأ بأفضلها في نفسه، فيدعوه، فإذا لم يجبه جاوزه، ودعا الآخر. فأتى على آلهته جميعًا يدعوهم فلا يجيبونه، وذلك في جوف الليل. قال: اللهم إله جدي وأبي! إني قد ظلمت نفسي ودعوت هذه الآلهة التي كنت أعبدها من دونك، فلو كان عندها خير لأجابتني، فاغفر لي وخلصني مما أنا فيه. فتحللت عنه العقد فإذا هو في أسفل الجذع.

وفي حديث آخر: قال: فجعل يدعو صنمًا صنمًا، فلا يجيبه أحد. قال: فنظر إلى السماء وقال: يا حنان! يا منان! أشهد أن كل معبود من لدن عرشك إلى قرار أرضك باطل إلا وجهك الكريم أنت فأغثني. قال: فبعث الله عز وجل ملكًا، فحله عن خشبته فأنزله. قال ابن عباس: فأخذه الحرس فأتوا به صاحبهم، واجتمع بنو إسرائيل، فقال: ما تأمرون في هذا؟ قالوا: ما ترى فيه، الله عز وجل حله وتقول لنا: ما تأمرون فيه! قال: صدقتكم، ولكن أحببت أن أستأمركم، قال: فخلوا عنه.

قال سعيد بن جبير: سمعت ابن عباس يقول: والله ما كان في بني إسرائيل بعده رجل خيرًا منه ولا أفضل.

٥- [توبة ملك جبار اسمه كنعان وقومه][1]

أخبرنا أحمد بن المبارك، أنا ثابت، أنا أبو علي بن دوما، أنا مخلد، أنا الحسن، ثنا إسماعيل بن عيسى، أنا إسحاق بن بشر قال: وحدثت عن ابن سمعان عن بعض أهل العلم بالكتب.

أن ذا الكفل كان إليسع بن خطوب الذي كان مع إلياس، وليس بإليسع الذي ذكر الله تبارك وتعالى في القرآن، وإليسع ذو الكفل كان قبل داود. وذلك أن ملكًا جبارًا يقال

(١) انظر: كتاب التوابين (ص٤٦).

لـــه: كنعان، وكان لا يطاق في زمانه لظلمه وطغيانه[١]، وكان داود الكفل يعبد الله سرًّا منه، ويكتم إيمانه وهو في مملكته، فقيل للملك: إن في مملكتك رجلاً يفسد عليك أمرك ويدعو الناس إلى غير عبادتك، فبعث إليه ليقتله، فأتى به. فلما دخل عليه، قال له الملك: ما هذا الذي بلغني عنك أنك تعبد غيري؟ فقال له ذو الكفل: اسمع مني وتفهم ولا تغضب، فإن الغضب عدو للنفس يحول بينها وبين الحق ويدعوها إلى هواها، وينبغي لمن قدر ألا يغضب، فإنه قادر على ما يريد. قال: تكلم. قال: فبدأ ذو الكفل وافتتح الكلام بذكر الله ﷻ، والحمد لله، ثم قال ذو الكفل: أتزعم أنك إله؟ فإله من تملك؟ أو إله جميع الخلق؟ فإن كنت إله من تملك، فإن لك شريكًا فيما لا تملك، وإن كنت إله الخلق، فمن إلهك؟ قال له: ويحك! فمن إلهي؟ قال: إله السماء والأرض وهو خالقهما وهذه الشمس والقمر والنجوم، فاتق الله واحذر عقوبته، فإن أنت عبدته ووحدته رجوت لك ثوابًا والخلود في جواره. قال له الملك: أخبرني، من عبد إلهك فما جزاؤه؟ قال: الجنة إذا مات. قال: وما الجنة؟ قال: دار خلقها الله تبارك وتعالى بيده، فجعلها مسكنًا لأوليائه، يبعثهم يوم القيامة شبابًا مردًا[٢] أبناء ثلاث وثلاثين سنة، فيدخلهم الجنة في نعيم وخلود. شباب لا يهرمون، مقيمون لا يظعنون[٣] أحياء لا يموتون، في نعيم وسرور وبهجة. قال: فما جزاء من لم يعبده وعصاه؟ قال: النار؛ مقرونين مع الشياطين، مغلغلين بالأصفاد[٤]، لا يموتون أبدًا، في عذاب مقيم وهوان طويل، تضربهم الزبانية[٥] بمقامع[٦] من حديد، طعامهم الزقوم[٧] والضريع[٨]، وشرابهم الحميم[٩]. فرق الملك وبكى لما كان قد سبق له. فقال له: إن أنا آمنت بالله فما لي؟ قال: الجنة. قال: فمن لي بذلك؟ قال: أنا لك الكفيل، وأكتب لك على الله تبارك وتعالى كتابًا، فإذا أتيته تقاضيته بما في كتابك، وفيّ لك، فإنه

---

(١) طغى طغيانًا: غلا في الكفر وأسرف في المعاصي والظلم. القاموس المحيط، ٣٥٨/٤.
(٢) الأمرد: الشاب طر شاربه ولم تنبت لحيته. القاموس المحيط، ٣٥٠/١.
(٣) ظعن: سار. القاموس المحيط، ٤/ ٢٤٧.
(٤) الأصفاد: القيود. القاموس المحيط، ٣١٩/١.
(٥) الزبنينة ج. زبانية: متمرد الجن والإنس والشديد. القاموس المحيط، ٢٣٢/٤.
(٦) المقمصة: العمود من حديد وخشبة يضرب بها الإنسان على رأسه. القاموس المحيط، ٧٧/٣.
(٧) الزقوم: طعام أهل النار. القاموس المحيط، ١٢٧/٤.
(٨) الضريع: شيء في جهنم أمر من الصبر وأنتن من الجيفة وآخر من النار. القاموس المحيط،٥٧/٣.
(٩) الحميم: الماء الحار. القاموس المحيط، ١٠٢/٤.

قـــادر قاهر يوفيك ويزيدك. ففكر الملك في ذلك، فأراد الله به الخير، فقال له: اكتب لي على الله عز وجل كتابًا. فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب كتبه فلان الكفيل علـــى الله تعالى لكنعان الملك ثقة منه بالله تبارك وتعالى، إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولكنعان على الله عز وجل بكفالة فلان، إن تاب ورجع وعبد الله، أن يدخله الجنة ويـــبوئه[1] منها حيث يشاء، وإن له على الله ما لأوليائه، وأن يجيره من عذابه؛ فإنه رحيم بالمؤمـــنين، واســـع الرحمة، سبقت رحمته غضبه. ثم ختم الكتاب ودفعه إليه. ثم قال له: أرشدني كيف أصنع. قال: فاغتسل والبس ثيابًا جددًا، ففعل. ثم أمره أن يتشهد بشهادة الحـــق، وأن يبرأ من الشرك، ففعل. ثم قال له: كيف أعبد ربي؟ فعلمه الشرائع والصلاة. فقـــال له: يا ذا الكفل! استر هذا الأمر ولا تظهره حتى ألحق بالنساك. قال: فخلع الملك وخرج سرًّا، فلحق بالنساك فجعل يسيح في الأرض. وفقده أهل مملكته فطلبوه. فلما لم يقـــدروا عليه قالوا: اطلبوا ذا الكفل! فإنه هو الذي غر[2] إلهنا. قال فذهب قوم في طلب الملـــك، وتوارى ذا الكفل. فقدروا على الملك على مسيرة شهر من بلادهم. فلما نظروا إليه قائمًا يلصي خروا له سجدًا. فانصرف إليهم، فقال: اسجدوا لله ولا تسجدوا لأحد من الخلق؛ فإني آمنت برب السماوات والأرض والشمس والقمر. فوعظهم وخوفهم.

قـــال: فعـــرض له وجع، وحضره الموت. فقال لأصحابه: لا تبرحوا فإن هذا آخر عهدي بالدنيا، فإذا مت فادفنوني. وأخرج كتابه فقرأه عليهم حتى حفظوه وعلموا ما فيه. وقال لهم: هذا كتاب لي على ربي عز وجل، أستوفي منه ما فيه، فادفنوا هذا الكتاب معي. فلما مات جهزوه، ووضعوا الكتاب على صدره، ودفنوه. فبعث الله تبارك وتعالى ملكًا، فجـــاء بـــه إلى ذي الكفل، فقال: يا ذا الكفل! إن ربك قد وفى لكنعان بكفالتك، وهذا الكتاب الذي كتبته له، وإن الله ﷻ يقول: هكذا أفعل بأهل طاعتي.

فلمـــا أن جـــاءه الملك بالكتاب أظهره للناس فأخذوه. فقالوا له: أنت الذي غررت ملكنا وخدعته؟ فقال لهم: لم أغره و لم أخدعه، ولكن دعوته إلى الله، وتكفلت له بالجنة. وقـــد مات ملككم اليوم في سعة كذا وكذا ودفنه أصحابكم. وهذا الكتاب الذي كنت كتبته له على الله عز وجل بالوفاء، وقد وفاه الله ﷻ حقه. وهذا الكتاب تصديق لما أقول لكم. فانتظروا حتى يرجع أصحابكم.

---

(١) بوأه: أنزله. القاموس المحيط، ٩/١.

(٢) غره: خدعه وأطمعه بالباطل. القاموس المحيط، ١٠٤/٢.

فحبسوه حتى قدم أصحابهم فسألوهم، فقصوا عليهم القصة. فقالوا لهم: تعرفون الكتاب الذي دفنتموه معه؟ قالوا: نعم. فأخرجوه إليهم، فقرؤوه، فقالوا: هذا الكتاب الذي كان معه، ودفناه في يوم كذا وكذا. فنظروا وحسبوا، فإذا ذو الكفل كان قد قرأ عليهم الكتاب وأعلمهم بموت الملك في اليوم الذي مات فيه. فآمنوا به واتبعوه. فبلغ من آمن به مائة ألف وأربعة وعشرين ألفًا. وتكفل لهم مثل الذي تكفل لملكهم على الله عز وجل، فسماه الله: ذا الكفل.

٦- [توبة قوم يونس عليه السلام][١]

قال إسحاق: وأخبرنا جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال: لما أيس يونس عليه السلام من إيمان قومه دعا ربه عليهم فقال: يا رب! إن قومي أبوا إلا الكفر فأنزل عليهم نقمتك[٢]. فأوحى الله ﷻ إليه: إني أنزل بقومك العذاب. قال: فخرج عنهم يونس وأوعدهم العذاب بعد ثلاثة أيام. وأخرج أهله ومعه ابناه صغيران، فانطلق حتى خرج عنهم. فصعد جبلاً ينظر إلى أهل "نينوى" ويترقب العذاب. وبعث الله ﷻ جبريل، فقال: انطلق إلى مالك خازن النار فقل له يخرج من سموم جهنم على قدر مثقال شعيرة، ثم انطلق به فأحط[٣] به أهل مدينة "نينوى". قال: فانطلق جبريل ففعل ما أمره ربه عز وجل. وعاين قوم يونس العذاب لما هبط للوقت الذي وقت لهم يونس.

قال أبو الجلد: إن العذاب لما هبط على قوم يونس فجعل يحوم على رءوسهم مثل قطع الليل المظلم. قال ابن عباس: فلما استيقنوا بالعذاب سقط في أيديهم وعلموا أن يونس قد صدقهم، فطلبوه فلم يقدروا عليه. فقالوا: نجتمع إلى الله ونتوب إليه.

قال: فخرجوا إلى موضع يقال له: تل الرماد، وتل التوبة[٤] وإنما سمي: تل الرماد؛

---

(١) انظر: كتاب التوابين.

(٢) النقمة: المكافأة بالعقوبة. القاموس المحيط، ٤/١٨٥.

(٣) حاطه: تعهده وصانه وحفظه. القاموس المحيط، ٢/٣٦٨.

(٤) تل توبة: موضع مقابل مدينة الموصل في شرقي دجلة متصلة بنينوى، وهو تل فيه مشهد يزار ويتفرج فيه أهل الموصل كل ليلة جمعة. قيل: إنه سمي تل توبة لأنه لما نزل بأهل نينوى العذاب وهم قوم يونس النبي عليه السلام اجتمعوا بذلك التل وأظهروا التوبة وسألوا الله العفو، فتاب عليهم وكشف عنهم العذاب. معجم البلدان ٢/٤٠٤.

لأهم خرجوا جميعًا الرجال والنساء والعواتق[1]، وأخرجوا معهم أنعامهم وبهائمهم، فميزوا بين المراضع وأولادها، والبهائم وأولادها، وجعلوا الرماد على رءوسهم، ووضعوا الشوك من تحت أرجلهم، ولبسوا المسوح والصوف، ثم استجاروا بالله ورفعوا أصواتهم بالبكاء والدعاء. فعلم الله عز وجل منهم الصدق.

فقالت الملائكة: يا رب! رحمتك وسعت كل شيء، فهؤلاء الأكابر من ولد آدم تعذبهم، فما بال الأصاغر والبهائم؟ فقال الله عز وجل: يا جبريل! ارفع عنهم العذاب، فقد قبلت توبتهم. يقول الله ﷻ: ﴿**فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾[يونس:٩٨].

أخبرنا علي ابن عساكر، أنا أبو طالب، أنا أبو علي التميمي، أنا أبو بكر القطيعي، ثنا عبد الله بن أحمد، ثنا أبي، ثنا هشيم، ثنا صالح، عن أبي عمران الجوني، عن أبي الجلد، قال:

إن العذاب لما هبط على قوم يونس فجعل يحوم على رءوسهم مثل قطع الليل المظلم، فمشى ذوو العقول منهم إلى شيخ من بقية علمائهم، فقالوا: إنا قد نزل بنا ما ترى، فعلمنا دعاء ندعو به، عسى الله أن يرفع عنا العقوبة. فقال: قولوا: يا حي حين لا حي، ويا حي محيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت!

قال: فكشف الله ﷻ عنهم.

وعن الحسن: أن يونس عليه السلام بعدما أنجاه الله من بطن الحوت رجع فمر براعٍ من رعاة قومه وهو في برية يرعى غنمًا، فقال يونس للراعي: من أنت يا عبد الله؟ قال: أنا من قوم يونس بن متى. قال يونس: فما فعل يونس؟ قال: لا ندري ما حاله، غير أنه كان خير الناس وأصدق الناس، أخبرنا عن العذاب، فجاءنا على ما قال، فتبنا إلى الله فرحمنا، فنحن نطلب يونس ولا ندري أين هو ولا نسمع له بذكر.

قال يونس: هل عندك من لبن؟ قال: لا، والذي أكرم يونس ما مطرت السماء ولا أعشبت الأرض منذ فارقنا يونس. قال: ألا أراكم تحلفون بإله يونس؟ قال: لا نحلف بغير إله يونس، من فعل في مدينتنا فحلف بغير إله يونس نزع لسانه من قفاه. فقال له يونس: متى استحدثتم هذا؟ قال: لما كشف الله عنا العذاب. قال يونس: ائتني بنعجة. قال: فأتاه

---

(١) العاتق ج. عواتق: الجارية أو ما أدركت، أو التي لم تتزوج.

بنعجة مسلوبة[1]، فمسح يده على بطنها، ثم قال لها: دري[2] بإذن الله، فدرت، فاحتلبها يونس، فشرب يونس والراعي. فقال الراعي: إن كان يونس حيًّا فأنت هو! قال: أنا يونس، فأت قومك فأقرئهم مني السلام. قال: إن الملك قال: من أتاني فأعلمني أنه رأى يونس، وجاءني ذلك ببرهان، خلعت له ملكي وجعلته مكاني ولحقت بيونس. فلا أستطيع [أن] أبلغه ذلك إلا بحجة، فإني أخاف أن يقال لي: إنما قلت هذا لقول الملك وطمعت في ملكه وكذبت، وليس أحد منا يكذب اليوم كذبة إلا قتلوه، وأنت أعظم في أعينهم من ذلك أن أجيئهم بما يكذبوني ويقتلوني. قال يونس: تشهد لك الشاة التي شربنا منها لبنًا، وهو مستند إلى صخرة، فقال للصخرة: اشهدي له.

قال ابن سمعان: إن يونس قال للراعي: انطلق إلى قومك فبلغهم عني السلام وأخبرهم أنك قد رأيتني. قال: فانطلق الراعي فأخبرهم، فكذبوه. فلما شهدت الصخرة والشاة، اجتمعوا فبكوا على ذكر يونس ولم يروه، وقالوا للراعي: أنت خيرنا وسيدنا حين رأيت يونس. فملكوه عليهم، وقالوا: لا ينبغي أن يكون فينا أحد أرفع منك، ولا نعصي لك أمرًا بعدما رأيت يونس رسول الله. فكان ذلك آخر العهد بيونس. قال: وملكهم الراعي أربعين سنة.

٧- [توبة الكفل الإسرائيلي] [3]

قال محمد بن جعفر: وأخبرنا عبد الرازق بن منصور الضرير، ثنا أسباط، عن محمد، عن الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعد مولى طلحة، عن ابن عمر قال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا، قال:

كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع[4] من ذنب عمله. فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها[5]. فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت. فقال لها: ما يبكيك؟ أكرهتك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط. قال: فلم تفعلين هذا ولم تكوني فعلته قط؟ قالت: حملتني عليه الحاجة.

---

(١) ناقة سالب ومسلب: مات ولدها أو ألقته لغير تمام. القاموس المحيط، ١/٨٦.

(٢) الدر: اللبن والدرة: سيلان اللبن. القاموس المحيط، ٢/٢٩.

(٣) انظر: كتاب التوابين (ص٥٦).

(٤) يتورع: يتحرج. القاموس المحيط، ٣/٩٦.

(٥) وطأ المرأة: جامعها. القاموس المحيط، ١/٣٣.

قال: فتركها، ثم قال: اذهبي والدنانير لك. ثم قال: والله لا يعصي الله الكفل أبدًا. فمات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه: غفر الله للكفل[١].

٨- [توبة عابد وامرأة بغية أحبته][٢]

أنبأنا الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الإمام، أنا عبد الملك بن أبي القاسم، قال: أنا محمد بن علي بن عمير، أنا محمد بن محمد بن عبد الله الفامي، أنا محمد بن أحمد المرواني، قال: حدثني محمد بن المنذر شُكر، قال: حدثني الفضل بن عبد الجبار الباهلي، أنا إبراهيم بن الأشعث، ثنا معتمر بن سليمان عن أبي كعب صاحب الحرير، عن الحسن، قال: كانت امرأة بغي، لها ثلث الحسن، لا تمكن من نفسها إلا بمائة دينار. وإنه أبصرها عابد فأعجبته. فذهب فعمل بيديه وعالج[٣] فجمع مائة دينار. ثم جاء إليها، فقال: إنك أعجبتني فانطلقت فعملت بيدي، وعالجت حتى جمعت مائة دينار. فقالت له: ادخل. فدخل، وكان لها سرير من ذهب، فجلست على سريرها، ثم قالت له: هلم. فلما جلس منها مجلس الختان[٤] ذكر مقامه بين يدي الله، فأخذته رعدة: فقال لها: اتركيني أخرج ولك المائة دينار. قالت: ما بدا لك وقد زعمت أنك رأيتني فأعجبتك فذهبت فعالجت وكددت حتى جمعت مائة دينار، فلما قدرت علي فعلت الذي فعلت؟ فقال: فرقا[٥] من الله ومن مقامي بين يديه، وقد بغضت إلي، فأنت أبغض الناس إلي. فقالت: إن كنت صادقًا فما لي زوج غيرك، فقال: دعيني أخرج. فقالت: لا، إلا أن تجعل لي أن تتزوج بي، قال: لا، حتى أخرج. قالت: فلي عليك إن أنا أتيتك أن تتزوجني؟ قال: لعل. فتقنع[٦] بثوبه، ثم خرج إلى بلده. وارتحلت تائبة نادمة على ما كان منها حتى جاءته. فلما رآها شهق شهقة فمات وسقط في يدها. وقالت: أما هذا فقد فاتني، فهل له من قريب؟ قالوا: أخوه رجل فقير. قالت: فإني أتزوجه حبًّا لأخيه. فتزوجته، فنشر الله منهما سبعة أنبياء.

---

(١)رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة، باب ٤٨، حديث رقم (٢٤٩٦).

(٢)انظر: كتاب التوابين (ص٥٧).

(٣)عالج: زاول. القاموس المحيط، ٢٠٧/١.

(٤)الختان: موضع القطع من الذكر والأنثى، ومنه الحديث المروي: "إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل"، وهما موضع القطع من ذكر الغلام وفرج الجارية. لسان العرب مادة (ختن).

(٥)فرقًا: خوفًا القاموس المحيط، ٢٨٤/٣.

(٦)تقنع بثوبه: تستر به أو وضعه على رأسه. القاموس المحيط، ٧٨/٣؛ لسان العرب مادة (قنع).

٩- [توبة القصاب][1]

أخبرنا الفقيه أبو محمد عبد الرحمن بن جامع بن غنيمة بن البنا، حدثنا أبو السعادات أحمد بن أحمد المتوكلي، أنا أبو بكر الخطيب، أنا أبو سعيد محمد بن موسى بن الفضل، أنا أبو عبد الله محمد الصفار، أنا أبو بكر بن أبي الدنيا، ثنا الحسن بن الصباح، ثنا زيد بن الحباب، ثنا محمد بن نشيط الهلالي، ثنا بكر بن عبد الله المزني:

أن قصابًا ولع بجارية لبعض جيرانه. فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلى قرية أخرى، فتبعها، فراودها عن نفسها. فقالت: لا تفعل! لأنني أشد حبًّا لك منك لي، ولكني أخاف الله. قال: فأنت تخافينه وأنا لا أخافه؟! فرجع تائبًا، فأصابه العطش حتى يكاد ينقطع عنقه. فإذا هو برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل، فسأله، قال: ما لك؟ قال: العطش. قال: تعال حتى ندعو الله حتى تظلنا سحابة حتى ندخل القرية. قال: ما لي من عمل. قال: فأنا أدعو وأمن أنت. قال: فدعا الرسول، وأمن هو. فأظلتهم سحابة حتى انتهوا إلى القرية، فأخذ القصاب إلى مكانه، ومالت السحابة فمالت عليه. فرجع الرسول ﷺ، فقال: زعمت أن ليس لك عمل، وأنا الذي دعوت وأنت الذي أمنت، فأظلتنا سحابة ثم تبعتك، لتخبرني ما أمرك. فأخبره، فقال الرسول ﷺ: "التائب إلى الله بمكان ليس أحد من الناس بمكانه".

١٠- [توبة العابد صاحب الرغيف][2]

أخبرنا أبو الفتح محمد بن عبد الباقي بن أحمد بن سليمان، أنا أبو الفضل أحمد بن أحمد، ثنا أبو نعيم الحافظ، ثنا عبد الله بن محمد بن شبل، ثنا أبو بكر بن أبي سيبة، ثنا معتمر بن سليمان، عن أبيه، ثنا أبو عثمان، عن أبي بردة، قال:

لما حضرت أبا موسى الوفاة، قال: يا بني! اذكروا صاحب الرغيف، كان رجل يتعبد في صومعة[3] أراه سبعين سنة لا ينزل إلا في يوم واحد. قال: فشبه أو شب[4] الشيطان في عينه امرأة، فكان معها سبعة أيام أو سبع ليال، ثم كشف عن الرجل غطاؤه، فخرج تائبًا. وكان كلما خطا خطوة صلى وسجد فآواه الليل إلى دكان عليه اثنا عشر مسكينًا.

---

(١) انظر: كتاب التوابين (ص٥٨).
(٢) انظر: كتاب التوابين (ص٥٩).
(٣) الصومعة: بيت للنصارى. القاموس المحيط، ٥٣/٣.
(٤) الشب: ارتفاع كل شيء. القاموس المحيط، ٨٨/١.

فأدركه العياء، فرمى بنفسه بين رجلين منهم. وكان ثم راهب يبعث إليهم كل ليلة أرغفة فيعطي كل إنسان رغيفًا. فجاء صاحب الرغيف، فأعطى كل إنسان رغيفًا، ومر على ذلك الرجل الذي خرج تائبًا فظن أنه مسكين فأعطاه رغيفًا، فقال له المتروك: ما لك لم تعطني رغيفي؟ فقال: تراني أمسكت[1] عنك؟ سل هل أعطيت أحدًا منكم رغيفين؟ قالوا: لا. فقال: والله لا أعطيتك الليلة شيئًا! فعمد التائب إلى الرغيف الذي دفعه إليه فدفعه إلى الرجل الذي ترك، فأصبح التائب ميتًا، قال: فوزنت السبعون بالسبع ليال فرجحت[2] الليالي. فوزن الرغيف بالسبع ليال فرجح الرغيف. فقال أبو موسى: يا بني! اذكروا صاحب الرغيف.

١١- [توبة الراهب الذي أعطى رغيفاً][3]

أخبرنا أبو الحسن علي ابن عساكر البطائحي، أنا الأمين أبو طالب اليوسفي، أنا ابن المذهب، أنا القطيعي، ثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، ثنا أبو معاوية، ثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن مغيث بن سمي، قال:

تعبد راهب من بني إسرائيل في صومعة ستين سنة، فنظر يومًا في غب[4] سماء، فأعجبته الأرض. فقال: لو نزلت فمشيت في الأرض ونظرت فيها قال: فنزل معه برغيف. فعرضت له امرأة فتكشفت له، فلم يملك نفسه أن وقع عليها. فأدركه الموت على تلك الحال. قال: وجاء سائل فأعطاه الرغيف ومات. قال: فجيء بعمل ستين سنة فوضع في كفة. قال: وجيء بخطيئته فوضعت في كفة فرجحت بعمله. قال: وجيء بالرغيف فوضع مع عمله فرجح بخطيئته.

١٢- [توبة العبد القاتل مائة نفس][5]

أخبرنا أبو بكر بن النقور، أنا أبو طالب اليوسفي، أنا أبو علي بن المذهب، أنا أبو بكر القطيعي، ثنا عبد الله بن أحمد، ثنا أبي، ثنا يزيد، ثنا همام بن يحيى، ثنا قتادة، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري، قال: لا أحدثكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ

---

(١) أمسك: حبس. القاموس المحيط، ٣/٣٢٩.
(٢) رجح الميزان: مال. القاموس المحيط، ١/٢٢٩.
(٣) انظر: كتاب التوابين (ص٥٩).
(٤) غب الأمر: صار إلى آخره، وغب بمعنى بَعُدَ. لسان العرب مادة (غبب).
(٥) انظر: كتاب التوابين (ص٦٥).

سمعته أذناي، ووعاه قلبي:

أن عبدًا قتل تسعة وتسعين نفساً، فعرضت[١] له التوبة، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل، فأتاه فقال: إني قتلت تسعة وتسعين نفسًا، فهل لي من توبة؟ فقال: بعد قتل تسعة وتسعين نفسًا! قال: فانتضى[٢] سيفه فقتله به، فأكمل به المائة. ثم عرضت له التوبة، فسأل عن أعلم أهل الأرض؛ فدل على رجل، فأتاه فقال: إني قتلت مائة نفس، فهل لي من توبة؟ قال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ اخرج من القرية الخبيثة التي أنت فيها إلى القرية الصالحة. [قرية كذا وكذا فاعبد ربك فيها، قال: فخرج إلى القرية الصالحة] فعرض له أجله في الطريق. قال: فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. قال: فقال إبليس: أنا أولى به، إنه لم يعصني ساعة قط. قال: فقالت ملائكة الرحمة: إنه خرج تائبًا.

قال همام: فحدثني حميد الطويل، عن بكر بن عبد الله المزني، عن أبي رافع، قال: فبعث الله ﷻ [له] ملكًا، فاختصموا إليه. ثم رجع إلى حديث قتادة، قال: فقال: انظروا إلى أي القريتين كان أقرب إليها فألحقوه بأهلها.

قال قتادة: فحدثنا الحسن: أنه لما عرف الموت، احتفز[٣] بنفسه. فقرب الله منه القرية الصالحة. وباعد منه القرية الخبيثة، فألحقوه بأهل القرية الصالحة[٤].

١٣- [توبة لص عند رؤيته عيسى عليه السلام][٥]

أخبرنا أبو الفتح محمد بن عبد الباقي، أنا أبو الفضل أحمد بن أحمد الحداد، أنا أحمد بن عبد الله بن إسحاق، ثنا أبو محمد بن حيان، ثنا أحمد بن الحسين، ثنا أحمد بن إبراهيم، حدثني محمد بن يزيد بن خنيس، عن وهيب بن الورد قال:

بلغنا أن عيسى عليه السلام مر هو ورجل من بني إسرائيل من حواريه[٦] بلص في

---

(١) عرضت له: ظهرت. القاموس المحيط، ٣٤٦/٢.

(٢) انتضى سيفه: سله. القاموس المحيط، ٣٩٨/٤.

(٣) حفزه: دفعه من خلفه. القاموس المحيط، ٢/ ١٧٩.

(٤) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم (٣٤٧٠)، ومسلم في كتاب التوبة، حديث رقم (٢٧٦٦)، وأحمد في مسنده ٢٠/٣ — ٢١.

(٥) انظر: كتاب التوابين (ص٦٦).

(٦) الحواري: الناصر أو ناصر الأنبياء. القاموس المحيط، ١٥/٢.

قلعة له. فلما رآهما اللص ألقى الله في قلبه التوبة. قال: فقال لنفسه: هذا عيسى ابن مريم عليه السلام، روح الله وكلمته وهذا حواريه، ومن أنت يا شقي؟ لص بني إسرائيل! قطعت الطريق وأخذت الأموال، وسفكت[١] الدماء! ثم هبط إليهما تائبًا نادمًا على ما كان منه. فلما لحقهما، قال لنفسه: تريد أن تمشي معهما؟ لست لذلك بأهل! امش خلفهما كما يمشي الخطاء المذنب مثلك!

قال: فالتفت إليه الحواري فعرفه. فقال في نفسه: انظر إلى هذا الخبيث الشقي ومشيه وراءنا! قال: فاطلع الله سبحانه وتعالى على ما في قلوبهما من ندامته وتوبته ومن ازدراء[٢] الحواري إياه وتفضيله نفسه عليه. قال: فأوحى الله تعالى إلى عيسى ابن مريم أن مر الحواري ولص بني إسرائيل أن يأتنفا[٣] العمل جميعًا، أما اللص فقد غفرت له ما قد مضى لندامته وتوبته، وأما الحواري فقد حبط[٤] عمله لعجبه بنفسه وازدرائه هذا التواب.

١٤- [توبة المنافق مخشن بن حمير[٥]][٦]

قال: وقد كان رهط[٧] من المنافقين، منهم مخشن بن حمير، رجل من أشجع، حليف لبني سلمة، مع رسول الله وهو منطلق إلى تبوك. قال: أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم؟ والله لكأنا غدًا مقرنون في الحبال! فاطلع الله تعالى نبيه عليهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون. وقال مخشن بن حمير: يا رسول الله! قعد بي اسمي واسم أبي. فعفا الله عنه بقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾[التوبة:٦٦] قال: وهي الطائفة التي عفا عنها. فسمي عبد الرحمن بن حمير، قال: وسأل الله تعالى أن يقتل شهيدًا لا يعلم مكانه فأصيب

---

(١) سفك الدم: صبه. القاموس المحيط، ٣/٣١٦.

(٢) ازدراء: احتقار. القاموس المحيط، ٤/٣٤١.

(٣) الائتناف: الابتداء. القاموس المحيط، ٣/١٢٢.

(٤) حبط عمله: بطل. القاموس المحيط، ٢/٣٦٦.

(٥) لعله مخشي بن حمير الأشجعي. ذكر ابن حجر في "الإصابة" ج٦، ص ٧١: أن ابن إسحاق ذكره في مغازيه في غزوة تبوك "وفي تفسير ابن الكلبي بسنده إلى ابن عباس وبسند آخر إلى ابن مسعود أنه ممن نزل فيه (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب). قال: فكان من عفي عنه مخشي بن حمير فقال: يا رسول الله غير اسمي واسم أبي. فسماه عبد الله بن عبد الرحمن، فدعا مخشي ربه أن يقتل شهيدًا حيث لا يعلم به فقتل يوم اليمامة ولم يعلم له أثر".

(٦) انظر: كتاب التوابين (ص ٧١).

(٧) الرهط: من ثلاثة أو سبعة إلى عشرة أو ما دون العشرة وما فيهم امرأة. القاموس المحيط، ٢/٣٧٥.

يوم اليمامة ولم يوجد له أثر.

١٥- [توبة كعب بن مالك[١] الصحابي] [٢]

أخبرنا أبو الفتح محمد بن عبد الباقي، أنا أبو الفضل جعفر بن يحيى المكي، أنا محمد ابن الحسين بن يوسف الأصفهاني، أنا محمد بن أحمد بن البغوي، أنا إسحاق بن إبراهيم الدبري، أنا عبد الرزاق عن معمر، عن الزهري قال: أخبرني ابن كعب بن مالك، عن أبيه، قال:

لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك إلا بدار[٣]. ولم يعاتب النبي ﷺ أحدًا تخلف عن غزوة بدر، إنما خرج يريد العير[٤]، فخرجت قريش مغوثين لعيرهم، فالتقوا على غير موعد كما قال الله تعالى. ولعمري إن أشرف مشاهد رسول الله ﷺ في الناس لبدر، وما أحب أني كنت شهدتها مكان بيعتي ليلة العقبة[٥] حيث تواثقنا على الإسلام. ثم لم أتخلف بعد عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها، حتى إذا كانت غزوة تبوك، وهي آخر غزاة غزاها، وآذن النبي ﷺ الناس بالرحيل، وأراد أن يتأهبوا أهبة[٦] غزوهم، وذلك حين طابت الظلال وطابت الثمار، وكان قلما أراد غزوة إلا ورى بغيرها، وكان يقول: "الحرب خدعة" — إلا غزوة تبوك —، فإنه جلي[٧] للناس أمرهم. فأراد النبي ﷺ في غزوة تبوك أن يتأهب الناس أهبته. وأنا أيسر ما كنت، قد جمعت

---

(١) هو كعب بن مالك بن عمرو بن القين، الأنصاري السملي الخزرجي. صحابي، من أكابر الشعراء، اشتهر في الجاهلية، وكان في الإسلام من شعراء النبي صلى الله عليه وسلم وشهد أكثر الوقائع. كان من أنصار عثمان وأصحابه، ولما قتل عثمان قعد عن نصرة علي فلم يشهد حروبه. وعمي في آخر عمره له ٨٠ حديثًا توفي سنة ٥٠هـ. الأعلام، ٥/٢٢٨.

(٢)انظر: كتاب التوابين (ص٧٢).

(٣) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجار وهو ساحل البحر ليلة. وبها كانت الوقعة التي أظهر الله بها الإسلام في شهر رمضان سنة ٢هـ. معجم البلدان، ٢/٨٨ - ٨٩.

(٤) العير: القافلة، أو الإبل تحمل الميرة، أو كل ما امتير عليه إبلا كانت أو حميرًا أو بغالاً. القاموس المحيط، ٢/١٠١.

(٥) العقبة التي بويع النبي ﷺ هي بين منى ومكة بينها وبين مكة نحو ميلين، وعندها مسجد ومنها ترمى جمرة العقبة. معجم البلدان، ٦/١٩٢.

(٦) الأهبة: العدة. القاموس المحيط، ١/٣٩.

(٧) جلا الأمر: كشف عنه القاموس المحيط، ٤/ ٣١٤.

راحلتين، وأنا أقدر شيء في نفسي على الجهاد وخفة الحاذ[١]، وأنا في ذلك أصغى إلى الظلال وطيب الثمار. فلم أزل كذلك حتى قام رسول الله ﷺ غاديًا بالغداة، وذلك يوم الخميس، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس فأصبح غاديًا. فقلت: أنطلق غدًا إلى السوق فأشتري جهازي ثم ألحق بهم، فانطلقت إلى السوق من الغد، فعسر علي بعض شأني أيضًا. فقلت: أرجع غدًا إن شاء الله فألحق بهم، فعسر علي بعض شأني أيضًا. فقلت: أرجع غدًا إن شاء الله، فلم أزل كذلك حتى ألبس بي الذنب، وتخلفت عن رسول الله ﷺ، فجعلت أمشي في الأسواق وأطوف بالمدينة، فيحزنني أني لا أرى أحدًا تخلف إلا رجلاً مغموصًا[٢] عليه في النفاق، وكان ليس أحد تخلف إلا رأى أن ذلك سيخفى له، وكان الناس كثيرًا لا يجمعهم ديوان، وكان جميع من تخلف عن النبي ﷺ بضعة[٣] وثمانين رجلاً. ولم يذكرني النبي ﷺ حتى بلغ تبوكًا قال: ما فعل كعب بن مالك؟ قال رجل من قومي: خلفه يا رسول الله، براده[٤] والنظر في عطفيه[٥]! فقال معاذ بن جبل[٦]: بئس ما قلت! والله يا نبي الله ما علمنا عليه إلا خيرًا. قال: فبينما هم كذلك إذا هم برجل يزول[٧] به السراب[٨]. فقال النبي ﷺ: كن أبا خيثمة! فإذا هو أبو خيثمة. فلما قضى النبي ﷺ غزوة تبوك وقفل[٩] ودنا من المدينة جعلت أتذكر بماذا أخرج به من سخط[١٠] النبي ﷺ، وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، حتى إذا قيل: النبي ﷺ هو مصبحكم غدًا بالغداة ـــ زاح عني

---

(١) خفيف الحاذ: قليل المال والعيال. القاموس المحيط، ١/ ٣٦٦.

(٢) المغموص عليه: المطعون في دينه. القاموس المحيط، ٣٢٢/٢.

(٣) البضع: هو ما بين الثلاث إلى التسع أو إلى الخمس أو ما بين الواحد إلى الأربعة، أو من أربع إلى تسع أو هو سبع. القاموس المحيط، ٥/٣.

(٤) البرد: ثوب مخطط. القاموس المحيط، ٢٨٦/١.

(٥) ينظر في عطفيه: معجب. القاموس المحيط، ٣/ ١٨٢.

(٦) هو معاذ بن جبل بن عمرو أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن. صحابي جليل، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام. وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم. كان من أحسن الناس وجهًا ومن أسمحهم كفًا. ومن كلام عمر، ينوه بعلمه: "لولا معاذ لهلك عمر". له ١٥٧ حديثًا. توفي سنة ١٨هـ. الأعلام، ٢٥٨/٧.

(٧) الزوال: الذي يتحرك في مشيته كثيرًا وما يقطعه من المسافة قليل. القاموس المحيط، ٤٠٢/٣.

(٨) السراب: ما تراه نصف النهار كأنه ماء. القاموس المحيط، ٨٤/١.

(٩) قفل: رجع. القاموس المحيط، ٤٠/٤.

(١٠) السخط: ضد الرضا. القاموس المحيط، ٣٧٦/٢.

الباطل وعرفت أني لا أنجو إلا بالصدق. فدخل النبي ﷺ ضحى، فصلى في المسجد. وكان إذا جــاء من سفر فعل ذلك: دخل المسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس، فجعل يأتيه من تخلف، فيحلفون له ويعتذرون إليه، فيستغفر لهم ويقبل علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله عــز وجــل. فدخلت المسجد، فإذا هو جالس. فلما رآني تبسم تبسم المغضب، فجئت فجلست بين يديه. فقال: "ألم تكن ابتعت ظهرك"[١]؟ فقلت: بلى، يا نبي الله! قال: "فما خلفك؟" فقلت: والله لو بين يدي أحد من الناس غيرك جلست لخرجت من سخطه علي بعذر، ولقد أوتيت جدلاً ولكن قد علمت يا نبي الله أني أخبرتك اليوم بقول تجد علي فيه وهــو حق فإني أرجو فيه عقبى الله، وإن حدثتك اليوم حديثًا ترضى عني فيه وهو كذب أوشــك الله أن يطلعك علي، والله يا نبي الله ما كنت قط أيسر ولا أخف حاذًا مني حين تخلفــت عنك. قال: "أما هذا فقد صدقكم الحديث، فقم حتى يقضي الله فيك". فقمت، فثار على إثرى أناس من قومي يؤنبونني. فقالوا: والله ما نعلمك أذنبت ذنبًا قط قبل هذا، فهــلا اعتذرت إلى نبي الله ﷺ بعذر يرضى عنك فيه! وكان استغفار رسول الله ﷺ سيأتي من وراء ذنبك، ولم تقف نفسك موقفًا لا تدري ماذا يقضي لك فيه. فلم يزالوا يؤنبوني حــتى همــت أن أرجع فأكذب نفسي. فقلت: هل قال هذا القول أحد غيري؟ قالوا: نعم قالــه هلال بن أمية[٢]، ومرارة بن ربيعة[٣]. فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدرًا، لي فيهما أســوة[٤]. فقلت: والله لا أرجع إليه في هذا أبدًا ولا أكذب نفسي. قال: ونهى النبي الله ﷺ الناس عن كلامنا أيها الثلاثة، قل: فجعلت أخرج إلى السوق فلا يكلمني أحد. وتنكر[٥] لنا

---

(١) الظهر: الإبل التي تركب. لسان العرب مادة (ظهر).

(٢) هــو الهلال بن أمية بن عامر بن قيس بن كعب بن واقف الأنصاري. شهد بدرًا وما بعدها. وهو أحــد الثلاثة الذين تيب عليهم. وأخرج ابن شاهين من طريق عطاء بن عجلان عن مكحول عن عكرمة بن هلال بن أمية أنه أتى عمر فذكر قصة اللعان مطولة. وهذا لو ثبت لدل على أن هلال ابن أمية عاش إلى خلافة معاوية. ابن حجر، الإصابة ٢٨٩/٦.

(٣) الصــواب مــرارة بــن الربيع، وهو مرارة بن الربيع الأنصاري الأوسي من بني عمرو بن عوف. ويقال: إن أصله من قضاعة حالف بني عمرو بن عوف. صحابي مشهور شهد بدرًا على الصحيح وهــو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم... وفي حديث جابر عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُــواْ﴾ [الــتوبة: ١١٨] قال: هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وكلهم من الأنصار. ابن حجر، الإصابة ٧٦/٦.

(٤) الأسوة: القدوة وما يأتسى به الحزين. القاموس المحيط، ٣٠١/٤.

(٥) تناكر: تجاهل. القاموس المحيط، ١٥٣/٢.

الـــناس حتى ما هم بالذين نعرف، وتنكرت لنا الحيطان حتى ما هي بالحيطان التي نعرف. وتنكـــرت لـــنا الأرض حتى ما هي بالأرض التي نعرف. وكنت أقوى أصحابي، فكنت أخرج وأطوف في السوق وآتي المسجد، فأدخل وآتي النبي ﷺ، فأسلم عليهم عليه، فأقول: عـــلّ حـــرك شفتيه بالسلام؟ إذا قمت أصلي إلى السارية[١] فأقبلت قبل صلاتي نظر إليّ بمؤخـــر عينيه، وإذا نظرت إليه أعرض[٢] عني. قال: واستكان[٣] صاحباي فجعلا يبكيان اللـــيل والنهار ولا يطلعان رءوسهما. فبينما أنا أطوف في السوق إذا رجل نصراني جاء بطعام له يبيعه. يقول: من يدلني على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إلي. فأتاني بصـــحيفة مـــن ملـــك غســـان[٤] فإذا فيها: أما بعد، فإنه بلغني أن صاحبك قد جفاك وأقصـــاك[٥]، ولســـت بدار مضيعة ولا هوان[٦]، فالحق بنا نواسك[٧]. قال: فقلت: هذا أيضًـــا مـــن البلاء والشر. فأسجرت[٨] لها التنور وأحرقتها، فلما مضت أربعون ليلة إذا رســـول من النبي ﷺ قد أتاني. فقال: اعتزل امرأتك. فقلت: أطلقها؟ قال: لا، ولكن لا تقربها، وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك. فجاءت امرأة هلال بن أمية، فقالت: يا رسول الله! إن هـــلال بـــن أمـــية شيخ كبير ضعيف، فهل تأذن لي أن أخدمه؟ قال: نعم، ولكن لا يقربنك! قالت: يا نبي الله والله ما به من حركة لشيء، ما زال مكتئبًا يبكي الليل والنهار منذ كان من أمره ما كان.

قال كعب: فلما طال عليّ البلاء اقتحمت على أبي قتادة[٩] حائطه -وهو ابن عمي-

---

(١) السارية ج. سوار: الأسطوانة. القاموس المحيط، ٣٤٣٤.

(٢) أعرض عنه: صد. القاموس المحيط، ٢/ج٣٤٨.

(٣) استكن: استتر. القاموس المحيط، ٢٦٦/٤.

(٤) لعلـــه جبلة بن الأيهم بن جبلة الغساني، من آل جفنة. آخر ملوك الغساسنة في بادية الشام. عاش زمـــنًا في الجاهلية، وقاتل المسلمين في دومة الجندل، وحضر وقعة اليرموك على مقدمة عرب الشام في جيش الروم، فانهزموا، ثم أسلم وعاد فارتد. توفي سنة ٢٠ هـــ. الأعلام، ١١١/٢ ـــ١١٢.

(٥) أقصاه: أبعده. القاموس المحيط، ٤/ ٣٨٠.

(٦) الهوان: الذل. القاموس المحيط، ٢٨٠/٤.

(٧) واساه: عزاه. القاموس المحيط، ٣٠١/٤.

(٨) سجر التنور: أحماه. القاموس المحيط، ٤٦/٢.

(٩) هو الحارث (أو النعمان، أبو عمرو) بن ربعي الأنصاري الخزرجي السلمي، أبو قتادة. صحابي من الأبطال الولاة اشتهر بكنيته، وكان يقال له "فارس رسول الله". وفي حديث أخرجه مسلم: "خير فرساننا أبو قتادة". شهد صفين مع علي. مات بالمدينة سنة ٥٤هـــ. الأعلام، ١٥٤/٢.

فسلمت عليه فلم يرد علي. فقلت: أنشدك[1] الله، يا أبا قتادة! أتعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت. ثم قلت أيضًا: يا أبا قتادة! أتعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت. ثم قلت: أنشدك الله، يا أبا قتادة! أتعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: فلم أملك نفسي أن بكيت. ثم اقتحمت الحائط خارجًا، حتى إذا مضت خمسون ليلة من حين نهى النبي ﷺ الناس عن كلامنا صليت على ظهر بيت لنا صلاة الفجر. ثم جلست وأنا في المنزلة التي قال الله عز وجل: قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت[2]، إذ سمعت نداء من ذروة سلع[3]: أبشر يا كعب بن مالك! فخررت ساجدًا، وعرفت أن الله تعالى قد جاء بالفرج. ثم جاء رجل يركض على فرس يبشرني، فكان الصوت أسرع من فرسه فلما جاءني الذي سمعت صوته أعطيته ثوبي بشارة ولبست ثوبين آخرين. قال: وكانت توبتنا نزلت على النبي ﷺ ثلث الليل، فقالت أم سلمة[4]: يا نبي الله! ألا نبشر كعب بن مالك؟ قال: إذن يحطمكم الناس ويمنعونكم النوم سائر الليلة.

قال: وكانت أم سلمة محسنة في شأني تحزن بأمري. فانطلقت إلى النبي ﷺ، فإذا هو جالس في المسجد، وحوله المسلمون، وهو يستنير كاستنارة القمر، وكان إذا سر استنار، فجئت فجلست بين يديه، فقال: "أبشر، يا كعب بن مالك بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك!" قال: قلت: يا نبي الله أمن عند الله، أم من عندك؟ قال: بل من عند الله. ثم تلا عليهم: ﴿**لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار**﴾ حتى بلغ: ﴿**إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[التوبة: الآيتان ١١٧، ١١٨] قال: وفينا نزلت: ﴿**اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾[التوبة: ١١٩] قال: فقلت: يا نبي الله! إن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا،

---

(١) أنشدك بالله: سألتك بالله. القاموس المحيط، ١/٣٥٤.

(٢) هي الآية ١١٨ في سورة التوبة: (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت).

(٣) سلع ج. السلوع: شقوق في الجبل. وسلع جبل بسوق المدينة. قال الأزهري: سلع موضع بقرب المدينة. معجم البلدان ٥/١٠٧.

(٤) هي هند بنت سهيل المعروف بأبي أمية (ويقال اسمه حذيفة، ويعرف بزاد الراكب) ابن المغيرة، القرشية المخزومية، أم سلمة. من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها في السنة الرابعة للهجرة. وكانت من أكمل النساء عقلاً وخلقًا. وهي قديمة الإسلام. كان لها "يوم الحديبية" رأي أشارت به على النبي صلى الله عليه وسلم دل على وفور عقلها. وبلغ ما روته من الحديث ٣٧٨ حديثًا. توفيت بالمدينة سنة ٦٢هـ. الأعلام ٨/٩٧ ـــ ٩٨.

وأن أنخلع[(١)]من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله. فقال: "أمسك بعض مالك فهو خير لك". فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر[(٢)]. قال: فما أنعم الله علي نعمة بعد الإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ حين صدقته أنا وصاحباي أن لا نكون كذبناه فهلكنا كما هلكوا، وإني لأرجو أن لا يكون ابتلى الله أحدًا في الصدق مثل الذي ابتلاني، ما تعمدت الكذب بعد، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي[(٣)].

١٦- [توبة أبي لبابة الصحابي][(٤)]

قال الزهري[(٥)]: وكان أبو لبابة[(٦)] ممن تخلف عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، فربط نفسه بسارية، ثم قال: والله لا أحل نفسي منها ولا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أموت أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعامًا ولا شرابًا حتى كاد يخر[(٧)] مغشيًا عليه، ثم

---

(١) الخلع: النزع. القاموس المحيط، ١٩/٣.

(٢) خيبر: ناحية على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام، وخيبر بلسان اليهود هي الحصن. وقد فتحها النبي ﷺ سنة ٩هـ، وقيل: سنة ٨هـ. معجم البلدان، ٤٩٥/٣.

(٣) روى قصة توبة كعب بن مالك كاملة مسلم في كتاب التوبة حديث رقم (٢٧٦٩). ورواه البخاري متفرق في: كتاب الوصايا حديث رقم (٢٧٥٧)، وفي كتاب الجهاد حديث رقم (٢٩٤٧، ٢٩٤٨، ٢٩٤٩، ٢٩٥٠) وحديث رقم (٣٠٨٨)، وفي كتاب المناقب حديث رقم (٣٥٥٧)، وفي كتاب مناقب الأنصار حديث رقم (٣٨٨٩)، وفي كتاب المغازي حديث رقم (٣٩٥١)، وحديث رقم (٤٦٧٦)، وحديث رقم (٤٦٧٧)، وحديث رقم (٤٦٧٨)، وفي كتاب الاستئذان حديث رقم (٦٢٥٥)، وفي كتاب الأيمان والنذور حديث رقم (٦٦٩٠)، وفي كتاب الأحكام حديث رقم (٧٢٢٥).

(٤) انظر: كتاب التوابين (ص٧٨).

(٥) هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، من بني زهرة بن كلاب، من قريش، أبو بكر. أو من دون الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء. تابعي من أهل المدينة. كان يحفظ ٢٢٠٠ حديثًا نصفها مسند. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون احدًا أعلم بالسنة الماضية منه. توفي سنة ١٢٤ هـ. الأعلام، ٩٧/٧.

(٦) هو أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصاري. مختلف في اسمه. كان أحد النقباء ليلة العقبة. قال ابن إسحاق: زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم رد أبا لبابة والحارث بن حاطب بعد أن خرجا معه إلى بدر فأمر أبا لبابة على المدينة وضرب لهما بسهمهما وأجرهما مع أصحاب بدر. يقال: مات في خلافة علي ويقال: بعد مقتل عثمان. ويقال: عاش إلى بعد الخمسين. ابن حجر، الإصابة ٧/ ١٦٥.

(٧) الخر: السقوط. القاموس المحيط، ١٩/٢.

تـــاب الله علـــيه، فقيل له: قد تيب عليك، فقال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هـــو الذي يحلني بيده. قال: فجاء النبي ﷺ فحله بيده. ثم قال أبو لبابة: يا رسول الله! إن مـــن توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله.

قال: "يجزئك الثلث، يا أبا لبابة".

أخبرنا أبو صالح سعد الله بن نجا بن الوادي، أنا القاضي أبو بكر محمد بن عبد الباقي، أنا أبو محمد الجوهري، أنا أبو عمر بن حيويه، أنا عبد الوهاب بن أبي حية، عن محمد بن شجاع البجلي، أنا محمد بن عمر الواقدي قال: فحدثني ربيعة بن الحارث عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن السائب بن أبي لبابة، عن أبيه قال:

لمـــا أرسلت قريظة إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يرسلني إليهم ــ حين اشتد عليهم الحصـــر ــ دعـــاني رسول الله ﷺ، فقال: اذهب إلى حلفائك فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس. قال: فدخلت عليهم وقد اشتد عليهم الحصار. فهشوا[1] إلي وقالوا: يا أبا لبابة! نحـــن مواليك[2] دون الناس كلهم. فقام كعب بن أسد بن أسد[3]، فقال: أبا بشير! قد عـــرفت ما صنعنا في أمرك وأمر قومك يوم الحدائق ويوم بعاث وكل حرب كنتم فيها، وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا، ومحمد يأبى أن يفارق حصننا حتى نتزل على حكمه، فلو زال عـــنا لحقنا بأرض الشام أو خيبر و لم نكثر عليه جمعًا أبدًا، فما ترى فإنا قد اخترناك على غيرك، إن محمدًا قد أبى إلا أن ننزل على حكمه. قال: نعم، فانزلوا. وأومأ إلى حلقه: فهو الذبح. قال: فندمت فاسترجعت. فقال كعب: ما لك يا أبا لبابة؟ فقلت: خنت الله ورسوله. فنزلت وإن لحيتي لمبتلة بالدموع والناس ينتظرون رجوعي إليهم، حتى أخذت من وراء الحصـــن طـــريقًا آخر حتى أتيت المسجد فارتبطت. وبلغ رسول الله ﷺ ذهابي وما صنعت، فقال: "دعوه حتى يحدث الله فيه ما يشاء، لو كان جاءني استغفرت له، فأما إذ لم يأتني وذهب فدعوه".

قـــال: فحدثني معمر عن الزهري: قال: وارتبط أبو لبابة سبعًا في حر شديد لا يأكل

(١) الهشاشة والهشاش: الارتياح والخفة والنشاط. القاموس المحيط، ٢/٣٠٥.

(٢) الولي: المحب والصديق والنصير. القاموس المحيط، ٤/٤٠٤.

(٣) هـــو كعب بن أسد بن سعيد القرظي، من بني قريظة. شاعر جاهلي. له مناقضات مع "قيس بن الخطيم" في "يوم بعاث". الأعلام، ٥/٢٢٥.

ولا يشــرب. وقــال: لا أزال هكذا حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله علي. قال: فلم يزل كذلك حتى يسمع الصوت من الجهد، ورسول الله ﷺ ينظر إليه بكرة وعشية، ثم تاب الله عليه، فنودي: إن الله قد تاب عليك. وأرسل رسول الله ﷺ إليه ليطلق عنه رباطه، فأبى أن يطلقه عنه أحد غير رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ.

قــال الزهري: فحدثتني هند بنت الحارث عن أم سلمة زوج النبي ﷺ، قالت: رأيت رسول الله ﷺ يحل رباطه، وإن رسول الله ﷺ ليرفع صوته يكلمه ويخبره بتوبته، وما يدري كــثيرًا مما يقول له من الجهد والضعف. ولقد كان الرباط حز في ذراعه، وكان (الرباط) من شعر، وكان يداويه بعد ذلك دهرًا.

١٧- [توبة غني من صحابة رسول الله ﷺ][١]

أخبرنا الإمام أبو الحسن المقرئ، أنا أبو طالب اليوسفي، أنا أبو علي التميمي، أنا أبو بكــر القطيعــي، ثــنا عبد الله قال: حدثني أبي، ثنا يزيد، أنا أبو الأشهب قال: حدثني سعيد بن أيمن مولى كعب بن سور، قال:

بينما رسول الله ﷺ يحدث أصحابه، إذ جاء رجل من الفقراء، فجلس إلى جنب رجل مــن الأغنياء. فكأنه قبض من ثيابه عنه، وتغير رسول الله صلى ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: "يا فلان! أخشيت أن يعدو غناك عليه أو أن يعدو فقره عليك؟" قال: يا رسول الله! وشر الغنى؟ قال: "نعم، إن غناك يدعوك إلى النار وإن فقره يدعوه إلى الجنة". قال: فما ينجيني منه؟ قال: " تواسيه منه".

قال: إذن أفعل. فقال الآخر: لا أرب[٢] لي فيه. قال: "فاستغفر لأخيك وادع له".

١٨- [توبة أبي محجن الثقفي[٣] الشاعر الصحابي][٤]

أخبرنا الرئيس العالم الأديب أبو العز محمد بن محمد بن مواهب بن الخراساني قال: أنا

---

(١) انظر: كتاب التوابين (ص٨٣).

(٢) الأرب: الحاجة. القاموس المحيط، ٣٧/١.

(٣) هــو عمــرو بــن حبيب بن عمرو بن عمير بن عوف، أبو محجن الثقفي. أحد الأبطال الشعراء الكــرماء في الجاهلية والإسلام. أسلم سنة ٩هــ. وروى عدة أحاديث. وقصة حبسه وقتاله يوم القادسية مشهورة. توفي بأذربيجان أو بجرجان سنة ٣٠ هــ الأعلام، ٧٦/٥.

(٤) انظر: كتاب التوابين (ص ١٠١).

أبو غالب محمد بن عبد الواحد القزاز، أنا أبو الحسن علي بن عمر البرمكي وأبو الحسين ابـن الـنقور قالا: أنا أبو طاهر محمد بن عبد الرحمن المخلص، أنا أبو بكر أحمد بن عبد الله بـن سـيف، أنا أبو عبيدة السري بن يحيى، أنا شعيب بن إبراهيم، قال: أنا سيف بن عمر التميمي، عن محمد وطلحة وابن مخراق وزياد، قالوا:

لما اشتد القتال بالسواد[١] -يعني في القادسية[٢]- وكان أبو محجن قد حبس وقيد فهو في القصـر، فأتى سلمى بنت حفصة[٣] امرأة سعد[٤]، فقال: يا بنت آل حفصة! هل لك إلى خير؟ قالت: وما ذاك؟ قال: تخلين عني وتعيرينني البلقاء[٥]، فالله علي إن سلمني الله أن أرجـع حـتى أضع رجلي في قيدي، وإن أصبت فما أكثر من أن أفلت. فقالت: ما أنا وذاك؟ فرجع يرسف[٦] في قيوده ويقول:

كفى حزنًا أن تردى الخيل بالقنا ... وأترك مشدودًا علي وثاقـيا

إذا قمت عناني[٧] الحديد وغلقت ... مصاريع[٨]دوني قـد تصم المناديا

---

(١) السـواد: يراد به رستاق العراق وضياعها التي افتتحها المسلمون على عهد عمر بن الخطاب. سمي بـذلك لسـواده بالزروع والنخيل، وهم يسمون الأخضر سوادًا والسواد أخضر، فسموه سوادًا لخضرته بالزروع والأشجار. معجم البلدان، ١٥٩/٥.

(٢) القادسـية: موضـع بينه وبين الكوفة خمسة عشر فرسخًا، وبينه وبين العذيب أربعة أميال. معجم البلدان، ٦/٧.

(٣) هي سلمة بنت حفصة زوجة المثنى بن حارثة الشيباني. أقامت معه إلى أن مات، فتزوجها سعد بن أبي وقـاص، فشـهدت معه المعارك، في القادسية وغيرها. توفيت نحو سنة ٦٠ هـ. الأعلام، ٣/ ١١٤.

(٤) هـو سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري، أبو إسحاق: الصحابي الأمـير، فـاتح العـراق، ومدائن كسرى، وأحد الستة الذين عينهم عمر للخلافة، وأحد العشرة المبشـرين بالجنة. ويقال له (فارس الإسلام) أسلم وهو ابن ١٧ سنة. له في كتب الحديث ٢٧١ حديثًا. توفي في سنة ٦٦ هـ. الأعلام،

(٥) البلقاء: فرس، والمشهور أن البلقاء فرس للأحوص بن جعفر وأخرى لعيزارة. القاموس المحيط، ٣/ ٢٢٢.

(٦) رسف: مشى مشي المقيد. القاموس المحيط، ١٤٨/٣.

(٧) عن الشيء: إذا ظهر أمامك. القاموس المحيط، ٢٥١/٤.

(٨) المصـرعان مـن الأبواب: بابان منصوبان ينضمان جميعًا مدخلهما في الوسط. القاموس المحيط، ٥٢/٣م.

وقد كنت ذا مال كثير وإخوة فقد تركوني واحدًا لا أخا ليـــا

ولله عهد لا أخيس[١] بعـــهده لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا[٢]

فقالت سلمى: إني استخرت الله ورضيت بعهدك. فأطلقته.

فاقتاد الفرس فأخرجها من باب القصر فركبها، ثم دب[٣] عليها حتى إذا كان بحيال الميمـــنة كـــبر، ثم حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصفين. ثم رجع من خلـــف المسلمين إلى الميسرة، فكبر على ميمنة القوم يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه، ثم رجع خلف، المسلمين إلى القلب فبدر[٤] أمام الناس فحمل على القوم يلعب بين الصفين بـــرمحه وســـلاحه. وكان يقصف[٥] الناس ليلتئذ قصفًا منكرًا وتعجب الناس منه وهم لا يعرفونه، ولم يروه من النهار.

فقال بعضهم: أوائل أصحاب هاشم، أو هاشم نفسه. وقال بعضهم: إن كان الخضر يشهد الحروب فنظن صاحب البلقاء الخضر. وقال بعضهم: والله لولا أن الملائكة لا تباشر لقلـــت: ملـــك بيننا. ولا يذكره الناس ولا يأبهون له؛ لأنه بات في محبسه. وجعل سعد يقـــول: والله لولا محبس أبي محجن لقلت: إن هذا أبو محجن وهذه البلقاء. فلما انتصف الليل تحاجز الناس وتراجع المسلمون. وأقبل أبو محجن حتى دخل من حيث خرج، فوضع عن نفسه ودابته وأعاد رجليه في قيديه.

وذكـــر عبد الرازق[٦] قال: وأخبرنا معمر عن أيوب عن ابن سيرين، قال: كان أبو محجـــن الثقفي لا يزال يجلد في الخمر، فلما أكثر عليهم سجنوه وأوثقوه. فلما كان يوم القادسية فكأنه رأى أن المشركين قد أصابوا في المسلمين. فأرسل إلى أم ولد سعد أو امرأة

(١) خاس بالعهد: غدر ونكث. القاموس المحيط، ٢/٢٢٠.

(٢) الحانـــية: الخمـــر والحانة: موضع بيعها. القاموس المحيط، ٤/٢٢٠، والحانوت: دكان الخمار ١/١٥٢.

(٣) دب: مشى على هيئته. القاموس المحيط، ١/٦٧.

(٤) بدر غيره: عاجله. القاموس المحيط، ١/٣٨٣.

(٥) يقصف: يزحم. لسان العرب مادة (قصف).

(٦) هو عبد الرازق بن همام بن نافع الحميري مولاهم، أبو بكر الصنعاني. من حفاظ الحديث الثقات، من أهل صنعاء. كان يحفظ نحوًا من سبعة عشر ألف حديث. له (الجامع الكبير) في الحديث. توفي سنة ٢١١هـــ. الأعلام، ٣/٣٥٣.

سعد: إن أبا محجن يقول لك: إن خليت سبيله وحملته على هذا الفرس، ودفعت إليه سلاحًا ليكونن أول من يرجع إليك إلا أن يقتل.

وأنشأ يقول:

كفى حزنًا أن تلتقي الخيل بالقنا وأترك مشدودًا علي وثاقيا

إذا قمت عناني الحديد وغلقت مصاريع دوني قد تصم المناديا

فحلت عنه قيوده وحمل على فرس كان في الدار وأعطى سلاحًا. ثم خرج يركض حتى لحق بالقوم، فجعل لا يزال يحمل على رجل فيقتله ويدق صلبه. فنظر إليه سعد(١) فجعل يتعجب ويقول: من ذاك الفارس؟

قال: فلم يلبثوا إلا يسيرًا حتى هزمهم الله. ورجع أبو محجن ورد السلاح وجعل رجليه في القيود كما كان. فجاء سعد، فقالت له امرأته: كيف كان قتالكم؟ فجعل يخبرها ويقول: لقينا ولقينا، حتى بعث الله رجلاً على فرس أبلق(٢)، لولا أني تركت أبا محجن في القيود لقلت: إنها بعض شمائل(٣) أبي محجن. فقالت: والله لأبو محجن، كان من أمره كذا وكذا. فقصت عليه قصته.

فدعا به، فحل قيوده وقال: لا نجلدك على الخمر أبدًا. قال أبو محجن: وأنا والله لا أشربها أبدًا، كنت آنف أن أدعها من أجل جلدكم. قال: فلم يشربها بعد ذلك.

وقيل: قال أبو محجن: قد كنت أشربها إذ يقام علي الحد وأطهر منها، فأما إذ بهرجتني(٤)، فوالله لا أشربها أبدًا. وكان أبو محجن أسلم حين أسلمت ثقيف.

وسمع من النبي ﷺ وروى عنه. واسمه مالك، وقيل: عبد الله بن حبيب، وقيل: اسمه كنيته.

١٩- [توبة إبراهيم بن أدهم الصوفي](٥)

أخبرنا محمد، أنا أحمد، ثنا إبراهيم بن عبد الله بن إسحاق، ثنا محمد بن إسحاق

---

(١) أي سعد بن أبي وقاص.

(٢) البلق: سواد وبياض. القاموس المحيط، ٣/٢٢٢.

(٣) الشمال ج. شمائل: الطبع. القاموس المحيط، ٣/٤١٤.

(٤) البهرجة: أن يعدل بالشيء عن الجادة القاصدة إلى غيرها. وقول أبي محجن لابن أبي وقاص بهرجتني أي هدرتني بإسقاط الحد عني. القاموس المحيط، ١/١٨٦.

(٥) انظر: كتاب التوابين (ص ١٢٢).

السراج قال: سمعت إبراهيم بن بشار خادم إبراهيم بن أدهم يقول:

قلت: يا أبا إسحاق[١]! كيف كان أوائل أمرك؟ قال: كان أبي من أهل "بلخ"[٢]، وكان من ملوك خراسان[٣]، وحبب إلينا الصيد، فخرجت فرسي فسمعت نداء من ورائي: ليس لذا خلقت ولا بذا أمرت! فوقفت أنظر يمنة ويسرة، فلم أر أحدًا، فقلت: لعن الله إبليس! ثم حرمت فرسي فأسمع نداء أجهر[٤] من ذلك: يا إبراهيم! ليس لذا خلقت ولا بذا أمرت! فوقفت أنظر يمنة ويسرة، فلا أرى أحدًا، فقلت: لعن الله إبليس! ثم حركت فرسي فأسمع نداء من قربوس[٥] سرجي: يا إبراهيم! ما لذا خلقت ولا بذا أمرت! فوقفت؛ فقلت: أنبهت! أنبهت[٦]! جاءني نذير من رب العالمين، والله لا عصيت الله بعد يومي هذا ما عصمني[٧] ربي. فرجعت إلى أهلي، ثم جئت إلى أحد رعاة أبي، فأخذت منه جبة وكساء، وألقيت ثيابي إليه، ثم أقبلت إلى العراق، أرض ترفعني، وأرض تضعني، حتى وصلت إلى العراق. فعملت بها أيامًا، فلم يصف لي منها -يعني الحلال- فسألت بعض المشايخ، فقال لي: إذا أردت الحلال فعليك ببلاد الشام، فصرت إلى بلاد الشام، فسرت إلى مدينة يقال لها: المنصورة وهي المصيصة[٨]. فعملت بها أيامًا فلم يصف لي شيء من الحلال، فسألت بعض المشايخ. فقالوا لي: إن أردت الحلال الصافي، فعليك بطرسوس[٩]، فإن فيها المباحات والعمل الكثير، فتوجهت إلى طرسوس فعملت بها أيامًا أنظر البساتين وأحصد الحصاد. فبينا أنا قاعد على باب البحر، جاءني رجل فاكتراني[١٠] أنظر له بستانه.

---

(١) أي إبراهيم بن أدهم.

(٢) بلخ: مدينة مشهورة بخرسان، وهي من أجل مدنها وأذكرها وأكثرها خيرًا، وأوسعها غلة. افتتحت في أيام عثمان بن عفان. معجم البلدان، ٢٦٣/٢.

(٣) خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق وآخر حدودها مما يلي الهند، وتشتمل على أمهات البلاد. وقد فتحت أكثرها عنوة وصلحًا. معجم البلدان، ٤٠٧/٣.

(٤) أجهر الكلام: أعلن. القاموس المحيط، ٤٠٩/١.

(٥) القربوس: حنو السرج. القاموس المحيط، ٢٤٨/٢.

(٦) النبه: القيام من النوم، وأنبهته ونبهته فتنبه وانتبه. القاموس المحيط، ٢٩٥/٤.

(٧) عصم: منع ووقى. القاموس المحيط، ١٥٢/٤.

(٨) المصيصة: مدينة على شاطئ جيمان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم. والمصيصة أيضًا قرية من قرى دمشق قرب بيت لهيا. معجم البلدان، ٨٠/٨.

(٩) طرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. معجم البلدان، ٣٩/٦.

(١٠) الكراء: أجرة المستأجر. القاموس المحيط، ٣٨٥/٤.

فمكثت في البستان أيامًا كثيرة، فإذا أنا بخادم قد أقبل ومعه أصحابه. فقعد في مجلسه، ثم صاح: يا ناطور! فقلت: هو ذا أنا. فقال: اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه. فذهبت فأتيته بأكبر رمان، فأخذ الخادم رمانة فكسرها، فوجدها حامضة، فقال: يا ناطور! أنت في بستاننا منذ كذا وكذا، تأكل فاكهتنا وتأكل رماننا، ولا تعرف الحلو من الحامض؟

قال إبراهيم: قلت: والله ما أكلت من فاكهتك شيئًا، ولا أعرف الحلو من الحامض، فأشار الخادم إلى أصحابه، فقال: أما تسمعون كلام هذا؟ أتراك لو أنك إبراهيم بن أدهم ما زاد علي هذا؟ فانصرف، فلما كان من الغد ذكر صفتي في المسجد، فعرفني بعض الناس، فجاء الخادم ومعه عنق[1] من الناس. فلما رأيته قد أقبل مع الناس اختفيت خلف الشجر والناس داخلون، فاختلطت معهم وهم داخلون وأنا خارج هارب. فهذا كان أوائل أمري وخروجي من طرسوس إلى بلاد الرمال.

أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أحمد بن النقور، قال: أنا أبو القاسم علي بن أحمد بن بيان، أنا أبو القاسم بن بشران، أنا أبو بكر محمد بن الحسن الآجري، ثنا أبو الفضل العباس بن يوسف الشكلي قال: ثنا إبراهيم بن زياد المقرئ، ثنا عبد الله بن الفرج، قال: حدثني إبراهيم بن أدهم بابتدائه كيف كان، قال: كنت يومًا في مجلس لي، له منظرة[2] إلى الطريق، فإذا أنا بشيخ عليه أطمار. وكان يومًا حارًّا، فجلس في فيء القصر ليستريح. فقلت للخادم: اخرج إلى هذا الشيخ فأقرئه مني السلام وسله أن يدخل إلينا، فقد أخذ بمجامع قلبي. فخرج إليه، فقام معه، فدخل إلي فسلم، فرددت عليه السلام، واستبشرت بدخوله وأجلسته إلى جنبي، وعرضت عليه الطعام، فأبى أن يأكل. فقلت له: من أين أقبلت؟ فقال: من وراء النهر. فقلت: أين تريد؟ قال: الحج. إن شاء الله تعالى. قال: وكان ذلك في أول يوم من العشر أو الثاني. فقلت: في هذا الوقت؟ فقال: بل يفعل الله ما يشاء. فقلت: الصحبة فقال: إن أحببت ذلك، حتى إذا كان الليل، قال لي: قم، فلبست ما يصلح للسفر، وأخذ بيدي. وخرجنا من (بلخ) فمررنا بقرية لنا. فلقيني رجل من الفلاحين، فأوصيته ببعض ما أحتاج إليه. فقدم إلينا خبزًا وبيضًا، وسألنا أن نأكل،

---

(١) العنق: الجماعة من الناس. القاموس المحيط، ٢٧٨/٣.

(٢) المنظرة: ما نظرت إليه، والمنظرة: المكان. القاموس المحيط، ١٤٩/٢.

فأكلنا، وجاء بماء فشربنا. وقال لي: بسم الله قم، فأخذ بيدي، فجعلنا نسير وأنا أنظر إلى الأرض تجـــذب من تحتنا كأنها الموج. فمررنا بمدينة بعد مدينة، فجعل يقول: هذه مدينة كذا، هذه مدينة كذا، هذه (الكوفة). ثم قال: الموعد هاهنا في مكانك هذا في الوقت من اللـــيل، حـــتى إذا كان الوقت إذا به قد أقبل، فأخذ بيدي وقال: بسم الله. قال: فجعل يقـــول: هـــذا منزل كذا، هذا منزل كذا، وهذه (فيد)[1]، وهذه المدينة[2]، وأنا أنظر إلى الأرض تجـــذب مـــن تحتنا كأنها الموج. فصرنا إلى قبر رسول الله ﷺ، فزرناه. ثم فارقني، وقـــال: المـــوعد في الوقت من الليل في المصلى، حتى إذا كان الوقت خرجت فإذا به في المصـــلى، فأخذ بيدي، ففعل كفعله في الأولى والثانية حتى أتينا مكة من الليل. ففارقني، فقبضـــت علـــيه وقلت: الصحبة. فقال: إني أريد الشام. فقلت: أنا معك. فقال لي: إذا انقضـــى الحج فالموعد هاهنا عند زمزم[3]، حتى إذا انقضى الحج إذا به عند زمزم. فأخذ بـــيدي، فطفنا بالبيت، ثم خرجنا من مكة. ففعل كفعله الأول والثاني والثالث، فإذا نحن ببـــيت المقدس. فلما دخل المسجد، قال لي: عليك السلام! أنا على المقام -إن شاء الله- هاهـــنا. ثم فارقني، فما رأيته بعد ذلك، ولا عرفني اسمه. قال إبراهيم: فرجعت إلى بلدي، فجعلـــت أســـير سير الضعفاء منزلاً بعد منزل حتى رجعت إلى (بلخ)، فكان ذلك أول أمري.

قال الشكلي: حدثنا علي بن سعيد، قال: ثنا إبراهيم بن بشار، قال: ركبنا البحر مع إبـــراهيم بـــن أدهم، فبينا نحن نسير بريح طيبة، وكانت مراكب كثيرة، فعصفت[4] ريح شديدة على المراكب فتقطعت، وإبراهيم ملتف في عباءة مستلق غير مكترث[5]؟ فجلس وهو يقول: لا أفلح من لم يكن استعد لمثل هذا اليوم! ثم حرك شفتيه، وإذا هاتف ينادي من اللجة[6]: تخافون وفيكم إبراهيم بن أدهم؟ أيها الريح والبحر الهائج، اسكنا بإذن الله! فسكن البحر وذهبت الريح حتى صار البحر كأنه دف - يعني لوح خشب.

---

(١) فيد: بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة. معجم البلدان، ٤٠٨/٦.
(٢) المدينة: أي المدينة المنورة.
(٣) زمزم: البئر المباركة المشهورة.
(٤) عصفت الريح: اشتدت. القاموس المحيط، ١٨١/٣.
(٥) غير مكترث: غير مبال. القاموس المحيط، ١٧٩/١.
(٦) اللج: معظم الماء. القاموس المحيط، ١/ ٢١٢.

٢٠- [توبة شقيق البلخي[1] الصوفي][2]

أخـــبرنا أبو الفتح بن عبد الباقي، قال: ثنا أبو الفضل الحداد، أنا أبو نعيم الحافظ، ثنا أبـــو بكر محمد بن أحمد البغدادي، ثنا عباس بن أحمد الشاشي، ثنا أبو عقيل الرصافي، ثنا أحمد بن عبد الله الزاهد، قال: قال علي بن محمد بن شقيق:

كان لجدي ثلثمائة قرية، ولم يكن له يوم مات كفن يكفن فيه، قدمه كله بين يديه قال: وكان خرج إلى بلاد الترك لتجارة ـــ وهو حدث[3] ـــ إلى قوم يقال لهم: الخلوخية يعبدون الأصنام. فدخل إلى بيت أصنامهم، وعالمهم قد حلق رأسه ولحيته ولبس ثيابًا حمرًا أرجوانـــية، فقال له شقيق: إن هذا الذي أنت فيه باطل، ولهؤلاء ولك ولهذا الخلق خالق صانع ليس كمثله شيء، له الدنيا والآخرة، قادر على كل شيء، رازق كل شيء. فقال لـــه الخادم: ليس يوافق قولك فعلك. فقال له شقيق: كيف ذلك؟ قال: زعمت أن لك خالقًـــا قادرًا على كل شيء، وقد تعنيت[4] إلى هاهنا لطلب الرزق، ولو كان كما تقول كان الذي يرزقك هاهنا ثم فتربح العناء.

قال شقيق: فكان سبب زهدي كلام التركي. فرجع فتصدق بجميع ما ملك وطلب العلم.

٢١- [توبة عبد الله بن مرزوق وجاريته][5]

وروى أبـــو سعيد بإسناد له أن عبد الله بن مرزوق كان مع المهدي في دنيا واسعة. فشـــرب ذات يوم على لهو وسماع، فلم يصل الظهر والعصر والمغرب، وفي كل ذلك تنبه جارية حظية[6] عنده، فلما جاز وقت العشاء جاءت الجارية بجمرة فوضعتها على رجله،

---

(١) هـــو شـــقيق بن إبراهيم بن علي الأزدي البلخي، أبو علي. زاهد صوفي، من مشاهير المشايخ في خراســـان، ولعلـــه أول مـــن تكلم في علوم الأحوال (الصوفية) بكور خراسان. وكان من كبار المجاهدين. استشهد في غزوة كولان (بما وراء النهر) سنة ١٩٤هـ. الأعلام، ٣/١٧١.

(٢) انظر: كتاب التوابين (ص١٢٦).

(٣) وهو حدث: أي شاب. مختار الصحاح مادة (حدث).

(٤) تعنيت: تجشمت عناء أو تعبًا. القاموس المحيط، ٤/٣٧٠.

(٥) انظر: كتاب التوابين (ص١٢٧).

(٦) الحظة: المكانة. القاموس المحيط/ ٤/٣١٩.

فانزعج وقال: ما هذا؟ قالت: جمرة من نار الدنيا، فكيف تصنع بنار الآخرة؟ فبكى بكاء شديدًا، ثم قام إلى الصلاة.

ووقـــع في نفسه مما قالت الجارية، فلم ير شيئًا ينجيه إلا مفارقة ما هو فيه من ماله. فأعـــتق جواريه، وتحلل من معامليه، وتصدق بما بقي، حتى صار يبيع البقل، وتبعته على ذلك الجارية. فدخل عليه سفيان بن عيينة[1] وفضيل بن عياض[2] فوجدا تحت رأسه لبنة ولـــيس تحته شيء. فقال له سفيان: إنه لم يدع أحد لله شيئًا إلا عوضه الله منه بدلاً، فما عوضك مما تركت له؟ قال: الرضى بما أنا فيه.

٢٢- [توبة جعفر بن حرب][3]

وذكـــر أبـــو القاســـم التنوخي عن أبيه: أن جعفر بن حرب[4] كان يتقلد[5] كبار الأعمال للسلطان. وكانت نعمته تقارب نعمة الوزارة في غاية الوفور[6]، ومنزلته بحالها في الجلالة. فسمع رجلاً يقرأ: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ**﴾[الحديد: ١٦]. فصاح: اللهم بلى! فكررها دفعات، وبكى.

ثم نزل عن دابته ونزع ثيابه، ودخل إلى دجلة واستتر بالماء. ولم يخرج منه حتى فرق جمـــيع ماله في المظالم التي كانت عليه وردها وتصدق بالباقي. فاجتاز رجل فرآه في الماء قائمًـــا -وسمـــع بخبره- فوهب له قميصًا ومئزرًا، فاستتر بهما وخرج. وانقطع إلى العلم والعبادة حتى مات.

---

(١) هـــو ســـفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد. محدث الحرم المكي. من الموالي. ولد بالكوفة. كان حافظًا ثقة، واسع العلم كبير القدر. قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز. وكان أعور. توفي بمكة سنة ١٩٨ هـــ. الأعلام، ٣/١٠٥.

(٢) هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي، أبو علي. شيخ الحرم المكي. من أكابر العباد الصـــلحاء. كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق منهم الإمام الشافعي، توفي بمكة سنة ١٨٧ هـــ. الأعلام، ٥/١٥٣.

(٣) انظر: كتاب التوابين (ص١٢٨).

(٤) هو جعفر بن حرب الهمداني. من أئمة المعتزلة من أهل بغداد. أخذ الكلام عن أبي الهذيل العلاف بالبصـــرة. صـــنف كتبًا. قال الخطيب البغدادي إنها (معروفة عند المتكلمين) وكان له اختصاص بالواثق العباسي. توفي سنة ٢٣٦هـــ. الأعلام، ٢/ ١٢٣.

(٥) قلدتها قلادة: جعلتها في عنقها ومنه تقليد الولاة والأعمال. القاموس المحيط، ١/٣٤٢.

(٦) الوفر: الغنى، ومن المال والمتاع: الكثير الواسع أو العام من كل شيء. القاموس المحيط، ٢/١٦١.

٢٣ ـ [توبة مالك بن دينار الصوفي][1]

وروي عن مالك بن دينار أنه سئل عن سبب توبته، فقال: كنت شرطيًا، وكنت منهمكًا على شرب الخمر. ثم إنني اشتريت جارية نفيسة؛ ووقعت مني أحسن موقع، فولدت لي بنتًا. فشغفت بها؛ فلما دبت على الأرض ازدادت في قلبي حبًا، وألفتني وألفتها. قال: فكنت إذا وضعت المسكر بين يدي جاءت إلي وجاذبتني عليه وهرقته من ثوبي، فلما تم لها سنتان ماتت؛ فأكمدني[2] حزنها.

فلما كانت ليلة النصف من شعبان، وكانت ليلة الجمعة، بت ثملا من الخمر؛ ولم أصل فيها عشاء الآخرة. فرأيت فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت، ونفخ في الصور، وبعثرت القبور، وحشرت الخلائق، وأنا معهم. فسمعت حسًا من ورائي، فالتفت، فإذا أنا بتنين أعظم ما يكون أسود أزرق قد فتح فاه مسرعًا نحوي. فمررت بين يديه هاربًا فزعًا مرعوبًا. فمررت في طريقي بشيخ نقي الثوب طيب الرائحة؛ فسلمت عليه فرد السلام فقلت: أيها الشيخ! أجرني من هذا التنين أجارك الله، فبكى الشيخ، وقال لي: أنا ضعيف وهذا أقوى مني، وما أقدر عليه؛ ولكن مر وأسرع فلعل الله أن يتيح لك ما ينجيك منه. فوليت هاربًا على وجهي، فصعدت على شرف من شرف القيامة، فأشرفت على طبقات النيران، فنظرت إلى هولها، وكدت أهوي فيها من فزع التنين، فصاح بي صائح: ارجع فلست من أهلها! فاطمأننت إلى قوله ورعت، ورجع التنين في طلبي. فأتيت الشيخ فقلت: يا شيخ! سألتك أن تجيرني[3] من هذا التنين فلم تفعل. فبكى الشيخ، وقال: أنا ضعيف ولكن سر إلى هذا الجبل، فإن فيه ودائع المسلمين، فإن كان لك فيه وديعة فستنصرك. قال: فنظرت إلى جبل مستدير من فضة، وفيه كوى[4] مخرمة[5] وستور[6] معلقة، على كل خوخة[7] وكوة مصراعان من الذهب الأحمر، مفصلة باليواقيت مكوكبة بالدر، على كل

(١) انظر: كتاب التوابين (ص ١٥٦).
(٢) الكمد: الحزن الشديد ومرض القلب. القاموس المحيط، ٣٤٦/١.
(٣) أجار: أنقذ وأعاذ. القاموس المحيط، ١/ ٤٠٩.
(٤) الكوى: الخروق في الحائط. القاموس المحيط، ٣٨٦/٤.
(٥) مخرمة: مشققة. القاموس المحيط، ١٠٥/٤.
(٦) الستارة: ما يستر به. القاموس المحيط، ٤٦/٢.
(٧) الخوخة: كوة تؤدي إلى البيت ومخترق ما بين كل دارين ما عليه باب. القاموس المحيط، ١/ ٢٦٧ - ٢٦٨.

مصراع ستر من الحرير. فلما نظرت إلى الجبل وليت إليه هاربًا والتنين من ورائي؛ حتى إذا قربت منه صاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور وافتحوا المصاريع وأشرفوا! فلعل لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوه. فإذا الستور فد رفعت والمصاريع قد فتحت، فأشرف علي من تلك المخرمات أطفال بوجوه كالأقمار. وقرب التنين مني، فتحيرت في أمري. فصاح بعض الأطفال: ويحكم! اشرفوا كلكم فقد رب منه عدوه. فأشرفوا فوجًا بعد فوج، وإذا أنا بابنتي التي ماتت قد أشرفت علي معهم. فلما رأتني بكت. وقالت: أبي والله! ثم وثبت في كفة من نور كرمية السهم حتى مثلت بين يدي. فمدت يدها الشمال إلى يدي اليمنى فتعلقت بها، ومدت يدها اليمنى إلى التنين فولى هاربًا.

ثم أجلستني وقعدت في حجري وضربت بيدها اليمنى إلى لحيتي، وقالت: يا أبت ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾[الحديد: ١٦] فبكيت وقلت: فأخبريني عن التنين الذي أراد أن يهلكني. قالت: ذلك عملك السوء قويته فأراد أن يغرقك في نار جهنم. قلت: فأخبريني عن الشيخ الذي مررت به في طريقي. قالت يا أبت! ذلك عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء. قلت: يا بنية! وما تصنعون في هذا الجبل؟ قالت: نحن أطفال المسلمين قد أسكنا فيه إلى أن تقوم الساعة ننتظركم تقدمون علينا فنشفع لكم.

قال مالك: فانتبهت فزعًا، وأصبحت فأرقْت المسكر، وكسرت الآنية، وتبت إلى الله عز وجل. وهذا كان سبب توبتي.

٢٤- [توبة داود الطائي الزاهد][1]

أخبرنا عبد الله بن عبد الرحمن السلمي، أنبأ أبو القاسم الحسيني، أنبأ رشأ بن نظيف المقرئ، أنا الحسن بن إسماعيل، أنبأ أحمد بن مروان، ثنا محمد بن حاتم البغدادي، قال: سمعت الحماني يقول:

كان بدء توبة داود الطائي[2] أنه دخل المقبرة فسمع امرأة عند قبر وهي تقول:

---

(١) انظر: كتاب التوابين (ص ١٥٨).

(٢) هو داود بن نصير الطائي، أبو سليمان. من أئمة المتصوفين. وكان في أيام المهدي العباسي. أصله من خراسان، ومولاه بالكوفة. رحل إلى بغداد، فأخذ عن أبي حنيفة وغيره، وعاد إلى الكوفة، فاعتزل الناس ولزم العبادة إلى أن مات فيها. قال أحد معاصريه: لو كان داود في الأمم الماضية لقص الله تعالى شيئًا من خبره. توفي سنة ١٦٥ هـ. الأعلام، ٢/٣٣٥.

مقيم إلى أن يبعث الله خلقه لقاؤك لا يرجى وأنت قريب
تزيد بلى في كل يوم وليلة وتسلى[١] كما تبلى وأنت حبيب

وقال أبو نعيم:[٢] قدم داود من السواد ولا يفقه؛ فلم يزل يتعلم ويتعبد حتى ساد أهل الكوفة. وقال يوسف بن أسباط[٣]: ورث داود عشرين دينارًا، فأكلها في عشرين سنة. قال أبو نعيم: كان داود يشرب الفتيت[٤] ولا يأكل الخبز. وقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية. ودخل إليه يومًا رجل، فقال: إن في سقف بيتك جذعًا قد انكسر. فقال: يا ابن أخي! إني في هذا البيت منذ عشرين سنة، ما نظرت إلى السقف. وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام.

٢٥- [توبة الفضيل بن عياض[٥] التميمي][٦]

أنبأنا الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، أنا عبد الرحمن بن أبي غالب، أنا أحمد بن علي قال: أخبرني الحسن بن علي بن محمد الواعظ، ثنا محمد بن العباس، قال: أنبأ علي بن الحسين بن حرب، ثنا إبراهيم بن الليث النخشبي، ثنا علي بن خشرم قال: أخبرني رجل من جيران الفضيل بن عياض، قال:

كان الفضيل يقطع الطريق وحده. فخرج ذات ليلة ليقطع الطريق، فإذا هو بقافلة قد انتهت إليه ليلاً، فقال بعضهم لبعض: اعدلوا بنا إلى هذه القرية فإن أمامنا رجلاً يقطع الطريق يقال له: الفضيل. قال: فسمع الفضيل، فأرعد[٧]، فقال: يا قوم! أنا الفضيل،

---

(١) تسلى: تنسى. القاموس المحيط، ٤/ ٣٤٦.

(٢) هو أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، أبو نعيم. حافظ، مؤرخ، من الثقات في الحفظ والرواية. مات في أصبهان سنة ٤٣٠ هـ. الأعلام، ١/١٥٧.

(٣) هو يوسف بن أسباط بن واصل الشيباني الكوفي. قال ابن حبان في الثقات: كان من عباد أهل الشام وقرائهم. سكن أنطاكية وكان لا يأكل إلا الحلال فإن لم يجد استف التراب. وكان من خيار أهل زمانه، مستقيم الحديث ربما أخطأ. توفي سنة ١٩٥ هـ. تهذيب التهذيب، ١١/٤٠٧ـ ٤٠٨.

(٤) الفتفتة: أن تشرب الإبل دون الري. القاموس المحيط، ١/١٥٩. والفتيت والفتوت الشيء المفتوت وقد غلب على ما فت من الخبز. لسان العرب مادة (فتت).

(٥) سبقت ترجمته.

(٦) انظر: كتاب التوابين (ص١٥٩).

(٧) أرعد: أخذته رعدة. القاموس المحيط، ١/٣٠٥.

جوزوا، والله لأجتهدن أن لا أعصي الله أبدًا! فرجع عما كان عليه.

وروى من طريق أخرى أنه أضافهم تلك لليلة؛ وقال: أنتم آمنون من الفضيل وخرج يرتاد[١] لهم علفًا؛ ثم رجع فسمع قارئًا يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾[الحديد: ١٦] قال: بلى والله قد آن. فكان هذا مبتدأ توبته.

وقال إبراهيم بن الأشعث، سمعت فضيلاً ليلة وهو يقرأ سورة محمد ﷺ ويبكي ويردد هذه الآية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] وجعل يقول: ونبلو أخباركم! ويردد ويقول: وتبلو أخبارنا! إن بلوت أخبارنا فضحتنا وهتكت أستارنا! إن بلوت أخبارنا أهلكتنا وعذبتنا!

وسمعته يقول: تزينت للناس وتصنعت لهم وتهيأت لهم، ولم تزل ترائي حتى عرفوك فقالوا: رجل صالح! فقضوا لك الحوائج، ووسعوا لك في المجلس، وعظموك، خيبة لك؛ ما أسوأ حالك إن كان هذا شأنك!

وسمعته يقول: إن قدرت أن لا تعرف فافعل؛ وما عليك أن لا تعرف، وما عليك إن لم يثن[٢] عليك، وما عليك أن تكون مذمومًا عند الناس إذا كنت عند الله محمودًا.

٢٦- [توبة بشر بن الحارث الحافي الصوفي][٣]

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، أنا حمد بن أحمد قال: سمع عبد الله بن محمد بن جعفر يقول: سمعت عبد الله بن محمد يقول: سمعت محمد بن الدينوري يقول: سمعت بشر بن الحارث[٤]، وسئل: ما كان بدء أمرك، لأن اسمك بين الناس كأنه اسم نبي؟ قال: هذا من فضل الله، وما أقول لكم؟ كنت رجلاً عيارًا[٥] صاحب عصبية[٦]، فجزت يومًا، فإذا أنا

---

(١) الرود: الطلب. القاموس المحيط، ١/ ٣٠٧.

(٢) من الثناء: وصف بمدح. القاموس المحيط، ٤/٣١١.

(٣) انظر: كتاب التوابين (ص١٦١).

(٤) هو بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن المروزي، أبو نصر، المعروف بالحافي. من كبار الصالحين. وهو من ثقات رجال الحديث من أهل مرو. توفي ببغداد سنة ٢٢٧ هـ. الأعلام، ٢/ ٥٤.

(٥) العيار: الكثير المجيء والذهاب والذكي الكثير التطواف. القاموس المحيط، ٢/١٠١.

(٦) العصبية: أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين. لسان العرب مادة (عصب).

بقرطاس في الطريق، فرفعته فإذا فيه: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[الفاتحة: ١] فمسحته وجعلته في جيبي. وكان عندي درهمان ما كنت أملك غيرهما. فذهبت إلى العطارين فاشتريت بهما غالية[١]. ومسحته في القرطاس. فنمت تلك الليلة؛ فرأيت في المنام كأن قاتلاً يقول: يا بشر بن الحارث! رفعت اسمنا عن الطريق وطيبته. لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة! ثم كان ما كان.

وحكي أن بشرًا كان في زمن لهوه في داره، وعنده رفقاؤه يشربون ويطيبون. فاجتاز بهم رجل من الصالحين، فدق الباب. فخرجت إليه جارية، فقال: صاحب هذه الدار حر أو عبد؟ فقالت: بل حر! فقال: صدقت، لو كان عبدًا لاستعمل أدب العبودية وترك اللهو والطرب. فسمع بشر محاورتهما فسارع إلى الباب حافيًا حاسرًا[٢] وقد ولى الرجل. فقال للجارية: ويحك! من كلمك على الباب؟ فأخبرته بما جرى. فقال: أي ناحية أخذ الرجل؟ فقالت: كذا، فتبعه بشر حتى لحقه؛ فقال له: يا سيدي! أنت الذي وقفت بالباب وخاطبت الجارية؟ قال: نعم. قال: أعد علي الكلام. فأعاده عليه. فمرغ[٣] بشر خديه على الأرض، وقال: بل عبد! عبد! ثم هام على وجهه حافيًا حاسرًا حتى عرف بالحفاء. فقيل له: لم لا تلبس نعلاً؟ قال: لأني ما صالحني مولاي إلا وأنا حافٍ. فلا أزول عن هذه الحالة حتى الممات.

٢٧- [توبة عشرة فتيان وعشرة أحداث][٤]

أنبأنا الشيخ أبو الفرج قال: أنا محمد بن عبد الله بن حبيب، أنا علي بن عبد الله بن أبي صادق، ثنا محمد بن عبد الله بن باكويه، قال: حدثني مفرج بن الحسين الصعيدي قال: حدثتني فاطمة بنت أحمد أخت أبي علي الروذباري، قال:

كان ببغداد عشرة فتيان معهم عشرة أحداث. فوجهوا واحدًا من الأحداث في حاجة لهم؛ فأبطأ، فحردوا[٥] عليه. فجاء وهو يضحك، وبيده بطيخة. فقالوا له: تبطئ وتجيء

---

(١) الغالية: من الطيب، ويقال: إن أول من سماها بذلك سليمان بن عبد الملك. لسان العرب مادة (غلا).

(٢) الحاسر: من لا مغفر له ولا درع أو لا جنة له. القاموس المحيط، ٩/١.

(٣) مرغ: قلب وتلوى. القاموس المحيط، ١١٦/٣.

(٤) انظر: كتاب التوابين (ص١٦٢).

(٥) الحرد: الغضب. مختار الصحاح، مادة (حرد).

وأنت تضحك؟ فقال: جئتكم بأعجوبة؛ وضع بشر يده على هذه البطيخة فاشتريتها بعشرين درهمًا. فأخذ كل واحد منهم يقبلها ويضعها على عينه. فقال واحد منهم: بأي شيء بلغ بشر هذه المرتبة؟ فقالوا: بالتقوى. فقال: هو يشهدكم أنه تائب إلى الله تعالى، فقال القوم كلهم مثله. ويقال: إنهم خرجوا إلى طرسوس فاستشهدوا كلهم -رحمة الله عليهم-.

٢٨- [توبة رجل تصدى لامرأة][١]

أنبأنا الإمام الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي، قال: أنا أبو الحسين بن الطيوري، أنا أبو القاسم عبد العزيز بن أحمد بن الفضل، أنا أبو الحسن علي بن عبد الله ابن الحسن بن جهضم، ثنا علي بن هارون، ثنا محمد بن مخلد قال: حدثني أبو الفتح بن مخرق، قال:

تعلق رجل بامرأة من بنات الشام فتعرض[٢] لها بيده سكين، لا يدنو منه أحد إلا عقره[٣]. وكان الرجل شديد البدن. فبينا الناس كذلك، والمرأة تصيح من يده، إذ مر بشر بن الحارث؛ فدنا منه وحك كتفه بكتف الرجل. فوقع الرجل إلى الأرض، ومضى بشر. فدنوا من الرجل وهو يرشح[٤] عرقًا كثيرًا؛ ومضت المرأة بحالها. فسألوه: ما حالك؟ فقال: ما أدري، ولكن حاكني شيخ، وقال: إن الله ناظر إليك وإلى ما تعمل! فضعفت لقوله قدمي وهبته هيبة شديدة، لا أدري من ذاك الرجل. فقالوا له: ذلك بشر بن الحارث. فقال: واسوءتاه! كيف ينظر إلي بعد اليوم؟ وحم الرجل من يومه، ومات اليوم السابع.

٢٩- [توبة تاجر من تجار بغداد][٥]

أنبأنا محمد، قال: أنا أحمد، قال: أخبرني محمد بن خفيف فيما كتب إلي قال: حدثني عبد الله بن الفضل، حدثني أبو عبد الله القاضي، قال: حدثني أبي، قال:

---

(١) انظر: كتاب التوابين (ص١٦٣).
(٢) تعرض: تصدى. القاموس المحيط، ٣٤٨/٢.
(٣) العقر: الجرح. القاموس المحيط، ٩٦/٢.
(٤) رشح: عرق. القاموس المحيط، ٢٣٠/١.
(٥) انظر: كتاب التوابين (ص١٦٣).

كـــان عندنا ببغداد[١] رجل من التجار صديق لي؛ وكان كثيرًا ما أسمعه يقع[٢] في الصوفية: قال: فرأيته بعد ذلك يصحبهم، وأنفق عليهم جميع ما ملك. قال: فقلت له: ألــيس كــنت تبغضهم؟ قال: فقال لي: ليس الأمر على ما توهمت. فقلت له: كيف؟ قـــال: صليت الجمعة يومًا من الأيام. وخرجت فرأيت بشرًا الحافي يخرج من المسجد مسرعًا. قال: فقلت في نفسي: انظر إلى هذا الرجل الموصوف بالزهد، ليس يستقر في المسجد! قال: فتذكرت حاجتي، فقلت: انظر أين يذهب. قال: فتبعته فرأيته تقدم إلى الخــباز واشترى بدرهم خبز الماء. قال: قلت: انظر إلى هذا الرجل يشتري خبز الماء! قـــال: فــتقدم إلى الشــواء فأعطاه وأخذ سواء؛ فزادني عليه غيظًا. قال: وتقدم إلى الحـــلاوي واشترى فالوذجًا بدرهم. فقلت في نفسي: والله لأنغصن[٣] عليه حتى يجلس ويأكـــل! قـــال: فخرج إلى الصحراء، وأنا أقول: يريد الخضرة والماء. قال: فما زال يمشـــي إلى العصر وأنا خلفه. قال: فدخل قرية، وفي القرية مسجد وفيه مريض. قال: فجلـــس عـــند رأسه وجعل يلقمه. قال: فقمت لأنظر القرية. قال: فبقيت ساعة، ثم رجعـــت فقلت للعليل: أين بشر؟ قال: ذهب إلى بغداد. قال: فقلت: وكم بيني وبين بغـــداد؟ فقال: أربعون فرسخًا. فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون! أيش عملت بنفسي ولـــيس معـــي ما أكتري ولا أقدر على المشي! قال: اجلس حتى يرجع. فجلست إلى الجمعـــة القابلة. قال: فجاء بشر في ذلك الوقت ومعه شيء يأكل المريض. فلما فرغ، قـــال له العليل: يا أبا نصر[٤]! هذا رجل صحبك من بغداد وبقي عندي منذ الجمعة، فـــرده. قال: فنظر إلي كالمغضب، وقال: لم يحبني؟ قال: فقلت: أخطأت. قال لي: قم امش. قال: فمشيت إلى قرب المغرب. قال: فلما قربنا، قال لي: أين محلتك من بغداد؟ قلـــت: في موضع كذا. قال: اذهب ولا تعد. قال: فتبت إلى الله عز وجل وصحبتهم، وأنا على ذلك.

---

(١) بغـــداد: المدينة المشهورة. أو من حصرها وجعلها مدينة الخليفة المنصور العباسي، وهي مدينة كان قـــد اختطها أخوه أبو العباس السفاح قرب الكوفة وشرع في عمارها سنة ١٤٥ هـــ، ونزلها سنة ١٤٩ هـــ. معجم البلدان، ٢/٢٣٢.

(٢) أي يغتابهم. القاموس المحيط، ٣/٩٩.

(٣) نغص عليه: كدره. القاموس المحيط، ٣/٩٩.

(٤) أي بشر الحافي.

٣٠- [توبة عكبر الكردي عن إخافة السبيل وقطع الطريق][1]

قــرأت في (الملتقط) عن بشر بن الحارث الحافي أنه قال: اعترضت عكبر الكردي، فقلت له: أيش كان أصل رجوعك إلى الله تعالى؟ فقال: كنت في بعض الدحال[2] أقطع الطريق، وكان فيها ثلاث نخلات نخلة منهن لا تحمل. وإذا بعصفور يأخذ من حمل النخلة التي تحمل رطبة فيدعها في التي لا تحمل. فلم أزل أعد عليه عشر مرار؛ فخطر بقلبي: قم وانظر! فنهضت، فإذا في رأس النخلة حية عمياء ـــ يعني: وهو يضع الرطبات[3] في فيها.

فبكـــيت، وقلـــت: سيدي! هذه حية قد أمر نبيك بقتلها؛ أعميتها وأقمت لها عصفورًا يقوم لها بالكفايـــة؛ وأنـــا عـــبدك، أقر بأنك واحد، أقمتني لقطع الطريق وإخافة السبيل؟! فوقع في قلبي: يا عكـــبر! بـــابي مفتوح. فكسرت سيفي، ووضعت التراب على رأسي، وصحت: الإقالة الإقالة! فإذا هاتـــف يقـــول: قـــد أقلـــناك! قد أقلناك! فانتبه رفقائي فقالوا: ما لك؟ قد أزعجتنا! فقلت: كنت مهجـــورًا، وقـــد صـــولحت. فقالـــوا: ونحن أيضًا كنا مهجورين، وقد صولحنا فرمينا ثيابنا وأحرمنا كلـــنا. فمـــا زلـــنا كذلك ثلاثة أيام نصيح ونبكي ونحن سكارى حيارى. فوردنا اليوم الثالث على قـــرية؛ وإذا بامـــرأة عمياء جالسة على باب القرية. فقالت: فيكم عكبر الكردي؟ فقال أحدنا: نعم، لـــك حاجـــة؟ قالت: نعم، لي ثلاث ليال أرى النبي ﷺ في النوم، وهو يقول: أعط عكبر الكردي ما خلفه ولدك. فأخرجت لنا ستين شقة. فائتزرنا ببعضها ودخلنا البادية إلى أن أتينا البيت.

٣١- [توبة ذي النون المصري الصوفي][4]

أنـــبأنا الشيخ أبو الفرج، أنا محمد بن عبد الله بن حبيب، أنا علي بن عبد الله بن أبي صادق، ثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن باكويه، قال: سمعت الحسن بن علوية، قال: سمعت يوسف بن الحسين يقول:

لمـــا استأنســـت بذي النون المصري[5] قلت: أيها الشيخ! ما كان بدء شأنك؟ قال:

---

(١) انظر: كتاب التوابين (ص١٦٨).

(٢) الدحل نقب ضيق فمه متسع أسلفه حتى يمشي فيه وربما أنبت السدر. القاموس المحيط، ٣٨٥/٣.

(٣) الرطب: نضيح البسر (التمر). القاموس المحيط، ٧٦/١.

(٤) انظر: كتاب التوابين (ص ١٦٩).

(٥) هو ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري، أبو الفياض، أو أبو الفيض. أحد الزهاد العباد المشهورين، مـــن أهل مصر. نوبي الأصل من الموالي. وهو أول من تكلم بمصر في (ترتيب الأحوال ومقامات أهـــل الولاية)، فاتهمه المتوكل العباسي بالزندقة فاستحضره إليه وسمع كلامه، ثم أطلقه، فعاد إلى مصر وتوفي سنة ٢٤٥ هـــ. الأعلام، ١٠٢/٢.

كنت شابًا صاحب لهو ولعب. ثم تبت وتركت ذلك، وخرجت حاجًا إلى بيت الله الحرام ومعي بضيعة[١] فركبت في المركب مع تجار من مصر، وركب معنا شاب صبيح[٢] كأن وجهه يشرق. فلما توسطنا فقد صاحب المركب كيسًا فيه مال. فأمر بحبس المركب، ففتش من فيه وأتعبهم. فلما وصلوا إلى الشاب ليفتشوه، وثب من المركب وثبة حتى جلس على أمواج البحر، وقام له الموج على مثال سرير، ونحن ننظر إليه من المركب. وقال: يا مولاي! إن هؤلاء اتهموني؛ وإني أقسم يا حبيب قلبي، أن تأمر كل دابة في هذا المكان أن تخرج رأسها وفي أفواهها جوهر.

قال ذو النون: فما تم كلامه حتى رأينا دواب البحر أمام المركب قد أخرجت رءوسها، وفي فم كل واحدة منها جوهرة تتلألأ وتلمع، ثم وثب الشاب من الموج إلى البحر وجعل يتبختر[٣] على متن الماء ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥] حتى غاب عن بصري. فهذا الذي حملني على السياحة. وذكرت قول النبي ﷺ: "لا يزال في هذه الأمة ثلاثون، قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن؛ كلما مات واحد أبدل الله مكانه واحدًا"[٤].

٣٢- [توبة رجل سكران][٥]

قال ابن باكويه: وحدثنا بكران بن أحمد بن أحمد قال: سمعت يوسف بن الحسين[٦] يقول: كنت مع ذي النون المصري على شاطئ غدير[٧] فنظرت إلى عقرب أعظم ما يكون على شط الغدير. فإذا بضفدع قد خرجت من الغدير، فركبتها العقرب فجعلت

---

(١) تصغير بضاعة.

(٢) الصباحة: الجمال، صبح فهو صبيح. القاموس المحيط، ٢٤١/١.

(٣) التبختر: مشية حسنة. القاموس المحيط، ١/ ٣٨٣.

(٤) روى أحمد في مسنده ٣٢٢/٥ عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الأبدال في هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن — عز وجل — كلما مات رجل أبدل الله تبارك وتعالى مكانه رجلاً".

(٥) انظر: كتاب التوابين (ص ١٧١).

(٦) هو يوسف بن الحسين بن علي، أبو يعقوب الرازي. من مشايخ الصوفية، صحب ذا النون المصري وحكى عنه. اتهم بالزندقة. توفي سنة ٣٠٤ هـ، أبو نعيم، حلية الأولياء ٢٣٨/١٠ — ٢٤٣، البغدادي، تاريخ بغداد (ط١) ١٤/ ٣١٤ — ٣١٩.

(٧) الغدير: القطعة من الماء يغادرها السيل. القاموس المحيط، ١٠٣/٢.

الضفدع تسبح حتى عبرت. فقال ذو النون: إن لهذه العقرب لشأنًا، فامض بنا، فجعلنا نقفو أثرها؛ فإذا رجل نائم سكران، وإذا حية قد جاءت فصعدت من ناحية سرته إلى صدره وهي تطلب أذنه، فاستحكمت العقرب من الحية فضربتها، فانقلبت وانفسخت. ورجعت العقرب إلى الغدير، فجاءت الضفدع فركبتها فعبرت، فحرك ذو النون الرجل النائم، ففتح عينيه؛ فقال: يا فتى! انظر مما نجاك الله: هذه العقرب جاءت فقتلت هذه الحية التي أرادتك. ثم أنشأ ذو النون يقول:

يا غافلا والجليل يحرسه ... من كل سوء يدب في الظلم

كيف تنام العيون عن ملك ... تأتيه منه فوائد النعم

فنهض الشاب وقال: إلهي! هذا فعلك بمن عصاك، فكيف رفقك بمن يطيعك؟ ثم ولى؛ فقلت: إلى أين؟ قال: إلى البادية؛ والله لا عدت إلى المدن أبدًا!

٣٣- [توبة أبي الحسن الهرقاني واعتناقه مذهب الإمام أحمد][(١)]

قال الحافظ أبو الفضل: وحدثني الشيخ الصالح أبو الحسن علي بن المختار بن علي الهرقاني، قال: كان لي رفيق يعرف بمحمد بن خنيس، يقرأ على أبي عبد الله القيرواني المتكلم شيئًا من الكلام من كتاب ابن الباقلاني[(٢)]. فوافقته في ذلك. فرأيت في ليلة في منامي كأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام على سطح رباط[(٣)] والشيخ أبي سعد الصوفي وهو جالس وحوله حلقة دائرة. فقلت لبعضهم: ما هذا الجمع؟ فقال لي: هذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه! ما تسلم عليه؟ فجئت ففضضت[(٤)] الحلقة ووقفت تلقاء وجهه، وقلت: السلام عليك يا مولاي أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته! فقال لي: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، ورأيته وهو جالس مواز لرءوس القيام، فبدأني وقال: تريد أن تعتقد؟ قلت: نعم يا مولاي! فقال: عليك باعتقاد أحمد. فقلت: السمع والطاعة. فلما جاءني رفيقي الذي كنت أسمع معه الكلام، ومعه أصحاب

---

(١) انظر: كتاب التوابين (ص ١٧٧).

(٢) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر الباقلاني. قاضي، من كبار علماء الكلام. انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة. كان جيد الاستنباط، سريع الجواب. توفي في بغداد سنة ٤٠٧ هـ. الأعلام، ١٧٦/٦/٦.

(٣) الرباط: المقام في الثغر. القاموس المحيط، ٣٧٤/٢.

(٤) الفض: فك خاتم الكتاب. القاموس المحيط، ٢/ ٣٥٢.

له. قالوا: تعال حتى نمضي إلى أبي عبد الله[1] نقرأ عليه.

قلت: اليوم لي شغل. ثم إني اجتمعت بالشيخ أبي منصور في مسجده، فقصصت عليه هذه الرؤيا؛ فسر بها، وقال: ادن مني. فدنوت منه، فقبل بين عيني وقال: أنت مراد: ودعا بأصحابه وقال: اقصص عليهم الرؤيا، فقصصت عليهم الرؤيا، فقالوا: يجب عليه الشكر، فقال الشيخ: أنا أفديه، والشكر علي، وأخرج ذهبًا فأشتري به خبزًا وتمرًا، ففرق على كل خاتم القرآن رغيفين ورطل تمر، ومن كان يحفظ البعض أعطاه رغيفًا ونصف رطل تمر. قال: وقطعت المضي إلى القيرواني، ثم اعتقدت من يومئذ اعتقاد أحمد بن حنبل وأصحاب الحديث، وأنا أدين الله تعالى به إلى يوم القيامة.

٣٤- [توبة امرأة عن عمل السحر] [2]

قرأت على أبي المعالي عبد الله بن عبد الرحمن السلمي، أخبركم هبة الله بن أحمد بن محمد الأكفاني، قال: أنبأنا أبو الفتح عبد الجبار بن عبد الله بن إبراهيم بن برزة، قال: أنبأنا أبو الحسن علي بن محمد بن عمر الفقيه، قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي حاتم، قال: حدثنا الربيع بن سليمان، ثنا عبد الله بن وهب، ثنا ابن أبي الزناد، حدثني هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة زوج النبي ﷺ، أنها قالت:

قدمت امرأة من (دومة الجندل)[3] تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته، حداثة[4] ذلك، تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر و لم تعمل به. قالت عائشة[5] لعروة[1]: يا ابن

---

(١) أي الإمام أحمد بن حنبل.

(٢) انظر: كتاب التوابين (ص ١٨١).

(٣) دومة الجندل: جاء في حديث الواقدي: دوماء الجندل، وعدها الفقيه من أعمال المدينة وهي على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم. معجم البلدان، ٤/ ١٠٦.

(٤) الحداثة: نقيض القدم؛ وحدثان الأمر: أوله وابتداؤه. القاموس المحيط، ١/١٧٠.

(٥) هي عائشة بنت أبي بكر الصديق عبد الله بن عثمان، أم المؤمنين. أفقه نساء المسلمين، وأعلمهن بالدين والأدب. كانت تكنى بأم عبد الله. تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم في السنة الثانية بعد الهجر، فكانت أحب نسائه إليه وأكثرهن رواية للحديث عنه. لها خطب ومواقف، وما كان يحدث لها أمر إلا أنشدت فيه شعرًا. وكان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض فتجيبهم. وكانت ممن نقم على (عثمان) عمله في حياته، ثم غضبت له بعد مقتله، فكان لها في هودجها، بوقعة الجمل، موقفها المعروف. روي عنها ٢٢١٠ أحاديث. توفيت في المدينة سنة ٥٨ هـ. الأعلام، ٣/٢٤٠.

أخـــتي! فرأيتها تبكي حتى إني لأرحمها؛ تقول: إني أخاف أن أكون قد هلكت، كان لي زوج، فغاب عني، فدخلت علي عجوز فشكوت ذلك إليها، فقالت: إن فعلت ما آمرك به تجعليه يأتيك. فلما أتانا الليل جاءتني بكلبين أسودين، فركبت أحدهما وركبت الآخر، ولم يكن كشيء حتى وقفنا بـــ (بابل)[٢]. فإذا برجلين معلقين بأرجلهما، فقالا: ما جاء بـــك؟ فقلت: أتعلم السحر. فقالا: إنما نحن فتنة[٣]، فلا تكفري وارجعي، فأبيت وقلت: لا. قالا: فاذهبي إلى ذلك التنور[٤] فبولي فيه، فذهبت ففزعت فلم أفعل، فرجعت إليهما. فقـــالا: أفعلت؟ فقلت: نعم. فقالا: هل رأيت شيئًا؟ قلت: لم أر شيئًا، فقالا: لم تفعلي! ارجعـــي إلى بلـــدك ولا تكفري، فأبيت، فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه، ثم إني ذهبت فاقشعر[٥] جلدي وخفت؛ ثم رجعت إليهما، فقلت: قد فعلت. فقالا: ما رأيت؟ فقلت: لم أر شيئًا، فقالا: كذبت، لم تفعلي، فارجعي إلى بلدك ولا تكفري، فإنك على رأس أمـــرك فذهبت فبلت فيه، فرأيت فارسًا متقنعًا بحديد خرج مني فذهب في السماء وغاب عني حتى ما أراه.

وجئتهما فقلت: قد فعلت، فقالا: ما رأيت؟ قلت: رأيت فارسًا متقنعًا بحديد خرج مـــني فـــذهب في السماء حتى ما أراه. فقالا: صدقت! ذلك إيمانك خرج منك؛ اذهبي. فقلـــت للمـــرأة: والله ما أعلم شيئًا، وما قالا لي شيئًا. فقالت: بلى! لن تريدي شيئًا إلا كـــان؛ خـــذي هذا القمح فابذري. فبذرت، فقلت: أطلعي، فأطلعت، فقلت: أحقي، فلحقت، ثم قلت: افركي، ففركت، فقلت: أيبسي، فيبست. ثم قلت: اطحني، فطحنت. ثم قلت: اخبزي فخبزت. فلما رأيت أني لا أريد شيئًا إلا كان، سقط[٦] في يدي وندمت، والله يـــا أم المؤمنين، ما فعلت شيئًا قط ولا أفعله أبدًا، فسألت أصحاب رسول الله ﷺ،

---

(١) هـــو عـــروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي، أبو عبد الله. أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. كان عالمًـــا بالـــدين، صالحًا كريمًا، لم يدخل في شيء في الفتن. وانتقل إلى البصرة، ثم إلى مصر فتزوج وأقـــام بهـــا ســـبع سنين. وهو أخو عبد الله بن الزبير لأبيه وأمه. توفي في المدينة سنة ٩٣ هـــ. الأعلام، ٤/٢٢٦.

(٢) بابل: اسم ناحية منها الكوفة والحلة، ينسب إليها السحر والخمر. معجم البلدان، ٢/١٨.

(٣) الفتنة: الإضلال. القاموس المحيط، ١/٢٥٦.

(٤) التنور: الكانون يخبز فيه. القاموس المحيط، ١/٣٩٥.

(٥) اقشعر جلده: أخذته قشعريرة. القاموس المحيط، ٢/١٢١.

(٦) سقط في يده وأسقط: زل وأخطأ وندم وتحد. القاموس المحيط، ٢/٣٧٨.

حداثة وفاة رسول الله ﷺ، وهم متوافرون، فما دروا ما يقولون لها، وكلهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلمه؛ إلا أنه قد قال لها ابن عباس[١]، أو بعض من كان عنده: لو كان أبواك حيين أو أحدهما! قال ابن أبي الزناد: وكان هشام[٢] يقول: إنهم كانوا أهل ورع وخشية من الله، وبعداء من التكلف والجرأة على الله، ثم يقول هشام: ولو جاءتنا مثلها لوجدت نوكي[٣] أهل حمق وتكلف بغير علم.

٣٥- [توبة شاب كان يبني قصرًا][٤]

أنبأنا الشيخ أبو الفرج قال: ثنا أبو بكر الصوفي، قال: أنبأنا علي بن عبد الله، قال: أنبانا أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن باكويه، قال: ثنا إبراهيم بن محمد الفقيه المالكي، قال: ثنا يوسف بن أحمد الواعظ، قال: ثنا العباس بن محمد المطهري، قال: ثنا الحسن بن أبي مريم العسكري، حدثني جعفر بن سليمان، قال:

مررت أنا[٥] ومالك بن دينار بالبصرة. فبينا نحن ندور فيها مررنا بقصر يعمر. وإذا شاب جالس ما رأيت أحسن وجهًا منه، وإذا هو يأمر ببناء القصر، ويقول: افعلوا، واصنعوا. فقال لي مالك: ما ترى إلى هذا الشاب وإلى حسن وجهه وحرصه[٦] على هذا

---

(١) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس. حبر الأمة، الصحابي الجليل. نشأ في بدء عصر النبوة، فلازم رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى عنه الأحاديث الصحيح. شهد مع علي الجمل وصفين. وكف بصره في آخر عمره. قال ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس. كان آية في الحفظ، أنشده ابن أبي ربيعة قصيدته التي مطلعها: (أمن آل نعم أنت غاد فمكبر) فحفظها في مرة واحد، وهي ثمانون بيتًا، وكان إذا سمع النوادب سد أذنيه بأصابعه، مخافة أن يحفظ أقوالهن. له في الصحيحين وغيرهما ١٦٦٠ حديث. توفي سنة ٦٨ هـ. الأعلام، ٩٥/٤.

(٢) هو هشام بن عروة بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، أبو المنذر. تابعي من أئمة الحديث. من علماء المدينة. زار الكوفة فسمع من أهلها، ودخل بغداد وافدًا على المنصور العباسي، فكان من خاصته. روى نحو ٤٠٠ حديث. توفي في بغداد سنة ١٤٦ هـ. الأعلام، ٨٧/٨.

(٣) أنوك ج. نوكي: أحمق. القاموس المحيط، ٣٣٢/٣.

(٤) انظر: كتاب التوابين (ص١٨٤).

(٥) هو جعفر بن سليمان الضبعي، أبو سليمان البصري، مولى بني الحريش. كان ينزل في بني ضبيعة فنسب إليهم. قال البخاري: يقال إنه أميًا. قال البزار: لم نسمع أحدًا يطعن عليه في الحديث ولا في خطأ فيه، وإنما ذكرت عنه شيعيته وأما حديثه فمستقيم. ذكر ابن سعد أنه توفي سنة ١٧٨. تهذيب، ٩٥/٢ — ٩٨.

(٦) الحرص: الجشع. القاموس المحيط، ٣٠٩/٢.

البناء؟ ما أحوجني إلى أن أسأل ربي أن يخلصه، فلعله يجعله من شباب الجنة! يا جعفر! ادخل بنا إليه. قال جعفر: فدخلنا فسلمنا، فرد السلام و لم يعرف مالكًا. فلما عرفوه إياه قام إليه، فقال: حاجة؟ قال: كم نويت أن تنفق على هذا القصر؟ قال: مائة ألف درهم. قال: ألا تعطيني هذا المال فأضعه في حقه، وأضمن لك على الله تعالى قصرًا خيرًا من هذا القصر، بولدانه وخدمه، وقبابه وخيمه من ياقوتة حمراء، مرصع بالجواهر، ترابه الزعفران، وملاطه[1] المسك؛ أفيح[2] من قصرك هذا، لا يخرب، لا تمسه يدان و لم يبنه بناء، قال له الجليل[3]: كن! فكان؟ قال: أجلني الليلة وبكر علي غدوة. قال جعفر: فبات مالك وهو يفكر في الشاب، فلما كان في وقت السحر دعا وأكثر من الدعاء. فلما أصبحنا غدونا، فإذا بالشاب جالس، فلما عاين مالكًا هش[4] إليه، ثم قال: ما تقول في ما قلت بالأمس؟ قال: تفعل؟ قال: نعم.

فأحضر البدر[5] ودعا بدواة وقرطاس[6]، ثم كتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما ضمن مالك بن دينار لفلان بن فلان: إني ضمنت لك على الله قصرًا بدل قصرك بصفته كما وصفت والزيادة على الله؛ واشتريت له بهذا المال قصرًا في الجنة أفيح من ظل ظليل بقرب العزيز الجليل. ثم طوى الكتاب ودفعه إلى الشاب وحملنا المال. فما أمسى مالك وقد بقي عنده مقدار قوت ليلة. فما أتى على الشاب أربعون ليلة، حتى صلى مالك ذات يوم الغداة، فلما انفتل[7]، فإذا الكتاب في المحراب موضوع، فأخذه مالك فنشره، فإذا في ظهره مكتوب بلا مداد:

هذه براءة من الله العزيز الحكيم لمالك بن دينار: إنا وفينا الشاب القصر الذي ضمنت له وزيادة سبعين ضعفًا. قال: فبقي مالك متعجبًا؛ وأخذ الكتاب، فقمنا فذهبنا إلى منزل الشاب، فأقبلنا، فإذا الباب مسود والبكاء في الدار، فقلنا: ما فعل الشاب؟ قالوا: مات

---

(١) الملاط: الطين يجعل بين سافي البناء ويملط به. القاموس المحيط، ٤٠١/٢.
(٢) أفيح: أوسع. القاموس المحيط، ٢٤٩/١.
(٣) أي الله سبحانه وتعالى.
(٤) هش إليه: ارتاح. القاموس المحيط، ٣٠٥/٢.
(٥) البدر: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار. القاموس المحيط، ٣٨٣/١.
(٦) القرطاس: الكاغد. القاموس المحيط، ٢٤٨/٢ ــ ٢٤٩.
(٧) انفتل: انصرف. القاموس المحيط، ٢٨/٤.

بالأمس. فأحضرنا الغاسل فقلنا: أنت غسلته؟ قال: نعم. قال مالك: فحدثنا كيف صنعت؟ قال: قال لي قبل الموت، إذا أنا مت وكفنتني اجعل هذا الكتاب بين كفني وبدني. فجعلت الكتاب بين كفنه وبدنه، ودفنته معه، فأخرج مالك الكتاب؛ فقال الغاسل: هذا الكتاب بعينه والذي قبضه، لقد جعلته بين كفنه وبدنه بيدي. قال: فكثر البكاء؛ فقام شاب، فقال: يا مالك! خذ مني مائتي ألف درهم واضمن لي مثل هذا، قال: هيهات! كان ما كان، وفات ما فات؛ والله يحكم ما يريد! فكلما ذكر مالك الشاب بكى ودعا له.

٣٦- [توبة جندي يملك قصراً وجارية][١]

قال ابن باكويه: حدثنا عبد الواحد بن بكر، ثنا محمد بن داود الدينوري قال: سمعت أبا إسحاق الهروي يقول: كنت[٢] مع ابن الخيوطي بالبصرة، فأخذ بيدي، وقال: قم حتى نخرج إلى (الأبلة)[٣]. فلما قربنا إلى (الأبلة)، ونحن نمشي على شاطئ (الأبلة) في الليل والقمر طالع، مررنا بقصر لجندي فيه جارية تضرب بالعود؛ وفي جانب القصر في ظل القمر فقير بخرقتين. فسمع الفقير الجارية وهي تقول:

كل يوم تتلون غير هذا بك أجمل

فصاح الفقير وقال: أعيديه! فهذا حالي مع الله تعالى. قال: فنظر صاحب الجارية إلى الفقير، فقال لها: اتركي العود وأقبلي عليه فإنه صوفي. فأخذت تقول، والفقير يقول: هذا حالي مع الله؛ والجارية تردد، إلى أن صاح الفقير صيحة وخر مغشيًا عليه، فحركناه، فإذا هو ميت. فلما سمع صاحب القصر بموته نزل فأدخله إلى القصر، واغتممنا وقلنا: هذا يكفنه من غير وجهه، فصعد الجندي. وكسر كل ما كان بين يديه، فقلنا: ما بعد هذا إلا خير، ومضينا إلى (الأبلة) فبتنا وأعلمنا الناس. فلما أصبحنا رجعنا إلى القصر، وإذا الناس مقبلون من كل وجه إلى الجنازة كأنما نودي في (البصرة)، حتى خرج القضاة

---

(١) انظر: كتاب التوابين (ص ١٨٦).

(٢) هو إبراهيم بن عبد الله بن حاتم الهروي، أبو إسحاق نزيل بغداد. قال أبو الفتح الأزدي: ثقة صدوق إلا أنه رديء المذهب زائغ وما سمعت أحدًا يذكره إلا بخير. توفي سنة ٢٤٤هـ. تهذيب التهذيب، ١/ ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٣) الأبلة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة؛ لأن البصرة قصرت في أيام عمر بن الخطاب. معجم البلدان، ٨٩/١.

والعـــدول[١] وغيرهم. وإذا الجندي يمشي خلف الجنازة حافيًا حاسرًا حتى دفن، فلما هم الناس بالانصراف قال الجندي للقاضي والشهود: اشهدوا أن كل جارية لي حرة لوجه الله تعـــالى، وكل ضياعي وعقاري حنيس في سبيل الله، ولي في صندوق أربعة آلاف دينار، وهـــي في ســـبيل الله. ثم نزع الثوب الذي كان عليه فرمى به وبقي وفر سراويله. فقال القاضـــي: عـــندي مئزران من وجههما، تقبلهما؟ فقال: شأنك، فأخذهما فاتزر بواحد، واتشح بالآخر، وهام على وجهه. فكان بكاء الناس عليه أكثر منه على الميت.

٣٧- [توبة رجل كان يتعاطى الفواحش][٢]

وحكـــي عن مالك بن دينار، قال: كان لي جار يتعاطى الفواحش، فأتى إلي الجيران يشكون منه. فأحضرناه وقلنا له: إن الجيران يشكونك، فسبيلك أن تخرج من المحلة. فقال: أنا في منزلي، لا أخرج. قلنا: تبيع دارك! قال: لا أبيع ملكي. قلنا: نشكوك إلى السلطان. قـــال: أنا من أعوانه. قلنا: ندعو الله عليك. قال: الله أرحم بي منكم. قال: فلما أمسينا قمت وصليت ودعوت عليه، فهتف بي هاتف[٣]: لا تدع عليه فإنه من أولياء الله تعالى، فجـــئت إلى باب داره ودققت الباب، فخرج، فظن أني جئت لأخرجه من المحلة، فتكلم كالمعـــتذر، فقلت: ما جئت لهذا، ولكن رأيت كذا وكذا، فوقع عليه البكاء، وقال: إني تبت بعدما كان هذا، ثم خرج من البلد فلم أره بعد ذلك.

واتفـــق أني خرجت إلى الحج، فرأيت في المسجد الحرام حلقة فتقدمت إليهم، فرأيته مطروحًا عليلاً، فلم ألبث أن قالوا مات الشاب رحمه الله.

٣٨- [توبة فتى في مجلس صالح المري][٤]

أخبرنا أبو طالب المبارك بن علي الصيرفي، أنا أبو غالب شجاع بن فارس الذهلي، أنا أبو بكر الخياط، قال: أنا أحمد بن محمد بن دوست، قال: أنبأنا الحسين بن صفوان، قال: أنبأنا أحمد بن محمد، قال: أنبأنا أبو بكر بن أبي الدنيا قال: وحدثت عن محمد بن الحسين عن يحيى بن راشد، ثنا رجاء بن ميسور المجاشعي، قال:

---

(١) العدول: شهود المشهود لهم بالاستقامة.

(٢) انظر: كتاب التوابين (ص١٨٧).

(٣) هتف: صاح. القاموس المحيط، ٢١٣/٣.

(٤) انظر: كتاب التوابين (ص١٨٨).

كنا في مجلس صالح المري[١]، وهو يتكلم. فقال لفتى بين يديه: اقرأ يا فتى! فقرأ الفتى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]. فقطع صالح عليه القراءة وقال: كيف يكون لظالم حميم أو شفيع، والمطالب له رب العالمين؟ إنك والله لو رأيت الظالمين وأهل المعاصي يساقون في السلاسل والأنكال[٢] إلى الجحيم، حفاة عراة، مسودة وجوههم، مزرقة عيونهم، ذائبة أجسادهم، ينادون: يا ويلنا يا ثبورنا! ماذا نزل بنا؟ ماذا حل بنا؟ أين يذهب بنا؟ ماذا يراد منا؟ والملائكة تسوقهم بمقامع النيران، فمرة يجرون على وجوههم ويسحبون عليها منكبين، ومرة يقادون إليها مقرنين[٣]، من بين باك دمًا بعد انقطاع الدموع، ومن بين صارخ طائر القلب مبهوت[٤] ـ إنك والله لو رأيتهم على ذلك لرأيت منظرًا لا يقوم له بصرك، ولا يثبت له قلبك، ولا تستقر لفظاعة هوله على قرار قدمك! ثم نحب[٥] وصاح: يا سوء منظراه! يا سوء منقلباه! وبكى، وبكى الناس. فقام فتى من الأزدكان، به تأنيث، فقال: أكل هذا في القيامة يا أبا بشر؟ قال: نعم والله يا ابن أخي، وما هو أكثر! لقد بلغني أنهم يصرخون في النار حتى تنقطع أصواتهم، فما يبقى منهم إلا كهيئة الأنين من المدنف[٦]. فصاح الفتى: إنا لله! واغفلتاه عن نفسي أيام الحياة، وا أسفاه على تفريطي[٧] في طاعتك يا سيداه! وا أسفاه على تضييعي عمري في دار الدنيا! ثم بكى، واستقبل القبلة، فقال: اللهم! إني أستقبلك في يومي هذا بتوبة لا يخالطها رياء لغيرك؛ اللهم! فاقبلني على ما كان في، واعف عما تقدم من فعلي، وأقلني عثرتي، وارحمني ومن حضرني، وتفضل علينا بجودك وكرمك؛ يا أرحم الراحمين! لك ألقيت معاقد الآثام من عنقي، وإليك أنبت

---

(١) هو صالح بن بشير بن وادع بن أبي بن أبي الأقعس، أبو بشر البصري القاض المعروف بالمري. قال ابن حبان في الضعفاء: صالح بن المري كان من عباد أهل البصرة وقرائهم، وهو الذي يقال له صالح بن بشير المري الناجي، وكان من أحزن أهل البصرة صوتًا وأرقهم قراءة، غلب عليه الخير والصلاح حتى غفل عن الإتقان في الحفظ، توفي سنة ١٧٢هـ، وقيل: سنة ١٧٦هـ. تهذيب التهذيب، ٣٨٢/٤ ـ ٣٨٣.

(٢) الأنكال: القيود الشديدة. القاموس المحيط، ١/٤.

(٣) القرن: شد الشيء إلى الشيء ووصله إليه وجمع البعيرين في حبل. القاموس المحيط، ٢٦٠/٤.

(٤) البهت: الأخذ بغتة والانقطاع والحيرة. القاموس المحيط، ١٤٩/١.

(٥) النحب: أشد البكاء. القاموس المحيط، ١٣٥/١.

(٦) الدنف: المرض الملازم. القاموس المحيط، ١٤٦/٣.

(٧) التفريط: التقصير. القاموس المحيط، ٣٩١/٢.

بجميع جوارحي صادقًا لذلك قلبي، فالويل لي إن لم تقبلني! ثم غلب فسقط مغشيًا عليه، فحمل من بين القوم صريعًا، فمكث صالح وإخوته يعودونه أيامًا، ثم مات -والحمد لله- فحضره خلق كثير يبكون عليه ويدعون له، فكان صالح كثيرًا ما يذكره في مجلسه فيقول: بأبي قتيل القرآن، وبأبي قتيل المواعظ والأحزان! قال: فرآه رجل في منامه، قال: ما صنعت؟ قال: عمتني بركة مجلس صالح فدخلت في سعة رحمة الله التي وسعت كل شيء.

٣٩- [توبة امرأة في الطواف]

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، قال: أنبأنا علي بن محمد الخطيب الأنباري، قال: أنبأنا أبو الحسين بن بشران، قال: أنبأنا الحسين بن صفوان، قال: أنبأنا ابن أبي الدنيا، ثنا سعيد بن سليمان الواسطيّ، عن محمد بن يزيد بن خُنيسٍ قال: قال وهيب بن الورد:

بينما امرأة في الطواف ذات يوم وهي تقول: يا ربّ! ذهبت اللذات وبقيت التبعات[1]؛ يا ربّ! سبحانك، وعزتك إنك أرحم الراحمين؛ يا ربّ! ما لَك عقوبة إلا النار؛ فقالت صاحبة لها كانت معها: أُخيَّة! دخلتِ بيت ربك اليوم؟ فقالت: والله ما أرى هاتين القدمين أهلاً للطواف حول بيت ربي، فكَيف أراهما أهلاً أطأ بهما بيت ربي، وقد علمت حيث مشَتا وأين مشَتا؟

٤٠- [توبة رجل عما جنت عليه نفسه][*]

أخبرنا أبو الفضل مسعود بن عبيد الله بن النادر، قال: أنا أبو سعيد أحمد بن محمد البغدادي، قال: أنبأنا أبو العباس أحمد بن محمد الظهرانيّ وعبد الوهاب بن منده قالا: أنبأنا أبو محمّد الحسن بن محمد، قال: أنبأنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن عمر البُناني، قال: أنبانا عبد الله بن محمد قال: كتب إليّ أبو عبد الله الباهلي، قال: أنبأنا عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن الحارث قال:

كان رجل كثير البكاء؛ فقيل له في ذلك، فقال: أبكاني تذكري ما جنيت على نفسي حين لم أستحي ممن شاهدني وهو يملك عقوبتي، فأخَّرني إلى يوم العقوبة الدائمة، وأجلني

---

(١) التبعة: ما اتبعت به صاحبك من ظلامه ونحوها، والتبعة ما فيه إثم يتبع به. يقال: ما عليه من الله في هذا تبعة ولا تباعة. لسان العرب مادة (تبع).

(*) انظر: كتاب التوابين (ص ١٩٠).

إلى يوم الحسرة الباقية؛ والله لو خيرت: أيما أحبّ إليك، تحاسَب ثم يأمر بك إلى الجنة، أو يقال لك: كن ترابًا؟ - لاخترت أن أكون ترابًا.

٤١- [توبة ولد لاهٍ على يد والدته][*]

ومن (الملتقط): قال صالح بن عمر: وحدّثني أبي، قال: كان بالمدينة امرأة متعبدة ولها ولـــد يلهو، وهو ملهي أهل المدينة. وكانت تعظُه تقول: يا بُني! اذكر مصارع الغافلين قبلك، وعواقب البطّالين[١] قبلك، اذكر نزول المَوت. فيقول إذا ألحت عليه:

كُفّـــي عن التَّعذَال[٢] واللوم ... واســـتيقظي مـــن سِنةِ النَّوم

إني وَإنْ تابعــــتُ في لـــذّتي ... قلـــبي وعَاصـــيْتُك في لومي

أرجـــو مـــنْ أفضـــالِهِ توبَةً ... تـــنقلُ مـــن قـــومٍ إلى قوْمِ

فلم يزل كذلك حتى قدم أبو عامر البناني واعظ أهل الحجاز، ووافق قدُومه رمضان، فســـأله إخوانه أن يجلس لهم في مسجد رسول الله ﷺ. فأجابهم، وجلس ليلة الجمعة بعد انقضـــاء التراويح، واجتمع الناس، وجاء الفتى فجلس مع القوم، فلم يزل أبو عامر يعظ وينذر ويبشر، إلى أن ماتت القلوب فرقًا، واشتاقت النفوس إلى الجنة، فوقعت الموعظة في قلب الغلام فتغيّر لونه، ثم نهض إلى أمه، فبكى عندها طويلا، ثم قال:

زَمـــــتُ[٣] للـــتَّوْبة أحمـــالي ... ورُحْـــتُ قـــدْ طاوعـــت عـــذّالي

وأُبـــتُ والـــتوبةُ قدْ فتحتْ ... مِـــن كـــلِّ عُضـــو لي أقفَـــالي

لمـــا حَدَا[٤] الحادي بقَلبي إلى ... طاعــــة رَبي فَــــكَّ أغْـــلالي

أجبـــتُهُ لبَّـــيْكَ مـــن مـــوقِظٍ ... نـــبَّهَ بالـــتَّذكارِ أغفـــالي

يـــا أُمَّ هـــل يقـــبَلُني سيدي ... علـــى الـــذي قد كانَ من حالي؟

واســـوْءَتا إن ردَّني خائـــبًا ... ربي و لم يـــــرض بإقـــبالي!

(*) انظر: كتاب التوابين (ص ١٩١).

(١) رجل بطال: ذو باطل. القاموس المحيط، ٣/١٤٦.

(٢) التعذيل: الملامة. القاموس المحيط، ٤/١٤.

(٣) زممت: شددت. القاموس المحيط، ٤/٤٢٧.

(٤) حدا الإبل: زجرها وساقها. القاموس المحيط، ٤/٣١٧.

ثم شمَّـــر في العـــبادة وجدّ، وكان لا يفطر إلا بعد التراويح، ولا ينام إلا بعد طلوع الشـــمس. فقرّبت إليه أمه ليلةً إفطاره، فامتنع وقال: أجد ألم الحمى، فأظنّ أن الأجل قد أزف[١]. ثم فزع[٢] إلى محرابه ولسانُه لا يفتر من الذِّكر. فبقي أربعة أيام على تلك الحال. ثم اســـتقبل القـــبلة يومًا، وقال: إلهي عصيتك قويًّا، وأطعتُك ضعيفًا، وأسخطتك جلدًا، وخدمتك نحيفًا، فليت شعري هل قبلتني؟ ثم سقط مغشيًّا عليه، فانشجّ وجهه، فقامت إليه أمه، فقالت: يا ثمرة فؤادي، وقرّة عيني! رُدّ جوابي. فأفاق فقال: يا أمّاه! هذا اليوم الذي كـــنتِ تحذريني، وهذا الوقت الذي كنت تخوفيني؛ فيا أسفي على الأيام الخوالي! يا أماه! إني خائف على نفسي أن يطول في النار حبسي؛ بالله عليك يا أماه، قومي فضعي رجلك على خدّي حتى أذوق طعم الذُّل لعله يرحمني، ففعلتْ وهو يقول: هذا جزاء من أساء، ثم مات رحمه الله.

قالت أُمّه: فرأيتُه في المنام ليلة الجمعة وكأنه القمر، فقلت: يا ولدي! ما فعل الله بك؟ فقال: خيرًا، رفع درجتي. قلت: فما كنت تقول قبل موتك؟ قال: هتف بي هاتف: أجِب الرحمن! فأجبتُ. قلتُ: فما فعل أبو عامر[٣]؟ فقال: هيهاتَ! أين نحن من أبي عامر؟:

حَـــلَّ أبـــو عَامـــرٍ في قُبَّةٍ ... وَطَّـــدَها[٤] ذُو العرش للناس

بينَ جَوار كالدُّمى خُرَّدٍ[٥] ... يسْـــقينهُ بالكـــاس والطَّـــاس

يقلنَ بالترخيم[٦] خذها فقد ... هُنيـــتهَا يـــا واعـــظَ النَّاس

٤٢-[توبة دينار العيار عند رؤيته الرُّفات][*]

ورُوِي أن رجلاً كان يُعرف بـــ(دينار العيّار)، كانت له والدة تعظه ولا يتعظ، فمرّ في بعض الأيام بمقبرة كثيرة العظام، فأخذ منها عظماً نخراً فانفتّ في يده، ففكر في نفسه،

---

(١) أزف: أسرع. القاموس المحيط، ١٥٣/٣.

(٢) فزع إليه: لجأ. القاموس المحيط، ٦٥/٣.

(٣) هو أبو عامر البُناني واعظ أهل الحجاز.

(٤) وطّد: ثبت وثقّل. القاموس المحيط، ٣٥٨/١.

(٥) الخـــريدة والخـــرود، ج خرد: البكر التي لم تمسس، أو الخفرة الطويلة السكوت الخافضة الصوت المتسترة. القاموس المحيط، ٣٠١/١.

(٦) الرخم: العطف والمحبة واللين. القاموس المحيط، ١١٩/٤.

(*) انظر: كتاب التوّابين(١٩٣).

وقال لنفسه: ويحك! كأني بك غداً قد صار عظمك هكذا رُفاتاً والجسم تراباً، وأنا اليوم أقـدم علـى المعاصي، فندم وعزم على التوبة، ورفع رأسه إلى السماء وقال: إلهي! إليك ألقيتُ مقاليد أمري، فاقبلني وارحمني. ثم مضى نحو أمه متغيرَ اللون، منكسرَ القلب، فقال: يـا أماه! ما يصنع بالعبد الآبق إذا أخذه سيده؟ فقالت: يخشّن ملبسه ومطعمه ويغلّ يده وقدمه. فقال: أريد جبَّة من صوف وأقراصاً من شعير، وتفعلين بي كما يُفعل بالآبق، لعل مولاي يرى ذُلّي فيرحمني. ففعَلتْ ما طلب. فكان إذا جنَّه الليل أخذ في البكاء والعويل، ويقـول لنفسـه: ويحـكَ يا دينار! ألك قوّة على النار؟ كيف تعرّضت لغضب الجبار؟ وكـذلك إلى الصباح، فقالت له أمّه في بعض الليالي: ارفق بنفسك، فقال: دعيني أتعب قلـيلاً لعلي أستريح طويلاً؛ يا أمي! إن لي موقفاً طويلاً بين يدي ربّ جليل، ولا أدري أيُؤمـر بي إلى الظلّ الظليل، أو إلى شر مقيل؛ إني أخاف عناء لا راحة بعده، وتوبيخاً لا عفـو معه، قالت: فاسترح قليلاً، فقال: الراحة أطلب؟ أتضمنين لي الخلاص؟ قال: فمن يضـمنه لي؟ قال: فدعيني وما أنا عليه؛ كأنك يا أماه غداً بالخلائق يُساقون إلى الجنّة وأنا أُسـاق إلى النار! فمرت به في بعض الليالي في قراءته: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُـوا يَعْمَلُـونَ**﴾[الحجر: ٩٢، ٩٣]. ففكر فيها. وبكى وجعل يضرب كالحية حتى خر مغشيًّا، فجاءت أمه إليه ونادته، فلم يجبها، فقالت: قُرَةَ عيني! أين الملتقى؟ فقال: بصوت ضـعيف: إن لم تجديني في عرصة القيامة فاسألي مالكاً[(١)] عني. ثم شهق شهقة مات فيها. فجهـزته وغسلته، وخرجت تنادي: أيها الناس! هلمّوا إلى الصلاة على قتيل النار! فجاء الناس؛ فلم يُرَ أكثر جمعاً ولا أغزر دمعاً من ذلك اليوم.

٤٣-[توبة عابد عن حب جارية له][(*)]

وقـال علي بن الحسين: كان لنا جار من المتعبِّدين قد برز في الاجتهاد، فصلى حتى تـورمت قدماه، وبكى حتى مرضت عيناه، فاجتمع إليه أهله وجيرانه فسألوه أن يتزوّج، فاشـترى جاريـة وكانت تغني وهو لا يعلم، فبينا هو ذات يوم في محرابه يصلي، رفعت الجاريـة صـوتها بالغناء، فطار لبّه[(٢)]، فرام[(٣)] ما كان عليه من العبادة فلم يطق، فأقبلت

---

(١) أي خازن النار.

(*) انظر كتاب التوّابين (١٩٤).

(٢) اللب: العقل. القاموس المحيط، ١/١٣١.

(٣) الروم: الطلب. القاموس المحيط، ٤/١٢٤.

الجارية عليه، فقالت: يا مولاي! لقد أبليت شبابك ورَفَضْت لذات الدنيا أيام حياتك؛ فلو تمتعت بي! فمال إلى قولها واشتغل باللذات عمّا كان فيه من التعبّد. فبلغ ذلك أخاً له كان يوافقه على العبادة؛ فكتب إليه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من الناصح الشفيق، والطبيب الرفيق، إلى من سُلبَ حلاوة الذكر، والتلذذ بالقرآن، والخشوع والأحزان؛ بلغني أنك اشتريت جارية بعتَ بها من الآخرة حظّك؛ فإن كنت بعت الجزيل بالقليل والقرآن بالقيان، فإني محذرك هاذم اللذات ومنغص الشهوات وميتّمَ الأولاد؛ فكأنه قد جاء على غرّة فأبكم[1] منك اللسان، وهدم منك الأركان، وقرّب منك الأكفان، واحتوشك[2] الأهل والجيران؛ وأُحذّرك من الصيحة إذا جَثت[3] الأمم لهوْل ملك جبّار: فاحذر يا أخي ما يحلّ من ملك غضبان. ثم طوى الكتاب وأنفذه إليه. فوافاه الكتاب وهو في مجلس سروره، فغصّ بريقه وأذهله ذلك، فنهض مبادراً من مجلس سروره، وكسر آنيته، وهجر جاريته، وآلى[4] أن لا يطعم الطعام ولا يتوسّد المنام[5].

قال الذي وعظه: فلمّا مات رأيتُه في المنام بعد ثلاث، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: قدمنا على ربّ كريم أباحنا الجنة. وقال:

اللهُ عوضني ذُو العرش جارية ... جوراء تسقيني طوراً وتمْنيني
تقُولُ لي اشربْ بما قدّ كُنْتَ تأمُلُني ... وقرَّ عيْناً مع الولدان والعين
يا مَنْ تخلّى عن الدُّنيا وأزعجهُ ... عن الخطايا وعيدٌ في الطَّواسين[6]

٤٤-[توبة المرأة التي أرادت أن تفتن الربيع بن خُثيم]

أنبأنا محمد بن عبد الباقي، قال: أنبأنا جعفر بن أحمد، قال: أنا أحمد بن عليّ، قال: أنا محمد بن عبد الله الدّقاق، قال: أنا الحسين بن صفوان، قال: أنا عبد الله بن محمد،

---

(١) أبكَم: أخرسَ. القاموس المحيط، ٨٢/٤.
(٢) احتوش القوم على فلان: جعلوه وسطهم. القاموس المحيط، ٢٨١/٢.
(٣) جثا: جلس على ركبتيه أو قام على أطراف أصابعه. القاموس المحيط، ٣١٢/٤.
(٤) ألى: أقسم. القاموس المحيط، ٣٠٢/٤.
(٥) الوساد: المتكأ والمخدّة. القاموس المحيط، ٣٥٨/١.
(٦) الطواسين والحواميم بذوات تضاف إلى واحد فيقال ذوات طسم وذوات حواميم، وهي السور المفتتحة بها: طسّ، وطسّم، وحمّ. القاموس المحيط، ١٠٣/٤، ١٤٥.

حدّثني الحسين بن عبد الرحمن، قال: أنبأنا أبو القاسم محرز الجلاب قال: حدّثني سعدان، قال:

أمر قوم امرأة ذات جمال بارع أن تتعرّض للربيع بن خثيم[١] لعلها تفتنه، وجعلوا لها، إن فعلت ذلك، ألف درهم، فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب، وتطيّبت بأطيب ما قدرت عليه، ثم تعرضت له حين خرج من مسجده. فنظر إليها، فراعه أمرها. فأقبلت عليه سافرة[٢]، فقال لها الربيع: كيف بك لو قد نزلت الحمى بجسمكِ. فغيَّرت ما أرى من لونَك وبهجتك؟ أم كيف بك لو قد نزل بك ملك الموت فقطع منكِ حبل الوتين[٣]؟ أم كيف بك لو سألك منكر ونكير؟ فصرخت صرخةً فسقطت مغشياً عليها، فوالله لقد أفاقت، وبلغت من عبادة ربها ما أنها كانت يومَ ماتت كأنها جِذْع محترق.

٤٥-[توبة جارية كادت أن تعصي مع فتى زاهدٍ][*]

أخبرنا أبو الحسين عبد الحقّ بن عبد الخالق بن أحمد بن عبد القادر بن يوسف، أنا أبو الحسن عليّ بن محمّد بن العلاّف، أنا أبو القاسم عبد الملك بن محمدّ بن بشران الواعظ، ثنا أبو العبّاس أحمد بن إبراهيم بن عليّ الكنديّ، أنا أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل السامريّ، أنا أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، عن أبي كامل، عن إسحق بن إبراهيم، عن رجاء بن عمر النخعيّ، قال:

كان بالكوفة فتى جميلُ الوجه، شديدُ التعبُّد والاجتهاد، وكان أحدَ الزهَّاد، فنزل في جوار قوم من النخع، فنظر إلى جارية منهم جميلة، فهويها وهام بها عقله، ونزل بها مثل الذي نزل به. فأرسل يخطبها من أبيها، فأخبره أبوها أنّها مسماة لابن عمّ لها. واشتدّ عليهما ما يقاسيان من ألم الهوى، فأرسلت إليه الجارية: قد بلغني شدة محبّتك لي، وقد اشتد بلائي بك لذلك، مع وجدي بك. فإن شئت زرتك سهلت لك أن تأتيني إلى منزلي. فقال للرسول: لا واحدة من هاتين الخصلتين؛ ﴿**إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾[الأنعام:١٥]، أخاف ناراً لا يخبو[٤] سعيرها[١] ولا يخمد[٢] لهبها، فلما انصرفَ

(١) انظر: كتاب التوّابين (ص ١٩٧).
(٢) سفرت المرأة: كشفت عن وجهها فهي سافر. القاموس المحيط، ٢/٥٠.
(٣) الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه. القاموس المحيط، ٤/٢٧٦.
(*) انظر: كتاب التوّابين (ص ١٩٩).
(٤) خبت النار: سكنت وطفئت. القاموس المحيط، ٤/٣٢٤.

الرســـول إليها فأبلغها ما قال، قالت: وأراه مع هذا زاهداً يخاف الله تعالى؟! والله ما أحدٌ أحــق بهذا من أحد؛ وإنَّ العِبادَ فيه لَمُشتركونَ. ثم انخلعت من الدنيا، وألقت علائقها[٣] خلف ظهرها، ولبست المسوح، وجعلتْ تتعبد، وهي مع ذلك تذوب وتنحل حبًّا للفتى وأســفاً علــيه، حتى ماتت شوقاً إليه. فكان الفتى يأتي قبرها. فرآها في منامه وكأنّها في أحسن منظر. فقال: كيف أنت، وما لقيت بعدي؟ فقالت:

نعْمَ المَحبَّةُ يا حبيبي حُبكاً حُبٌ يقُودُ إلى خيْرٍ وإحسانِ

فقال على ذلك: إلى ما صرتِ؟ فقالت:

إلى نعيمٍ وعيْشٍ لا زوال له في جَنَّةِ الخلد ملكٌ ليس بالفَاني

فقال لها: اذكريني هناك فإني لست أنساكِ. فقالت: ولا أنا والله أنساكَ، ولقد سألتك ربي، مولاي ومولاك، فأعانني على ذلك بالاجتهاد. ثم ولّتْ مدبرة، فقلت لها: متى أراكَ؟ قالت: ستأتينا عن قريب، فلم يعش الفتى بعد الرؤيا إلا سبع ليالٍ حتى مات، رحمهما الله.

٤٦-[توبة رجل عن اللهو لسماعه آيات من القرآن الكريم][*]

أنــبأنا الشــيخ أبــو الفرج، أنا الحافظ أبو الفضل بن ناصر، أنا محمد بن أبي نصر الحمــيديّ، قال: أنا محمد بن سلامة القضاعيّ، قال: أنا محمد بن أحمد الكاتب، قال: أنا أبــو مســلم، قال: أنا محمد بن الحسين بن دريد، قال: أخبرنا الحسن بن خضر. أخبرني رجل من بغداد عن أبي هاشم المذكِّر، قال:

أردت البصــرة، فجئت إلى سفينة أكتريها، وفيها رجل ومعه جارية، فقال الرجل: لــيس هاهــنا موضع. فسألته الجارية أن يحملني فحملني. فلما سرنا دعا الرجل بالغداء فوُضع، فقال: انزلوا ذلك المسكين يتغدّى فأُنزلتُ على أني مسكين، فلما تغدّينا، قال: يا جاريــة! هاتي شرابك. فشرب وأمرها أن تسقيني، فقلتُ: رحمك الله! إن للضيف حقًّا، فتركني؛ فلما دبّ فيه النبيذ، قال: يا جارية! هاتي العود وهاتي ما عندكِ. فأخذت العود وغنت تقول:

---

(١) السعير: النار ولهبها. القاموس المحيط، ٢/٥٠.

(٢) خمدت النار: سكن لهبها و لم يطفأ جمرها. القاموس المحيط، ١/٣٠٢.

(٣) العلاقة ج. علائق: ما يتبلّغ به من عيش والصداقة والخصومة. القاموس المحيط، ٣/٢٧٦.

(*) انظر: كتاب التوّابين (ص ٢٠٠).

وَكُـــنَّا كغُصْنَي بانة[٢] ليسَ بواحدٌ   يـــزولُ الخُـــلاَّنِ[١] عـــن رأي واحِـــدِ
تـــبدَّلَ بي خـــلاًّ[٤] فخاللتُ غيرَه   وَخَلَّيـــتُهُ[٣] لمـــا أراد تـــباعُدي
فَلـــوْ أن كفّي لم تردْني أبَنْتُها[٥]   ولَـــم يصْـــطَحبْها بعدَ ذلكَ ساعدي
ألا قَـــبحَ الـــرَّحمنُ كلَّ مُمَاذِق[٧]   يَكُونُ أخاً في الخَفضِ[٦] لا في الشدائد

ثم التفت إليّ فقال: أتحسن مثل هذا؟ فقلت: أحسنُ خيراً منه. فقرأتُ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾[التكوير: ١-٣] فجعل يبكي فلما انتهيت إلى قوله: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠] قال الشيخ: يا جارية! اذهبي! فأنـــت حرة لوجه الله تعالى. وألقى ما معه من الشراب في الماء وكسر العود. ثم دنا إليّ فاعتـــنقني وقـــال: أخـــي! أترى الله يقبل توبتي؟ فقلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: ٢٢٢].

قال: فواخيتهُ[٨] بعد ذلك أربعين سنة حتى مات قبلي. فرأيته في المنام، فقلت له: إلام صـــرتَ؟ قال: إلى الجنة، قلت: بم صرت إلى الجنة؟ قال: بقراءتك عليّ: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾[التكوير: ١٠].

٤٧-[توبة نبّاش قبور عن نبشها][*]

أنـــبأنا عبد الرحمن بن علي الإمام، قال: أنا إبراهيم بن دينار الفقيه، أنا إسماعيل بن محمد بن ملة، أنا عبد العزيز بن أحمد، أنا عبد الله بن محمد جعفر بن حيّان، ثنا إبراهيم بن محمد بن الحسين، ثنا هارون بن زياد المصيصيّ، ثنا أبو إسحاق الفزاري، قال:

---

(١) الخلان: الأصدقاء الأخلاء. القاموس المحيط، ٣/٣٨١.
(٢) البانة ج. البان: الشجرة. القاموس المحيط، ٤/٢٠٥.
(٣) خلّي الأمر: تركه. القاموس المحيط، ٤/٣٢٧.
(٤) الخل: الصديق المخلص. القاموس المحيط، ٣/٣٨١.
(٥) بان: فارق وأبان: قطع. القاموس المحيط، ٤/٢٠٦.
(٦) الخفض: الدَعَة. القاموس المحيط، ٢/٣٤١.
(٧) مماذق: غير مخلص. القاموس المحيط، ٣/٢٩١،٢٩٢.
(٨) فواخيته: اتّخذته أو دعوته أخاً. القاموس المحيط، ٤/٣٠٠.
(*) انظر كتاب التوّابين (ص ٢١٠).

كان رجل يكثر الجلوس إلينا ونِصفُ وجهه مغطى، فقلت له: إنك تكثر الجلوس إلينا ونصف وجهك مغطى، أطلعني على هذا؟ فقال: تعطيني الأمان؟ قلت: نعم. قال: كنتُ نباشاً فدُفنت امرأة، فأتيتُ قبرها، فنبشت حتى وصلت إلى اللَّبن. ثم رفعتُ اللَّبِن، فضربت بيدي إلى الرِّداء؛ ثم ضربت بيدي إلى اللفافة فمددتها. فجعلت تمدّها هي؛ فقلت: أتراها تغلبني؟ فجثيت على ركبتي؛ فمددتُ، فرفعتْ يدها فلطمتْني، وكشف وجهه فإذا أثر خمس أصابع في وجهه، فقلت له: ثمّ مَه؟ قال: ثم رددتُ عليها لفافتها وإزارها، ثم رددتُ التراب؛ وعهدتُ على نفسي أن لا أنبش ما عشتُ. قال: فكتبت بذلك إلى الأوزاعي[1]، فكتب إليّ الأوزاعي: ويحك! سله عمن مات من أهل التوحيد ووجهه إلى القبلة، أَحُوِّل وجهه أم ترك وجهه إلى القبلة؟ قال: فجاءني الكتاب؛ فقلت له: أخبرني عمّن مات من أهل الإسلام، أتُرك وجهه على ما كان، أم ماذا؟ فقال: أكثر ذلك حوِّل وجهه عن القبلة، فكتبتُ بذلك إلى الأوزاعي. فكتب إليّ: إنا لله وإنا إليه راجعون! — ثلاث مرات -: أما من حول وجهه عن القبلة فإنه مات على غير السُّنَّة.

٤٨-[توبة أبي إسماعيل النصراني وإسلامه لسماعه آية من القرآن الكريم][*]

أنبأتنا شهدة بنت أحمد بن الفرج الأبريّ قالت: أنا جعفر بن أحمد السرّاج، ثنا جعفر الخلدي، ثنا أحمد بن مسروق، ثنا محمد بن الحسين، ثنا عبد الله بن الفرج العابد، قال:

كان بالموصل رجل نصراني يكنى أبا إسماعيل. قال: فمر ذات ليلة برجل وهو يتهجد[2] على سطحه، وهو يقرأ: ﴿**وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾[آل عمران: ٨٣]. قال: فصرخ أبو إسماعيل صرخة غشي عليه، فلم يزل على حاله تلك حتى أصبح؛ فلما أصبح أسلم، ثم أتى فتحاً الموصلي[3] فاستأذنه في

---

(١) هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي، من قبيلة الأوزاع، أبو عمرو. إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، وأحد الكتّاب المترسلين. ولد في بعلبك، ونشأ في البقاع، سكن بيروت وتوفي بها. عُرض عليه القضاء فامتنع. ويقر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عليها كلها. وكانت الفتيا تدور بالأندلس على رأيه إلى زمن الحكم بن هشام. توفي سنة ١٥٧هـ.

(*) انظر: كتاب التوّابين (ص ٢٢٠).

(٢) التهجد: الصلاة ليلاً. القاموس المحيط، ١/٣٦٠.

(٣) انظر أخباره في: حلية الأولياء، ٨/٢٩٢-٢٩٤؛ وقد أدرك فتح الموصلي المحدّث عيسى بن يونس(ت ١٨٧ هـ) وأسند عنه.

صـــحبته، فكـــان يصـــحبه ويخدمـــه. قال: فبكى أبو إسماعيل حتى ذهبت إحدى عينيه وعشـــي[(١)] مـــن الأخرى. فقلت له يوماً: حدِّثني ببعض أمر (فتح) قال: فبكى، ثم قال: أخبرك عنه، كان والله كهيئة الروحانيين، معلّق القلب بما هناك، ليست له في الدنيا راحة. قلت: عليّ ذاك. قال: شهدت العيد معه ذات يوم، ورجع بعد ما تفرّق الناس، ورجعت معه. فنظر إلى الدخان يفور من نواحي المدينة، ثم بكى، ثم قال: قد قرَّب الناس قربانهم[(٢)]، فلـــيت شعري ما فعلتَ في قرباني عندك أيها المحبوب، ثم سقط مغشياً عليه. فجئت بماءٍ فمســـحت به وجهه فما أفاق، حتى دخل بعض أزقَّة المدينة، فرفع رأسه إلى السماء، ثم قـــال: قـــد علمـــتَ طول غمي وحزني وترددادي في أزقَّة الدنيا، فحتّى متى تحبسني أيها المحـــبوب؟ ثم سقط مغشيًّا عليه. فجئت بماءٍ فمسحته على وجهه، فأفاق، فما عاش بعد ذلك إلا أياماً حتى مات- رحمه الله.

٤٩-[توبة غلام نصراني وإسلامه][(*)]

أنبأنا الحافظ أبو طاهر السلفي، أنا أبو الحسين بن الطيوريّ، أنا عبد العزيز بن عليّ، أنـــا علـــيّ بن عبد الله الصوفي، ثنا محمد بن داود، قال: حدّثني حامد الأسود صاحب إبراهيم الخواص، قال:

كـــان إبـــراهيم[(٣)]، إذا أراد سفراً، لم يحدِّث به أحداً و لم يذكره؛ وإنما يأخذ ركوته ويمشي. فبينا نحن معه في مسجده تناول ركوته ومشى. فاتبعته، فلم يكلمني، حتى وافينا الكوفة. فأقام بها يومه وليلته، ثم خرج نحو القادسية. فلما وافاها، قال لي: يا حامد! إلى أين؟ قلت: يا سيدي! خرجت بخروجك. قال: أنا أريد مكة إن شاء الله! قلت: وأنا إن شـــاء الله أريد مكَّة، فمشينا يومنا وليلتنا. فلما كان بعد أيام إذا شاب قد انضم إلينا في بعـــض الطريق. فمشى يوماً وليلة لا يسجد لله ﷻ سجدة. فعرَّفت إبراهيم، وقلت: إنّ الغلام لا يصلي. فجلس، وقال له: يا غلام! ما لك لا تصلي، والصلاة أوجب عليك من الحجّ، فقال: يا شيخ! ما عليّ صلاة. قال: ألست برجل مسلم؟ قال: لا. قال: أي شيء

---

(١) العش: سوء البصر بالليل والنهار أو العمى. القاموس المحيط، ٣٦٤/٤.
(٢) القربان: ما يتقرّب به إلى الله تعالى. القاموس المحيط، ١١٨/١.
(*) انظر كتاب التوّابين (ص ٢٢١).
(٣) هـــو إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل، أبو إسحاق الخواص. صوفي، كان أوحد المشايخ في وقته. من أقران الجنيد. ولد في سر من رأى ومات في جامع الري سنة ٢٩١ هـــ. الأعلام، ٢٨/١.

أنـت؟ قـال نصرانيّ، ولكن إشارتي في النصرانية إلى التوكّل؛ وادّعت[1] نفسي أنّها قد أحكمـت حال التوكل فلم أصدّقها فيما ادّعت، حتى أخرجتها إلى هذه الفلاة التي ليس فيها غير المعبود، أثير ساكني وأمتحن خاطري.

فقـام إبراهيم ومشى، وقال: دعهُ يكون معك. فلم يزل يسايرنا إلى أن وافينا (بطن مَرّ)[2] فقام إبراهيم وخلع خُلْقانه وطهّرها بالماء، ثم جلس وقال له: ما اسمك؟ قال: عبد المسيح. فقال: يا عبد المسيح! هذا دهليز[3] مكة، وقد حرّم الله على أمثالك الدخول إليه وقرأ: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾[التوبة: ٢٨] والذي أردتَ أن تستكشف من نفسك فقد بان لك، فاحذر أن تدخل مكّة! فإن رأيناك بمكـة أنكرنا[4] عليك. قال حامد: فتركناه ودخلنا مكّة، وخرجنا إلى الموقف. فبينا نحن جلـوس بعـرفات[5] إذ هو قد أقبل وعليه ثوبان وهو مُحرم، يتصفّح الوجوه حتى وقف علينا، فأكب على إبراهيم يقبّل رأسه. فقال: ما وراءك يا عبد المسيح؟ فقال: هيهاتَ! أنا الـيوم عبدُ مَنِ المسيح عبدُهُ! فقال إبراهيم: حدِّثني حديثك. فقال: جلستُ مكاني حتى أقبلت قافلة الحاج، فقمتُ وتنكّرت في زيّ المسلمين كأني محرم. فساعة وقعت عيني على الكعبة اضمحلّ[6] عندي كل دين سوى الإسلام، فأسلمت واغتسلتُ وأحرمتُ. وها أنا أطلـبك يومي، فالتفت إلينا إبراهيم، وقال: يا حامد! انظر إلى بركة الصدق في النصرانية كيف هداه الله وصحبنا حتّى مات بين الفقراء- رحمه الله.

٥٠-[توبة وثني وإسلامه][*]

وحُكِيَ عن عبد الواحد بن زيد، قال: كنت في مركب، فطرحتنا الريح إلى جزيرة،

---

(١) ادّعت: زعمت. القاموس المحيط، ٣٢٩/٤.

(٢) بطـن مرّ: من نواحي مكة عنده يجتمع وادي النخلتين فيصيران وادياً واحداً. معجم البلدان، ٢/ ٢٢٠،٢٢١.

(٣) الدهليز: ما بين الباب والدار والحنية. القاموس المحيط، ١٨٢/٢.

(٤) أنكَره: جَهِلَه. القاموس المحيط، ١٥٤/٢.

(٥) عرفات: وعرفة واحد عند أكثر أهل العلم. الموضع المعروف والمشهور. قال ابن عباس: حد عرفة مـن الجبل المشرف على بطن عرنة إلى جبالها إلى قصر آل مالك ووادي عرفة. معجم البلدان، ٦/ ١٤٩.

(٦) اضمحل: ذهب وانحلّ. القاموس المحيط، ٥/٤.

(*) انظر: كتاب التوّابين(ص ٢٢٢).

وإذا فيها رجل يعبد صنماً. فقلنا له: يا رجل! مَنْ تعبد؟ فأومأ إلى الصنم. فقلنا: إنّ معنا في المركب من يسوّى مثل هذا، وليس هذا إله يُعبد. قال: فأنتم لمن تعبدون؟ قلنا: الله. قال: وما الله؟ قلنا: الذي في السماء عرشُه، وفي الأرض سلطانه، وفي الأحياء والأموات قضاؤه. فقال: كيف علمتم به؟ قلنا: وجّه إلينا هذا الملك رسولاً كريماً فأخبر بذلك. قال: فما فَعَل الرسول؟ قلنا: أدّى الرسالة ثم قبضه الله. قال: فما ترك عندكم علامة؟ قلنا: بلى، ترك عندنا كتاب الملِك. فقال: أروني كتاب الملِك، فينبغي أن تكون كتب الملوك حساناً.

فأتيناه بالمصحف. فقال: ما أعرف هذا. فقرأنا عليه سورة من القرآن، فلم نزل نقرأ ويبكي حتى ختمنا السورة. فقال: ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يعصى! ثمّ أسلم، وحملناه معنا وعلّمناه شرائع الإسلام وسوراً من القرآن. وكنا حين جَنَّنا[(١)] الليل وصلينا العشاء وأخذنا مضاجعنا، قال لنا: يا قوم! هذا الإله الذي دللتموني عليه، إذا جنّه الليل ينام؟ قلنا: لا، يا عبد الله! هو عظيم قيّوم لا ينام. قال: بئس العبيد أنتم، تنامون ومولاكم لا ينام؟ فأعجبنا كلامه. فلمّا قدمنا (عبّادان)[(٢)] قلت لأصحابي: هذا قريب عهد بالإسلام. فجمعنا له دراهم وأعطيناه. فقال: ما هذا؟ قلنا: تنفقها. فقال: لا إله إلاّ الله! دللتموني على طريق ما سلكتموها؛ أنا كنت في جزائر البحر أعبد صنماً من دونه ولم يضيّعني، يضيّعني وأنا أعرفه؟! فلما كان بعد أيام قيل لي: إنه في الموت. فأتيته، فقلتُ له: هل من حاجة؟ فقال: قضى حوائجي من جاء بكم إلى جزيرتي. قال عبد الواحد: فحملتني عيني، فنمت عنده. فرأيت مقابر (عبّادان) روضة وفيها قبة، وفي القبة سرير عليه جارية لم يرَ أحسن منها. فقالت: سألتك بالله إلا ما عجّلتَ به، فقد اشتدّ شوقي إليه. فانتبهتُ، وإذا به قد فارق الدنيا. فقمت إليه فغسلته وكفّنته وواريته. فلما جنّ الليل نمتُ. فرأيته في القبّة مع الجارية، وهو يقرأ: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[الرعد: ٢٣، ٢٤].

---

(١) جنّنا الليل: سترنا. القاموس المحيط، ٤/٢١٢

(٢) عبّادان: العبّاد الرجل الكثير العبادة، وأما إلحاق الألف والنون فهو لغة مستعملة في البصرة ونواحيها أنهم إذا سموا موضعاً أو نسبوه إلى رجل أو صفة يزيدون في آخره ألفاً ونوناً. وهذا الموضع فيه قوم مقيمون للعبادة والانقطاع وكانوا قديماً في وجه ثغر يسمّى الموضع بذلك، والله أعلم، وهو تحت البصرة قرب البحر الملح. القاموس المحيط، ٦/١٠٥.

٥١-[توبة مجوسي وإسلامه وأهله][(١)]

وقـــرأت في (الملتقط): أن بعض العلويين كان نازلاً (بلخ)[(*)] وله امرأة عَلوية[(٢)] ولها بـــنات قد أصابهن الفقر. ومات الرجل، فخرجت المرأة بالبنات إلى (سمرقند)[(٣)] خوفاً من شماتة الأعداء. فاتفق خروجها في شدّة البرد، فلما دخلوا البلد أدخلتهم مسجداً ومضت تحتال لهم في القوت، فمرّت بجمعين؛ جمع على رجل مسلم وهو شيخ البلد، وجمع على مجوســـي هو ضامن البلد، فبدأت بالمسلم، فشرحت له حالها، وقالت: أريد قوت الليلة، فقـــال: أقيمـــي عندي البيّنة أنك علوية، فقالت: ما في البلد من يعرفني، فأعرض عنها، فمضت إلى المجوسي، فأخبرته بالخبر وحدّثته ما جرى لها مع المسلم، فبعث معها أهل داره إلى المســـجد، فجاءوا بأولادها إلى داره، فألبسهم الحلل الفاخرة. فلما انتصف الليل رأى ذلـــك المسلم في منامه كأنّ القيامة قد قامت، واللواء على رأس محمد ﷺ وإذا قصر من الزمــــرّد الأخضــــر. فقال له: يا رسول الله! لمن هذا القصر؟ فقال: لرجل مسلم موحِّد. فقال: يا رسول الله! فأنا مسلم موحد. فقال: أقِمْ عندي البينة بأنك مسلم موحد، فبقي الرجل متحيراً. فقال له: لّما قصدتكَ العلوية قلتَ لها: أقيمي عندي البينة؛ فهكذا أَنتَ أَقِمْ عـــندي البيـــنة. فانتبه يبكي ويلطم. وخرج يطوف البلد على المرأة حتى عرف أين هي، فأرســـل إلى المجوسيّ فأتاه، فقال له: أين العلوية؟ قال: عندي، قال: أريدها. قال: ما إلى هـــذا مـــن سبيل. قال: خذ مني ألف دينار وسلمهم إليَّ. قال: ما أفعل! قد استضافوني ولحقني من بركاتهم. قال: لا بدّ منهم! قال: الذي تطلبه أنا أحق به، والقصر الذي رأيتَه لي خُلق! أتُدلّ عليّ بإسلامك؟ والله ما نمتُ ولا أهل داري حتى أسلمنا على يد العلوية. ورأيـــتُ مثل منامك الذي رأيتَ؛ وقال لي رسول الله ﷺ: "العلوّية عندك وبناتها"؟ قلتُ: نعـــم. قال: القصر لك ولأهل دارك، وأنت وأهل دارك من أهل الجنة؛ خلقك الله مؤمناً في الأزل.

---

(١) انظر: كتاب التوّابين (ص ٢٢٤).

(*) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان. معجم البلدان، ٢/٢٦٣.

(٢) نسبة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه

(٣) سمرقند: ويقال لها بالعربية سْران. بلد معروف مشهور. قيل إنه من أبنية ذي القرنين بما وراء النهر وهو قصبة الصغد مبنية على جنوبي وادي الصغد مرتفعة عليه. معجم البلدان، ٥/١٢١.

٥٢-[توبة يهودي وإسلامه](*)

ورُوِي عن ختن(١) أبي عمران اللؤلؤي، وكان رجلاً صالحاً يخدم الفقراء وبيته بيت ضيافة، أنه نزل به قوم، فمضى إلى الحاكم يطلب لهم شيئاً، فلم يُعطه، فمضى إلى يهوديّ، فبعث إلى داره ما يحتاج إليه. فلما نام الحاكم رأى كأنه على باب قصر من لؤلؤة حمراء، فهمّ أن يدخله، فمُنع منه، وقيل له: إنّ هذا كان لك فدفع إلى فلان اليهودي، فلمّا أصبح الحاكم مضى إلى ختن أبي عمران، فسأله عن القصة فأخبره، فاستحضر الحاكم اليهوديَّ، وقال: لك قصر في الجنة، تبيعه بعشرة آلاف درهم؟ فقال: لا، فزاده؛ فأبى؛ وسأله عن القصة، فقص عليه الرؤيا، فقال اليهوديّ لختن أبي عمران: اعرضْ عليّ الإسلام! فأسلم.

٥٣-[توبة مجوسي وإسلامه وأولاده ورهطه](*)

وعن أبي حفص النيسابوريّ أنه قال لأصحابه يوماً في وقت الربيع: تعالوا نخرج إلى التنزُّه، فخرجوا؛ فمروا بمحلّة، فإذا شجرة كمثرى(٢) قد أثمرت في دار، فوقف ينظر إليها، فخرج من تلك الدار رجل مجوسيّ شيخ كبير، فقال له: يا مقدَّم الأخيار! هل تكون ضيفاً لمقدَّم الأشرار؟ فدخل أبو حفص مع أصحابه، وكان معهم من قُرَّاء القرآن. فأخرج المجوسي كيساً فيه دراهم، وقال: أعلم أنكم تتنزّهون ممَّا تصل أيدينا إليه من الطعام، فمُر من يشتري لكم من السوق، ففعلوا، فلما أَراد أبو حفص أن يخرج قال له الموجسيّ: لا يمكنك أن تخرج إلا وأنا معك! فأسلم: وأسلم من أولاده ورهطه بضعة عشر نفساً.

٥٤-[توبة مجوسيّ بغدادي وإسلامه وأولاده وأكثر أصحابه](*)

وجدتُ في كتاب (الجوهريّ)، قال: حدّث ابن أبي الدنيا(٣): أن رجلاً نام، فرأى

(*) انظر: كتاب التوّابين (ص ٢٢٥).

(١) الخَتَنُ: الصِهر أو كل من كان قبل المرأة كالأب والأخ. القاموس المحيط، ٤/٢٢٠.

(*) انظر: كتاب التوابين (ص ٢٢٥).

(٢) الكمثرى: من الفواكه. الواحدة كمثراة. مختار الصحاح مادة (كمثر).

(*) انظر: كتاب التوابين(ص ٢٢٦).

(٣) هو عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان، بن أبي الدنيا القرشي الأموي، مولاهم، البغدادي، أبو بكر. حافظ للحديث. أدّب الخليفة المعتضد العباسي في حداثته، ثم أدّب ابنه المكتفي. وكان من الوعاظ العارفين بأساليب الكلام. توفي في بغداد سنة ٢٨١ هـ. الأعلام، ٤/١١٨.

المصطفى ﷺ وهو يقول له: "امض إلى المجوسيّ الذي في بغداد، وقل له: قد أُجيبت الدعوة"، فلما أصبحت قلت: كيف أمضي إلى المجوسيّ؟! فنمتُ الليلة الثانية، فرأيت مثل ذلك. ثمّ رأيت مثل ذلك في الليلة الثالثة. فلما أصبحت تحمَّلت إلى بغداد، وأتيت المجوسيّ، فوجدته في نعمة عريضة ودنيا واسعة، قال: فدخلت إليه وسلّمت عليه وجلست. فقال: ألك حاجة؟ فقلت: نعم. قال: تكلم. قلت: في خلوة. فانصرف الناس وبقي أصحابه، فقلت: وهؤلاء، فصرفهم، وقال: قلْ. قلت: أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ إليك، وهو يقول لك: قد أُجيبت الدعوة. قال: أتعرفني؟ قلت: نعم: قال: فإني أنكر الإسلام، وأنكر رسالة محمد. قلت: كذلك قلت، وهو أرسلني إليك، قال: أرسلك إليّ؟ قلت: نعم. قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله.

ثم دعا أصحابه وقال: قد كنت في ضلال وقد رجعت إلى الحق؛ فمن أسلم فما في يديه له، ومن لم يسلم فلينزع مما لي عنده، فأسلم القوم إلا قليلاً. ثم دعا ابنه، فقال: يا بنيّ! إني كنت في ضلال وقد أسلمت؛ فما أنت صانع؟ قال: يا أبت! أُسلم. فأسلم. ثم دعا ابنته، وقال: يا بنية! قد أسلمتُ وأسلم أخوكِ، فإن أنت أسلمتِ فرّقت بينكما. فقالت: يا أبتِ! والله لقد كنت كارهة لاجتماعي به، وأسلَمتْ. فقالَ لي: أتدري ما الدعوة التي أُجيبت؟ قلت: لا. قال: لمَّا زوجت ابنتي بولدي، وصنعت له طعاماً ودعوتُ الناس كلّهم، فأجابوا لما خولني الله من الدنيا. فلما أكل الناس تعبت؛ فقلت للخادم: افرش لي حصيراً في أعلى الدار أنام شيئاً. فطلعت؛ وكان بجوارنا قوم أشراف فقراء. فسمعت صبيّة وهي تقول لأمها: قد آذانا هذا المجوسيّ برائحة طعامه. قال: فنزلتُ وحملت لهم طعاماً كثيراً، ودنانير كثيرة؛ وكسوة لكل من في الدار. فقالت الواحدة: حشركَ الله مع جدّي! وقال الباقون: آمين! فتلك الدعوة التي أُجيبت.

***

الفصل الثاني

التوبة لشيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية رحمه الله

شيخ الإسلام ابن تيمية

إن العَلَم لا يُعرَّف، والشمس لا يبرهنُ على وجودها؛ وصدق القائلُ:

وليس يصحُ في الأذهان شيءٌ إذا احتاج النهار إلى دليل

الإمـــام القدوة: شيخ الإسلام، مفتي الأنام، بطل الإصلاح أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحرانيّ (ت ٧٢٨ هـ) كتبت في سيرته العطرة المجلدات، لذا لا أظن أني بحاجـة- أنـا والقارئ- إلى إبراز ترجمة تفصيلية لهذا الإمام العلم، فقد شرّق ذكرُه في الآفـاق وغـرّب، ولكـن أرى أن ألمح إلى نقاط هامة في ترجمته، مثل أهم كتبه، وأبرز تلاميذه، وأشرس خصومه.

وفي هذا قدر كاف لمن أراد الوقوف على عظم قدر هذا الإمام.

ولقـد قـام باحث فاضل هو الشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني بدراسة قيِّمة بعنوان (أوراق مجمـوعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية) وهو جهد يذكر فيشكر في حصر ما وصل إليه علمه ممن ترجم لشيخ الإسلام في القديم وفي الحديث من ص ١٨٨-٢١١.

ولقد وفّق -جزاه الله خيراً- في ذلك توفيقاً كبيراً؛ لذا أجد أن من التكرار المُملّ ذكر ذلـك وسرده، بل الإحالة لمن سبق أجدر بالذكر من التكرار الممل ومن أحيل على ملأ فليحتل.

ولـد شيخ الإسلام -رحمه الله- سنة ٦٦١هـ في أُسرة علمية موفقة، فهو عالم ابن عالم والده الشيخ عبد الحليم بن عبد السلام الفقيه الحنبلي، وجده عبد السلام بن عبد الله مجد الدين أبو البركات صاحب كتاب المنتقى.

تتلمذ ابن تيمية على والده وعلى ابن عبد الدائم المقدسي وجمعٍ غفير من أهل العلم مذكورين في كتب ترجمته وسيرته.

أبرز مؤلفات ابن تيمية

١-مجموع الفتاوى: ويقع في ٣٧ مجلداً.

٢-درء تعارض العقل والنقل: ويقع في ١١ مجلداً.

٣-منهاج السنة النبوية: ويقع في تسع مجلدات.

٤-الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

٥-الاستقامة.

٦-النبوات.

٧-الفتاوى المصرية.

٨-الصفدية.

٩-بيان تلبيس الجهمية.

١٠-الرد على المنطقيين.

١١-بُغية المرتاد.

١٢-الصارم المسلول على شاتم الرسول.

١٣-اقتضاء الصراط المستقيم.

١٤-شرح العمدة.

١٥-الإيمان.

ورحـــم الله تلميذه ابن عبد الهادي حيث قال: (وما أُبعد أنّ تصانيفه إلى الأمة تبلغ خمس مائة مجلدة)[1].

أبرز خصوم الشيخ

١-الجاشنكير (بيبرس البرجي).

٢-ابن جهبل الشافعي الدمشقي.

٣-صفي الدين الهندي.

٤-القاضي كمال الدين بن الزملكاني.

٥-تقي الدين السبكي.

٦-تقي الدين الأخنائي.

٧-أبو العباس السروجي.

٨-صدر الدين بن المرحل.

٩-الشيخ نصر المنبجي.

١٠-القاضي ابن مخلوف المالكي.

١١-نور الدين البكري.

١٢-ابن عطاء الله السكندري.

١٣-العلاء البخاري.

١٤-يوسف النبهاني.

١٥-زاهد الكوثري.

---

(١) العقود الدرية،(ص ٢٥).

برز شيخ الإسلام -رحمه الله- في ميدان تخلى فيه كثير من أهل العلم ذلك هو ميدان الصَّدْع بالحقِّ، ومقارعة الباطل والصبر والاحتساب على ما يلاقي في ذلك.

ولم يعش -رحمه الله- كما عاش أصحاب العقل المعيشي الذين يبررون جبنهم وخَوَرَهُم في عدم الَّصدْع بالحقِّ بأن ذلك هو الحكمة ومعاشرة الناس بالمعروف وخشية الوقوع في الفتنة.

ولقد كان جهاده الدعوي في حلوق أصحاب العلم المعيشي، ومنهم ابن مخلوف الذي اشتهر باستعداء السلطان على شيخ الإسلام حتى قال للسلطان: اقتله وإثمك في رقبتي[١] تحمل السجن والإبعاد عن أهله ومحبيه فمن سجن قلعة دمشق سنة ٧٢٦هـ إلى سجن حارة الديلم بمصر إلى سجن الإسكندرية.

ولهذا كان -رحمه الله- يقول: المحبوس من حُبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه[٢].

ويقول: (ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وإخراجي من بلدي سياحة وقتلي شهادة)[٣]. ولقد مات رحمه الله سنة ٧٢٨هـ، وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً، فرحمه الله رحمة واسعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

نص الرسالة

بعض آيات التوبة في القرآن:

قال الإمام العلامة شيخ الإسلام، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله:

الحمد لله، نحمده، ونستعين به ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. وكفى بالله شهيداً. صلى الله عليه وعلى

(١) راجع العقود الدرية.

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة، ٢/٤٠٢.

(٣) المرجع السابق.

آله وسلم تسليماً.

قــال الله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[هود:١:٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾[الزمر:٥٣:٥٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾[التحريم:٨].

وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور:٣١].

وقال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[التوبة: ١١٧، ١١٨].

وقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ٣٥- ٣٧].

وقــال تعالى في السورة الأخرى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٢، ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى* ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[طه: ١٢١، ١٢٢].

وقـــال تعـــالى عن نوح إنه قال لقومه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[نوح: ١٠، ١١].

وقـــال عن نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[هود:٤٧].

وعـــن هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾[هود:٥٢].

وعن صالح: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[هود:٦١].

وكـــذلك قال عن شعيب: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقال: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[الشعراء:٨٢].

وقال: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٢٨].

وقـــال عـــن موسى عليه السلام: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّـــيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[القصص: ١٥، ١٦].

وقال موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وقال موسى: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:١٤٣].

وقال تعالى لموسى: ﴿لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النمل: ١٠، ١١].

وقال موسى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْـــدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـــذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي

وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٥:١٥٧].

وقال لخاتم الرسل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[محمد:١٩].

وقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[الفتح:١،٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة:٢٢٢].

وقال تعالى: ﴿حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[غافر: ١:٣].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [الشورى: ٢٥، ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢، ١٠٦].

بعض الأحاديث في التوبة:

١-وفي صحيح مسلم عن أبي بردة عن الأغر عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: "يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة "[1].

---

(١) رواه مسلم(٢٧٠٢).

٢-وعن أبي بردة عن الأغر المزني قال: قال رسول الله ﷺ: "إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة "(١).

٣-وقال: " (والله) إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة "(٢).

٤-وقال: " إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها "(٣).

٥-وقال: " من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه "(٤).

٦-وقـــال: " لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بـــأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه. فأيس منها. فأتى شجرة فاضطجع في ظلـــها قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده. فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربُك، أخطأ من شدة الفرح "(٥).

وهذا الحديث متواتر عن النبي ﷺ، رواه ابن مسعود، والبراء بن عازب، والنعمان بن بشير، وأبو هريرة وأنس بن مالك.

٧-ففي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "للهُ أفرح بتوبة أحدكم من رجل خرج بأرض دوية مهلكة. معه راحلته عليها طعامه وشرابه وزاده وما يُصلحه. فأضـــلها، فخرج في طلبها، حتى إذا أدركه الموت و لم يجدها قال أرجع إلى مكاني الذي أضـــللتُها فيه فأموت فيه، فأتى مكانه فغلبته عينه، فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه عليها طعامه وشرابه وما يصلحه "(٦).

٨-وفي السنن أنه ﷺ قال: " كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون "(٧).

٩-وقـــال: " إن العبد إذا أذنب نُكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر

---

(١) كالسابق.

(٢) رواه البخاري(٨/٨٣) وما بين الحاصرتين من الصحيح.

(٣) رواه مسلم(٢٧٥٩).

(٤) رواه مسلم(٢٧٠٣).

(٥) رواه مسلم(٢٧٤٧).

(٦) رواه البخاري(٨/٨٤)، ومسلم(٢٧٤٤)، واللفظ لأحمد(٢٦٢٧).

(٧) حـــديث حســـن رواه ابـــن ماجة(٤٢٥١)، والترمذي(٢٤٩٩) واستغربه، والحاكم(٤/٢٤٤) وصححه، وتعقبه الذهبي.

صـقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فذلكم الران الذي ذكر الله ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[المطففين:١٤] "(١).

١٠-وعـن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾[النجم:٢٢]. قال رسول الله ﷺ: "إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأي عبد لك لا ألما "(٢).

١١-وعـن ابن عمر قال: إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس (الواحد) يقول: " رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور " مائة مرة(٣).

رواه أحمد والترمذي وقال: حديث صحيح.

التوبة نوعان: واجبة ومستحبة

فالواجبة هي التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور. وهذه واجبة على جميع المكلفين، كما أمرهم الله بذلك في كتابه وعلى ألسنة رسله.

والمسـتحبة هي التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات. فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المتصدقين، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين. ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين: إما الكافرين، وإما الفاسقين.

قـال الله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[الواقعة:٧:١٢].

وقـال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[الواقعة: ٨٨، ٩٤].

وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [فاطر:٣٢].

---

(١) حديث حسن: رواه ابن ماجة(٤٢٤٤)، والترمذي(٣٣٣٤)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن حبان(١٧٧١) وغيرهم

(٢) حديث صحيح. رواه الترمذي(٣٢٨٤)، وقال حسن صحيح غريب.

(٣) حـديث صـحيح. رواه أحمد(٤٧٢٦)، وأبو داود(١٥١٦)، والترمذي(٣٤٣٤)، وقال حسن صحيح غريب. واللفظ لأحمد عدا قوله: " الواحد " فوضعتها بين حاصرتين.

وقـال تعـالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِـلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيرًا * إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[الإنسان:٣:٦].

وقال: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ إلى قوله: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّـيِّينَ * وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا عِلِّيُّونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾[المطففين:٧:٢٨].

قـال ابـن عباس: تمزج لأصحاب اليمين مزجاً. ويشرب بها المقربون صرفاً والتوبة رجوع عما تاب منه إلى ما تاب إليه، فالتوبة المشروعة هي الرجوع إلى الله، وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه[1].

التوبة من ترك الحسنات أهم من التوبة من فعل السيئات

وليسـت التوبة من فعل السيئات كما يظن كثير من الجهال. لا يتصورون التوبة إلا عمـا يفعل العبد من القبائح كالفواحش والمظالم، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهي عنها.

فأكثر الخلق يتركون كثيراً مما أمرهم الله به من أقوال القلوب وأعمالها وأقوال البدن وأعماله، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أمروا به، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه، فيكونون إما ضالين بعدم العلم النافع، وإما مغضوباً عليهم بمعاندة الحق مع معرفته.

---

(١) الـتوبة في اللغـة: هي الرجوع عن الذنب، يقال: تاب يتوب توبة وتوباً ومتاباً، والمتاب التوبة، وتـاب الله عليه أي عاد عليه بالمغفرة. قال النووي رحمه الله، في شرح، صحيح مسلم(٥/٥٨٧): أصـل التوبة في اللغة: الرجوع. يقال: تاب، وثاب بالمثلثة، وآب، بمعنى رجع، والمراد بالتوبة هنا: الـرجوع عن الذنب، وقد سبق كتاب (الإيمان) أن لها ثلاثة أركان:- الإقلاع —والندم على فعل تلك المعصية —والعزم على ألا يعود إليها أبداً. فإن كانت المعصية لحق آدمي فلها ركن رابع وهو: التحلل من صاحب الحق.

وأصـلها الندم وهو ركنها الأعظم، واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة، وأنها واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها، سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة.

والتوبة من المهمات وقواعده المتأكدة. ووجوبها عند أهل السنة بالشرع، وعند المعتزلة بالعقل، ولا يجب على الله قبولها إذا وجدت بشروطها عقلاً عند أهل السنة. لكنه سبحانه وتعالى يقبلها كرماً وفضلاً، وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع، خلافاً لهم. ا. هـ.

وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يدعوه في كل صلاة بقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[الفاتحة:٦:٧].

ولهذا نزه الله نبيه عن هذين، فقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم:١:٤].

فالضال الذي لا يعلم الحق، بل يظن أنه على الحق وهو جاهل به، كما عليه النصارى.

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[المائدة:٧٧].

والغاوي الذي يتبع هواه وشهواته مع علمه بأن ذلك خلاف الحق. كما عليه اليهود. قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[الأعراف:١٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾[الأعراف:١٧٥، ١٧٦].

الغي والضلال يجمعان جميع السيئات

وفي الحديث عن النبي ﷺ: "إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن "[(١)].

فإن الغي والضلال يجمع جميع سيئات بني آدم.

فإن الإنسان كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فبظلمه يكون غاوياً، وبجهله يكون ضالاً، وكثيراً ما يجمع بين الأمرين فيكون ضالاً في شيء غاوياً في شيء آخر، إذ هو ظلوم جهول، ويعاقب على كل من الذنبين بالآخر

---

(١) حديث صحيح. رواه أحمد(٤/٤٢٠) وقال الهيثمي في(المجمع) (٧/٣٠٥،٣٠٦) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ووقع في الأصل المطبوع، إن أخوف ما أخاف وهو خطأ طابع.

كما قال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾[البقرة:١٠].

وكما قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الأحزاب:٥].

كمـا يـثاب المؤمن على الحسنة بحسنة أخرى. فإذا عمل بعمله ورثه الله علم ما لم يعلم، وإذا عمل بحسنة دعته إلى حسنة أخرى.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[محمد:١٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾[مريم:٧٦].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت:٦٩].

وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[النساء:٦٦:٦٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْـدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الحديد: ٢٨، ٢٩].

وهـو ﷺ ذكر شهوات الغي في البطون والفروج، كما في الصحيح أنه قال: "من تكفل لي ما بين لحييه وما بين رجليه تكفلت له بالجنة "(١).

فإن هذا يعلم عامة الناس أنه من الذنوب، لكن يفعلونه اتباعا لشهواتهم.

وأمـا مضلات الفتن، فإن يفتن العبد فيضل عن سبيل الله وهو يحسب أنه مهتد كما قال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقـال: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر:٨].

وقـال: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾[غافر:٣٧].

---

(١) رواه البخاري(٨/١٢٥) والترمذي(٢٤٠٨) وقال: حسن صحيح غريب، وسياق الترمذي أقرب لسياق المصنف رحمهما الله.

وقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

ولهذا تأول أصحاب النبي ﷺ هذه الآية في من يتعبد بغير شريعة الله التي بعث بها رسوله، من المشركين وأهل الكتاب كالرهبان، وفي أهل الأهواء من هذه الأمة كالخوارج الذين أمر النبي ﷺ بقتالهم، وقال فيهم: "يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة "(١).

وذلك لأن هؤلاء خرجوا من سنة رسول الله ﷺ وجماعة المسلمين حتى كفَّروا من خالفهم مثل " عثمان وعلي " وسائر من تولاهما من المؤمنين، واستحلوا دماء المسلمين وأموالهم.

كما قال النبي ﷺ فيهم: " يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان "(٢).

وإذا اجتمعت شهوات الغي ومضلات الفتن قوي البلاء، وصار صاحبه مغضوباً عليه ضالاً. وهذا يكون كثيراً. بسبب حب الرئاسة والعلو في الأرض، كحال فرعون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص:٤]. فوصفه الله تعالى بالعلو في الأرض والفساد.

وقال في آخر السورة: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص:٨٣].

ولهذا قال في حق فرعون: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾[غافر:٣٧].

---

(١) رواه البخاري(٤/٢٤٣،٢٤٤)، و(٩/٢١) عن"أبي سعيد الخدري" وعن علي، ومسلم (١٠٦٤) و(١٠٦٦) عن " أبي سعيد " وعن علي، وقد أدخل المصنف شيخ الإسلام رحمه الله حديثهما في حديث واحد وليس عندهم، وقراءته مع قراءتهم وعند مسلم(٢/٧٤٨)من حديث علي مرفوعاً، ليس قرائتكم إلى قراءتهم بشيء.

(٢) رواه البخاري(٤/١٦٦،١٦٧) معلقاً ووصله في تفسير براءة (٦/٨٤) ومسلم (١٠٦٤).

وذلك أن حب الرئاسة شهوة خفية، كما قال شداد بن أوس ﷺ: "يا نعايا العرب! إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية "(١).

قيل لأبي داود السجستاني: ما الشهوة الخفية؟

قال: حب الرياسة، وحبك الشيء يعمي ويصم، فيبقى حب ذلك يزين له ما يهوله، مما فيه علو نفسه. ويبغض إليه ضد ذلك، حتى يجتمع فيه الاستكبار، والاختيال، والحسد الذي فيه بغض نعمة الله على عباده، لا سيما من مناظره.

والكبر والحسد هما داءان أهلكا الأولين والآخرين، وهما أعظم الذنوب التي بها عُصي الله أولاً.

فإن إبليس استكبر وحسد آدم، وكذلك ابن آدم الذي قتل أخاه حسد أخاه، ولهذا كان الكبر ينافي الإسلام، كما أن الشرك ينافي الإسلام، فإن الإسلام هو الاستسلام لله وحده، فمن استسلم له ولغيره فهو مشرك به، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر، كحال فرعون وملائه.

ولذلك قال موسى: ﴿وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾[الدخان:١٩].

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ﴾[القصص:٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[النمل:١٤].

ومن أسلم وجهه لله حنيفاً فهو المسلم الذي على ملة إبراهيم الذي قال له ربه: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[البقرة:٣٩].

وهذا الإسلام هو دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم، كما وصف الله به في كتابه نوحاً وإبراهيم وموسى ويوسف وسليمان، وغيرهم من النبيين مثل، قول موسى

---

(١) وقع في الأصل المطبوع " يا بغايا العرب " من بغى وهو خطأ واضح. صوابه ما أثبته وهو من نعى. قال الزمخشري: في نعايا ثلاثة أوجه. أحدها: أن يكون جمع نعي. وهو المصدر كصفى وصفايا. والثاني: أن يكون اسم جمع. كما جاء في أخيه أخايا، والثالث: أن يكون جمع نعاء التي هي اسم الفعل. والمعنى يا نعايا العرب جئن فهذا وقتكن وزمانكن. يريد أن العرب قد هلكت وأنظر" اللسان " مادة: نعا.

لقومه: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[يونس:٨٤].

وقـال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾[المائدة:٤٤].

وقـال نوح عليه السلام: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[يونس:٧٢].

وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[يوسف:١٠١].

وقالت بلقيس: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[النمل:٤٤].

الغي في شهوات الرئاسة والكبر والعلو

ولـيس الغـي مختصـًا بشهوات البطون والفروج فقط، بل هو في شهوات البطون والفـروج وشهوات الرئاسة والكبر والعلو وغير ذلك. فهو إتباع الهوى وإن لم يعتقد أنه هوى، بخلاف الضال. فإنه يحسب أنه يحسن صنعاً.

ولهـذا كـان إبليس أول الغاوين، كما قال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْـتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[الأعراف:١٦، ١٧].

وقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[الحجر:٣٩، ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ حَـقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[القصص:٦٢، ٦٣].

وقد قال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤، ٩٥].

وإنمـا في الحديث ما يخاف على هذه الأمة من الغي، وهو شهوات الغي في البطون والفروج فأما الغي الذي هو الاستكبار عن اتباع الحق فذاك هو أصل الكفر فصاحبه ليس

من هذه الأمة، كإبليس وفرعون وغيرهما[١].

وأما شهوات البطون والفروج فذاك يكون لأهل الإيمان ثم يتوبون، كما قال: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[طه:١٢١،١٢٢].

وفي السنن والمسند من حديث ليث بن سعد، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو. عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إن إبليس قال لربه ﷻ: بعزتك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم فيهم. فقال له ربه ﷻ: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني "[٢].

العصيان يقع من ضعف العلم

وجميع ما يتوب العبد منه، سواء كان فعلاً أو تركاً، قد لا يكون كان عالماً بأنه ينبغي التوبة منه، وقد يكون كان عالماً بذلك. فإن الإنسان كثيراً ما يكون غير عالم بوجوب الشيء أو قبحه، ثم يتبين له فيما بعد وجوبه أو قبحه.

وقد يكون عالماً بوجوبه أو قبحه، ويتركه أو يفعله لضعف المقتضى لفعل الواجب، أو قوة المقتضى لفعل القبيح. لكن هذا لا يكاد يقع إلا مع ضعف العلم بوجوبه وقبحه، وإلا فإذا كمل العلم استلزم الإرادة الجازمة في الطرفين، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء:١٧].

قال أبو العالية: قال أصحاب محمد ﷺ: كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب[٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام:٥٤].

---

(١) في الأصل: غيرها.

(٢) حديث صحيح، رواه أحمد(٢/٢٩)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٢٠٧)، رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه.. والطبراني في الأوسط وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح وكذلك أحد إسنادي أبي يعلى، واللفظ لأحمد.

(٣) رواه ابن جرير(٨٨٣٢)من أبي العالية بنحوه غير قوله: وكل من تاب ...

والمؤمن لا يزال يخرج من الظلمات إلى النور، ويزداد هدى، فيتجدد له من العلم والإيمان ما لم يكن قبل ذلك، فيتوب مما تركه وفعله.

والتوبة تصقل القلب وتجليه مما عرض له من رين الذنوب، كما قال النبي ﷺ: " إن العبد إذا أذنب نُكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبهُ، وإن زاد فيها حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي قال الله: ﴿**كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[المطففين:١٤] "[١].

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: " إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة "[٢].

التوبة من الاعتقادات أعظم من التوبة من الإرادات

والتوبة من الاعتقادات أعظم من التوبة من الإرادات، فإن من ترك واجباً أو فعل قبيحاً يعتقد وجوبه وقبحه.

كان ذلك الاعتقاد داعياً له إلى فعل الواجب ومانعاً من فعل القبيح، فلا يكون في فعله وتركه ثابت الدواعي والصوارف، بل تكون دواعيه وصوارفه متعارضة.

ولهذا يكون الغالب على هذا التلوم، وتكون أنفسهم لوامة، تارة يؤدون الواجب وتارة يتركونه، وتارة يتركون القبيح، وتارة يفعلونه، كما تجده في كثير من فساق القبلة الذين يؤدون الحقوق تارة ويمنعونها أخرى، ويفعلون السيئات تارة ويتركونها أخرى، لتعارض الإرادات في قلوبهم، إذ معهم أصل الإيمان الذي يأمر بفعل الواجب وينهى عن فعل القبيح، ومعهم من الشبهات والشهوات ما يدعوهم إلى خلاف ذلك.

وأما ما فعله الإنسان مع اعتقاد وجوبه، وتركه مع اعتقاد تحريمه، فهذا يكون ثابت الدواعي والصوارف، أعظم من الأول بكثير، وهذا تحتاج توبته إلى إصلاح اعتقاده أولاً وبيان الحق. وهذا قد يكون أصعب من الأول: إذ ليس معه داعٍ إلى أن يترك اعتقاده كما كان مع الأول إلى أن يترك مراده.

وقد يكون أسهل إذا كان له غرض فيما يخالف موجب الاعتقاد، مثل الأصار والأغلال التي على أهل الكتاب. وإذلال المسلمين لهم، وأخذ الجزية منهم، مع مخالفة

---

(١) حديث حسن واه الترمذي (٣٣٣٤) وغيره وتقدم.

(٢) رواه مسلم وتقدم.

المسلمين له، فهذا قد يكون داعياً إلى أن ينظر في اعتقاده. هل هو حق أو باطل حتى يتبين له الحق، وقد يكون أيضاً مرغباً له في اعتقاده يخرج به من هذا البلاء، وكذلك قهر المسلمين لعدوهم بالأسر يدعوهم إلى النظر في محاسن الإسلام.

الاعتقاد والإرادة يتعاونان

فللرغبة والرهبة تأثير عظيم في معاونة الاعتقاد، كما للاعتقاد تأثير عظيم في الفعل والترك.

فكل واحد من العلم والعمل، من الاعتقاد والإرادة يتعاونان.

فالعلم والاعتقاد يدعو إلى العمل بموجبه، والإرادة رغبة ورهبة، والعمل بموجبها يؤيد النظر والعلم الموافق لتلك الإرادة والعمل، كما يقال: من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

وفي القرآن شواهد هذا متعددة في مثل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[النساء: ٦٦-٦٨].

وفي قوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الحديد:٢٨].

فإذا كان الإنسان معاقباً على الاعتقاد كما يعاقب الكفار على كفرهم، كانت التوبة ظاهرة. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة: ٧٣، ٧٤].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾[التوبة:٥]. فأما الاعتقاد المغفور كالخطأ والنسيان الذي لا يؤاخذ الله به هذه الأمة كما في قوله: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة:٢٨٦].

وقد ثبت في الصحيح أن الله قد فعل ذلك[1].

وكما قال النبي ﷺ: " إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فاخطأ فله

(١) رواه مسلم(١٢٦).

أجر "[١]. فهذا قد يقال في مثله: إن قيل إنه تاب منه فكيف يتاب مما لا ذم فيه ولا عقاب؟ وإن قيل لا يتاب منه فكيف لا يرجع الإنسان إلى الحق إذا تبين له؟

وجواب ذلك أنه يتاب منه كما يتاب من غيره؛ لأن صاحبه قد ترك ما هو مأمور به في نفس الأمر من العلم وما يتبعه من أعمال القلوب والجوارح.

إما لعجزه عن بلوغه وإما لتقصيره في طلبه. وأيضاً، فإنه قد فعل من الاعتقاد وما يتبعه من أعمال القلوب والجوارح ما هو منهي عنه في نفس الأمر، لكن سقط عنه النهي لعدم قدرته على معرفة قبحه.

والتكليف مشروط بالتمكن من العلم والقدرة، فلا يُكلف العاجز عن العلم ما هو عاجز عنه، والناسي والمخطئ كذلك، لكن إذا تجددت له قدرة على العلم صار مأموراً بطلبه، وإذا تجدد له العلم صار مأموراً حينئذ باتباعه.

وصار في هذه الحال مذموماً على ترك ما يقدر عليه من طلب العلم الواجب.

وعلى ترك اتباع ما تبين له من العلم، وأيضاً فما دام غير مستيقن فهو مأمور بطلب العلم الذي يبين له الحق، والمعتقد المخطئ لا يكون مستيقناً قط، فإن العلم واليقين يجده الإنسان من نفسه كما يجد سائر إدراكاته وحركاته، مثلما يجد سمعه وبصره وشمه وذوقه، فهو إذا رأى الشيء يقيناً يعلم أنه رآه، وإذا علمه يقيناً يعلم أنه علمه. وأما إذا لم يكن مستيقناً فإنه لا يجد ما يجده العالم، كما إذا لم يستيقن رؤيته لم يجد الرائي. وإنما يكون عنده ظن ونوع إرادة توجب اعتقاده.

هذا الذي يجده بنو آدم في نفوسهم كما قال سبحانه وتعالى: **﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾**[النجم:٢٣].

وإذا كان الإنسان مأموراً بطلب العلم الذي يحتاج إليه بحسب إمكانه، وهو إذا لم يجد اليقين (و) يعلم أنه لم يجد العلم فهو مأمور بالطلب والاجتهاد، فإن ترك ما أمر به كان مستحقاً للذم والعقاب على ذلك.

فإذا تبين له الحق وعلمه، وعلم أنه كان جاهلاً به معتقداً غير الحق كان تائباً، بمعنى أنه رجع من الباطل إلى الحق، وإن كان الله قد عفا عنه ما رجع عنه لعجزه إذ ذاك، وكان

---

(١) رواه البخاري(١٣٢/٩،١٣٣) ومسلم(١٧١٦)عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر".

أيضاً تائباً مما حصل فيه أولاً من تفريط في طلب الحق، فكثير من خطأ بني آدم من تفريطهم في طلب الحق لا من العجز التام.

وكان أيضاً تائباً من اتباع هواه بغير هدى من الله. فإن أكثر ما يحمل الإنسان على اتباع الظن المخطئ هو هواه كما قال تعالى: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ**﴾ [النجم:٢٣]. وليس هذا وحاله كحال من كان عاجزاً عن الفعل ثم قدر عليه كالمريض الذي لا يطيق القيام إذا قدر عليه بعد ذلك، وكالخائف إذا أمن، وكالمصلي بتيمم، ونحو هؤلاء، وذلك إذا كانت إرادتهم للفعل المأمور به على وجهة الكمال ثابتة في قلوبهم، وقد علموا ما يقدرون عليه من المراد، وإنما تركوا تمامه لعجزهم - كان مثل ثواب الفاعل، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى: " إذا مرض العبد أو سافر كُتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم "(١).

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: " إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. حبسهم العذر " (٢).

وقد قال تعالى: ﴿**لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ**﴾[النساء:٩٥].

فهؤلاء لهم علم بالمأمور به الكامل، واعتقاد الأمر به، وإرادة فعله بحسب الإمكان، وهذا كله من أدائهم للمأمور به، فإذا تجددت لهم قدرة لم تتجدد رغبة في الفعل الكامل، وإنما يتجدد العمل بتلك الرغبة المتقدمة، وإن كان لا بد لهذا الفعل من إرادة تخصه.

ولم يكن هؤلاء مأمورين بذلك إلا في هذه الحال فقط. كما تؤمر المرأة بالصلاة عند انقضاء الحيض، وكما يؤمر الصبي بما يجب عليه عند بلوغه، وكما يؤمر المزكي بالزكاة بعد ملك النصاب والحول، والمصلي بالصلاة بعد دخول الوقت.

وأما الناسي والمخطئ فإنه لم يكن قد أتى بالعلم والاعتقاد والإرادة، فلا يثاب على هذه الأمور التي لم تكن له، بل يكون الذي حصل له ذلك أفضل منه بها كما قال تعالى: ﴿**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[الزمر:٩].

---

(١) رواه البخاري(٤/٧٠) ولفظه: " إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً " والحديث من أفراد البخاري و لم يتفق عليه.

(٢) رواه البخاري عن أنس(٤/٣١)، ومسلم(١٩١١) عن جابر.

فنفــى المســاواة بين الذي يعلم والذي لا يعلم مطلقاً، لم يستثن المعذور كما استثنى في تفضيل المجاهــد على القاعد المعذور، وكذلك سائر ما في القرآن من نحو هذا كقوله: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ * وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ**﴾ [فاطر: ١٩-٢١].

وقوله: ﴿**مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**﴾[هود:٢٤].

وقوله: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ**﴾[الأنعام:١٢٢].

ولهــذا قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: " إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر "[١].

لم يجعل أجر العاجز على إصابة الصواب مع اجتهاده كأجر القادر عليه، كما جعل للمــريض والمسافر مثل ثواب الصحيح المقيم، كما جعل المعذور من القاعد عن الجهاد الــذي تمت رغبته بمنزلة المجاهد فإن الأصل هو القلب، والبدن تابع، فالمستويان في عمل القلب إذا فعل كان منهما يقدر بدنه متماثلان، بخلاف المتفاضلين في عمل القلب: علمه وإرادته وما يتبع ذلك، فإنهما لا يتماثلان.

ولهذا يعاقب العبد على ما تركه من الإيمان بقلبه.

وإن قــيل: إن ذلك تكليف ما لا يطاق، ولا يعاقب على ما عجز عنه بدنه باتفاق المسلمين، فهو على ترك ما أمر بإرادته وفعله وإن كانت نفسه لا تريده ولا تحبه وليس هو معاقباً على ترك ما عجز عنه بدنه. كجهاد المقعد والأعمى ونحوهما.

ونفسه إنما لا تعلم الحق الذي بعث الله به رسوله، ولا تريده لتفريطه وتعديه إذ آيات ذلك الحق ظاهرة، وهو محبوب، وقد خلق الله كل مولود على الفطرة التي تتضمن القوة علــى معرفة الحق وعلى محبته، ولكن غير فطرته بما يقلده عن غيره. كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء "[٢].

---

(١) متفق عليه، وتقدم.

(٢) رواه البخاري(١١٨/٢)، ومسلم(٢٦٥٨) وصدر الحديث عندهما بلفظ: " ما من مولود إلا يولد على الفطرة .. " الحديث.

وإذا كان قد خُلق على الصحة والسلامة، فهو يستحق العقوبة على ما غيره من خلق الله بتفريطه وعدوانه، لاتّباعه الظن وما تهوى النفس.

وقد بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[الإسراء:١٥].

وهذا مما يظهر به الفرق بين المجتهد المخطئ والناسي من هذه الأمة في المسائل الخبرية والعملية، وبين المخطئ من الكفار والمشركين وأهل الكتاب الذي بلغته الرسالة، إذا قيل إنــه معانــد للحق، فإن ذاك لا يكون خطؤه إلا لتفريطه وعدوانه، لا يُتصور أن يجتهد فــيكون مخطئاً في الإيمان بالرسول، بل متى اجتهد- والاجتهاد استفراغ الوسع في طلب العلم بذلك- كان مصيباً للعلم به بلا ريب.

فإن دلائل ما جاء به الرسول ودواعيه في نهاية الكمال والتمام الذي يشمل كل من بلغته، ولا يترك أحد قط اتباع الرسول إلا لتفريط وعدوان فيستحق العقاب بخلاف كثير من تفصيل ما جاء به، فإنه قد يعزب علمه عن كثير من خواص الأمة وعوامها، بحيث لا يكونــون في ترك معرفته لا مقصرين ولا مفرطين فلا يعاقبون بتركه، مع أنهم قد آمنوا به إيماناً مجملاً في إيمانهم بما جاء به الرسل.

فهــم آمــنوا به مجملاً ومعهم أصول الإيمان به، كما أن الفاسق معه الدواعي لفعل المأمور وترك المحظور.

فلهــذا كان المخطئ بالتأويل من هذه الأمة والفاسق بالفعل مع صحة الاعتقاد، كل منهما محسناً من وجه، ومسيئاً من وجه، وليس واحد منهما كالكفار من المشركين وأهل الكتاب، وإن كانوا في ذلك على درجات متفاوتة.

بــل كــل منهما ليس تاركاً لما أمر به من الاعتقاد والعمل مطلقاً ولا فاعلاً لضده مطلقاً، بل المتأول قد آمن إيماناً عامًّا بكل ما جاء به الرسول، واستسلم لكل ما أمر به.

وهــذا الإيمــان والإسلام يتناول ما جهله، ويدعوه إلى الإيمان والإسلام المفصل إذا علمه، لكن عارض ذلك من جهله وظلمه لنفسه ما قد يكون مغفوراً له وقد يكون معذباً به.

ولــذلك الفاجر بالعمل معه من الإيمان بقبح وبغض ما هو (داعٍ له إلى) فعل الأصل المأمــور بــه وداعٍ إلى تركه، لكن عارض ذلك من هواه ما منع كمال طاعته، بخلاف المكذب للرسول ﷺ والكافر به.

فإنه لم يصدق بالحق و لم يستسلم له لا جملة ولا تفصيلاً، لكن قد يكون ما اتبعه من ظنه وهواه موجباً لبعض ما جاء به الرسول ومانعاً له من النظر فيه بحيث لا يستطيع مع ذلك أن يسمع به.

فهذا واقع كما قال سبحانه: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءِ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[الكهف:١٠٠،١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾[هود: ١٨-٢٠].

لكن عدم هذه الاستطاعة كان بتفريطه وعدوانه، ومن كان تركه للمأمور بذنب منه أو ضرورته إلى المحظور بذنب منه - لم يكن ذلك مانعاً من ذمه وعقابه، ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[الأنعام: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٨٨].

وقال: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:١٥٥].

وبهذا يظهر ضعف قول طائفة من المتكلمين الذين يقولون: الخطأ والإثم يتلازمان، ثم منهم من يقول: كل مجتهد في المسائل العلمية مصيب، كما يقوله كثير من المعتزلة والأشعرية ومنهم من يقول: بل فيهم[1] مخطئ، والمخطئ آثم، كما يقوله المريسي وغيره، وذلك أنهم اعتقدوا أنه حيث يكون مخطئاً يكون تاركاً لما وجب عليه.

ثم قال الأولون: فإذا لم يكن تاركاً للمأمور به، فلا يكون لله في المسألة حكم معين، أو لا يكون الحكم المنصوص حكماً في حقه إذا لم يتمكن من معرفته.

وقال آخرون: بل إذا كان مخطئاً يكون تاركاً للمأمور به فيكون آثماً.

(١) في الأصل المطبوع: " فيها ".

والتحقيق أنه مأمور أمراً مطلقاً، لكن شرط بمنزلة التمكن من معرفته فإذا لم يتمكن من معرفته لا يكون شرط الإثم موجوداً فيه.

ولكن ذلك لا ينفي أن يكون هو المأمور به، وهو الذي يحبه الله ويرضاه، ويثبت فاعله إذا فعله. وإنما سقط عن بعض العباد لفوات الشرط في حقه خاصة، وحينئذ فيكون النزاع في بعض المواضع نزاعاً لفظيًّا.

ولهذا اختلف العلماء: هل هو مصيب في اجتهاده وإن كان مخطئاً في نفس الأمر؟

أو هو مخطئ في اجتهاده وفي نفس الأمر؟ على قولين ذكرهما القاضي روايتين عن أحمد. وذلك أن الخطأ في الاجتهاد قد يُعنى به القصور والتقصير.

وقد لا يعنى به إلا التقصير، إذ العاجز عن معرفة الحكم الذي لله عاجز قاصر، ليس بمقصر ولا مفرط فيما بعد عليه.

فإذا قال: أخطأ في اجتهاده، أراد أخطأ في استدلاله، بمعنى أنه لم يستدل بالدليل الذي يوصله إلى نفس الحق، ولا ريب أنه أخطأ هذا الاستدلال الموصل له الحق، إذ لو أصابه لأصاب الحق، لكنه لم يكن قادراً على هذا الاستدلال فلا يعاقب على تركه.

ومن قال: لم يخطئ في اجتهاده، أراد أنه لم يخطئ فيما قدر عليه من الاجتهاد، بل فعله على وجهه، لكن لم يكن مقدوره من الاجتهاد كافياً في إدراك المطلوب في نفس الأمر.

ومثل هذا النزاع أن يُقال: هل فعل ما أمر به أو لم يفعل ما أمر به؟

فالمأمور به في نفس الأمر لم يفعله، وأما المأمور به في حقه من العمل الممكن فقد فعله، ولذلك إذا اشتبهت أخته بأجنبية، هل يقال: الحرام -في نفس الأمر- واحدة، أم الاثنتان محرمتان؟ على القولين بهذا الاعتبار.

التوبة من الحسنات لا تجوز عند أحد من المسلمين

فأما التوبة من الحسنات فلا تجوز عند أحد من المسلمين، بل من تاب من الحسنات، مع علمه بأنه تاب من الحسنات، فهو إما كافر وإما فاسق.

وإن لم يعلم أنه تاب من الحسنات فهو جاهل ضال – وذلك أن الحسنات هي الإيمان والعمل الصالح، فالتوبة من الإيمان هي الرجوع عنه، والرجوع عنه ردة، وذلك كفر.

والتوبة من الأعمال الصالحة رجوع عما أمر الله به وذلك فسوق أو معصية.

والله تعـالى حبب إلى المؤمنين الإيمان، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، فكل حسـنة يفعلها العبد إما واجبة وإما مستحبة. والتوبة تتضمن الندم على ما مضى والعزم على أن لا يعود إلى مثله في المستقبل[1].

---

(١) قـال الإمام ابن القيم، رحمه الله في مدارج السالكين(١/١٨٢): فحقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه في الماضي. والإقلاع عنه في الحال والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل.
والـثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة في ذلك الوقت: يندم، ويقلع، ويعزم. فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خُلق لها وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة. ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شـرائط لـه، فأما الندم: فإنه لا تتحقق التوبة إلا به. إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضائه به. وإصراره عليه. وفي المسند الندم توبة(حديث صحيح: رواه أحمد(٣٥٦٨)، وابن ماجة (٤٢٥٢)، والحاكم(٤/٢٤٣) وصححه ووافقه الذهبي).
وأمـا الإقلاع: فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب. وأما الاعتذار: ففيه إشكال. فإن من الناس من يقول: من تمام التوبة ترك الاعتذار فإن الاعتذار محاجة عن الجناية، وترك الاعتذار اعتراف بها، ولا تصـلح الـتوبة إلا بعـد الاعتراف. حديث صحيح: رواه أحمد(٣٥٦٨) وابن ماجة(٤٢٥٢)، والحاكم(٤/٢٤٣) وصححه ووافقه الذهبي.
وفي ذلك يقول بعض الشعراء لرئيسه وقد عتب عليه في شيء:

وما قابلت عتبك باعتـــذار ... ولكني أقول كما تقـول
وأطرق باب عفوك بانكســار ... ويحكم بيننا الخلق الجميل

فلما سمع الرئيس مقالته قام وركب إليه من فوره. وأزال عتبه عليه. فتمام الاعتراف: ترك الاعتذار بـأن يكون في قلبه ولسانه: اللهم لا براءة لي من ذنب فاعتذر. ولا قوة لي فأنتصر، ولكني مذنب مستغفر، اللهم لا عذر لي وإنما هو محض حقك، ومحض جنايتي. فإن عفوت وإلا فالحق لك.
والـذي يظهـر لي من كلام، صاحب المنازل أنه أراد بالاعتذار إظهار الضعف والمسكنة، وغلبة العدو، وقوة سلطان النفس، وأنه لم يكن مني ما كان من استهانة بحقك، ولا جهلاً به، ولا إنكاراً لإطلاعـك، ولا استهانة بوعيدك. وإنما كان من غلبة الهوى، وضعف القوة مرض الشهوة وطمعاً في مغفرتك. واتكالاً على عفوك، وحسن ظن بك، ورجاء لكرمك.
وطمعاً في سعة حلمك ورحمتك وغرني بك الغرور، والنفس الأمارة بالسوء، وسترك المرخي علي وأعانني جهلي، ولا سبيل إلى الاعتصام لي إلا بك، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك ونحو هذا الكـلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار، والاعتراف بالعجز، والإقرار بالعبودية: فهذا من تمام التوبة.
وإنما يسلكه الأكياس المتعلقون لربهم عز وجل والله يحب من عبده أن يتملق له(و) أيضاً يحب من عبده أن يعتذر إليه ويتنصل إليه من ذنبه. فهذا هو اعتذار المحمود.
وأمـا الاعتذار بالقدر: فهو مخاصمة لله، واحتجاج من العبد على الرب، وحمل لذنبه على الأقدار، وهذا فعل خصماء الله.

والندم يتضمن ثلاثة أشياء: اعتقاد قبح ما ندم عليه، وبغضه وكراهته، وألم يلحقه عليه فمن قبح ما أمر الله به إيجاب أو استحباب، أو بغض ذلك وكرهه بحيث يتألم على فعله، ويتأذى بوجوده، ففيه من النفاق بحسب ذلك.

وهو إما نفاق أكبر يخرجه من أصل الإيمان، وإما نفاق أصغر يخرجه من كماله الواجب عليه. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ

كما قال بعض شيوخهم في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾[آل عمران:١٤] قال أتدرون ما المراد بهذه الآية؟
قالوا: ما المراد به؟ قال: إقامة أعذار الخليقة.
وكذب هذا الجاهل بالله وكلامه. وإنما المراد بها: التزهيد في هذا الفاني الذاهب والترغيب في الباقي الدائم. والازدراء بمن آثر هذا المزين واتبعه. بمنزلة الصبي الذي يزين له ما يلعب به فيهش إليه ويتحرك له مع أنه لم يذكر فاعل التزيين فلم يقل (زينا للناس) والله تعالى يضيف تزيين الدنيا والمعاصي إلى الشياطين كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٤٣].
وقال: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾[الأنعام:١٣٧]. وفي الحديث:" بعثت هادياً وداعياً وليس إلي من الهداية شيء، وبعث إبليس مغوياً ومزيناً، وليس له من الضلالة شيء " حديث ضعيف جداً: رواه العقيلي في " الضعفاء " وابن عدي في " الكامل " -كما في " الفتح الكبير – وقال المناوي في"الفيض" (٣/٢٠٥): قال مخرجه العقيلي: خالد- يعني ابن عبد الرحمن بن الهيثمي -ليس بمعرفة بالنقل وحديثه غير محفوظ ولا يعرف له أصل.
ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾[الأنعام:١٠٨].
فإن تزيينه تعالى عقوبة لهم على ركونهم إلى ما زينه الشيطان لهم. فمن عقوبة السيئة: السيئة بعدها.
ومن ثواب الحسنة الحسنة بعدها.
والمقصود: أن الاحتجاج بالقدر مناف للتوبة، وليس هو من الاعتذار في شيء.
وفي بعض الآثار، إن العبد إذا أذنب فقال: يا رب هذا قضاؤك وأنت قدرت علي. وأنت حكمت علي. وأنت كتبت علي. يقول الله ﷻ: وأنت عملت. وأنت كسبت، وأنت أردت واجتهدت. وأنا أعاقبك عليه.
وإذا قال: يا رب أنا ظلمت. وأنا أخطأت. وأنا اعتديت. وأنا فعلت. يقول الله ﷻ: وأنا قدرت عليك وقضيت وكتبت. وأنا أغفر لك. وإذا عمل حسنة. فقال: يا رب أنا عملتها. وأنا تصدقت. وأنا صليت. وأنا أطعمت. يقول الله ﷻ: وأنا أعنتك. وأنا وفقتك. وإذا قال: يا رب أنت أعنتني ووفقتني. وأنت مننت علي. يقول الله: وأنت عملتها. وأنت أردتها. وأنت كسبتها.
فالاعتذار اعتذاران: اعتذار ينافي الاعتراف فذلك مناف للتوبة.
واعتذار يقرر الاعتراف فذلك من تمام التوبة. ا. هـ.

أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد:٢٨].

وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِه إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾[التوبة:١٢٤، ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا**﴾[الإسراء:٨٢].

بل إذا علم العبد أن هذا الفعل قد أمره الله به وأحبه، فاعتقد هو أن ذلك ليس مما أمر الله به وأبغضه وكرهه، فهو كافر بلا ريب، فمثل هذه التوبة عن الحسنات هي ردة محضة عن الإيمان وكفر بالإيمان ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[المائدة:٥].

فإطلاق القول بأن الحسنات يتاب منها هو كفر يجب أن يستتاب صاحبه، إذ معناه أنه يؤمر بالرجوع عن الحسنات، واعتقاد أن الرجوع عن الحسنات يقرب إلى الله.

وهذا كفر بلا ريب. ثم إن هذه التوبة متناقضة ممتنعة في نفسها: فإن التائب من الحسنات إن اعتقد أن هذه التوبة حسنة. فعليه أن يتوب منها، فتكون باطلة، فلا يكون قد تاب من الحسنات. وإن اعتقد أنها سيئة كان مقرًّا بأن هذه التوبة محرمة. فقد التزم أحد أمرين:

إما أنه لم يتب من الحسنات، أو تاب توبة محرمة. وهذا اشتبه عليه حال السابقين المقربين الذين يتوبون من ترك المستحبات، أو فعل المكروهات غير المحرمات.

فظن أنهم تابوا مما فعلوه من الحسنات، وتركوه من المحرمات، فإنهم لو تابوا من ذلك لكانوا مرتدين.(إما) عن أصل الإيمان وإما عن كماله.

وإنما هي توبة عما تركوه من مستحب وفعلوه من مكروه. مثل أن يكون العبد يصلي صلاة مجزئة غير كاملة. فتبلغه صلاة النبي ﷺ المستحبة، فيصلي كصلاته، ويندم على ما كان يفعله من الصلاة الناقصة. فهو مما فعله من الحسن، وإنما يتوب مما تركه من الحسن ولهذا ينسب نفسه إلى التفريط بما أضاعه من الحسنات كذلك إذا سمع فضائل الأعمال المستحبة وما وعد الله لأصحابها من علو الدرجات فيندم على ما فرط من ذلك، ويعزم على فعلها، فهو توبة مما تركه من الحسنات.

وكذلك لو كان يصبر على المكاره، مثل الفقر، والمرض، وخوف العدو، من غير رضى بذلك، فبلغه مقام أهل الرضا.

وأنه أعلى من الصبر الذي لا رضا معه، وأن هؤلاء يستحقون رضوان الله عليهم، وأن أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء، وما روي عن النبي ﷺ أنه قال لابن عباس: " إن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل، وإن لم تستطع فإن الصبر على ما يكره خيراً كثيراً "(١).

فهذا يتوب من ترك الرضا لا من نفس ما أمر به من الصبر، فإن الصبر يبقى مع الرضا، لا بد من الصبر في الحالين، لكن تذهب مرارة الكراهة بالرضا، وتلك المرارة ليست من الحسنات المأمور بها. ولا هي داخلة في حد الصبر المأمور به، بل الصبر قد تكون معه مرارة. وقد لا تكون.

ومن اعتقد أن الصبر لا يكون إلا مع مرارة، وأنه ضد الرضا - فقد تكلم بعرف بعض المتأخرين، وليس ذاك عرف الكتاب والسنة.

فإن الله تعالى أمرنا بالصبر، وأثنى على أصحابه في أكثر من تسعين موضعاً من كتابه.

والله تعالى لا يأمر بما هو مكروه أو ترك الأفضل، ولا يكون ذلك إلا بفعل الحسن، لا بترك الأحسن.

المعنى الصحيح لعبارة «حسنات الأبرار سيئات المقربين»

وبهذا تعرف قول من قال: " حسنات الأبرار سيئات المقربين " مع أن هذا اللفظ ليس محفوظاً عمن قوله حجة، لا عن النبي ﷺ، ولا أحد من سلف الأمة وأئمتها. وإنما هو كلام. وله معنى صحيح وقد يحمل على معنى فاسد.

أما معناه الصحيح فوجهان:

أحدهما: أن الأبرار يقتصرون على أداء الواجبات وترك المحرمات، وهذا الاقتصار سيئة في طريق المقربين.

ومعنى كونه سيئة أن يخرج صاحبه عن مقام المقربين، فيحرم درجاتهم، وذلك مما

(١) حديث حسن رواه أحمد(١/٣٠٧،٣٠٨) واللفظ له والترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح والحاكم (٣/٥٤١،٥٤٢) وقال: روي الحديث بأسانيد عن ابن عباس غير هذا، وفي إسناد أحمد والترمذي: قيس بن الحجاج وهو صدوق، كما في التقريب.

يسوء من يريد أن يكون من المقربين.

فكل من أحب شيئاً وطلبه إذا فاته محبوبه ومطلوبه ساءه ذلك، فالمقربون يتوبون من الاقتصار على الواجبات. لا يقتربون من نفس الحسنات التي يعمل مثلها الأبرار- بل يتوبون من الاقتصار عليها. وفرق بين التوبة من فعل الحسن وبين التوبة من ترك الأحسن والاقتصار على الحسن.

الثاني: أن العبد قد يؤمر بفعل يكون حسناً منه، إما واجباً، وإما مستحباً؛ لأن ذلك مبلغ علمه وقدرته، ومن يكون أعلم منه وأقدر لا يؤمر بذلك، بل يؤمر بما هو أعلى منه، فلو فعل هذا ما فعله الأول كان ذلك سيئاً.

مثال ذلك أن العامي يؤمر بمسألة العلماء المأمونين على الإسلام والرجوع إليهم بحسب قوة إدراكه.

وإن كان في ذلك تقليد لهم. إذ لا يؤمر العبد إلا بما يقدر عليه، وأما العلماء القادرون على معرفة الكتاب والسنة والاستدلال بهما فلو تركوا ذلك وأتوا بما يؤمر به العامي لكانوا سيئين بذلك.

وهذا كما يؤمر المريض أن يصلي قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب.

وكما يؤمر المسافر أن يصلي الظهر والعصر والعشاء ركعتين في السفر.

وهذا لو فعله المقيم لكان مسيئاً تاركاً للفرض، بل فرضه أربع ركعات فإن المرض والسفر لا ينقص العبد عن كونه مقرباً إذا كان ذلك حاله في الإقامة.

فقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: " إذا مرض العبد أو سافر كُتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم "[1].

بخلاف العلم والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال والمسابقة إلى الخيرات، فإن الله يقول: ﴿**يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾[المجادلة: ١١].

ويقول: ﴿**لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ**

---

(١) رواه البخاري، وتقدم. ثم هو من إفراد البخاري. فلم يروه مسلم.

دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾[النساء:٩٥].

ويقـول في كتابه: **﴿لاَ يَسْتَوِي منكُم مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾**[الحديد:١].

ويقـول: **﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾**[التوبة:١٩ - ٢٢].

وكـذلك في الصـحيحين: عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: " لا تسبوا أصـحابي، فـوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحدٍ ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه "(١).

وقال: " خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلوهم، ثم الذين يلوهم "(٢).

فـالعلم والجهاد كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وما يدخل في ذلك هو واجب على الكفاية من المؤمنين. فمن قام به كان أفضل ممن لم يقم به، وإذا ترك ذلك من تعين عليه كان مذنباً مسيئاً، فيكون ذلك سيئة له إذا تركه.

وحسـنة مفضـلة له على غيره إذا فعله. وإن كان القيام بالواجبات بدون ذلك من حسـنات لم يكن قادراً على ذلك. فحسنات هؤلاء الأبرار -وهي الاقتصار على ذلك- سيئات أولئك المقربين.

وكـذلك السابقون الأولون من هذه الأمة فيما فعلوه من الجهاد والهجرة لو تركوا ذلك واقتصروا على ما دونه كان ذلك من أعظم سيئاهم. قال النبي ﷺ: " **لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا** "(٣).

كان الاقتصار على مجرد ذلك من حسنات الأبرار الذين ليسوا من أولئك السابقين.

---

(١) رواه البخاري(٥/١٠)، ومسلم(٢٥٤٠).

(٢) رواه الـبخاري(٥/٣)، ومسـلم(٢٥٣٤)، وصـدر الحديث عنده" خير أمتي القرن الذي بعثت فيهم.." الحديث بنحوه.

(٣) رواه البخاري(٤/٢٨)، ومسلم(١٣٥٣).

وكذلك المرسلون لهم مأمورات لو تركوها كان ذلك سيئاً، وإن كان فعل ما دونها حسنات لغيرهم ممن لم يؤمر بذلك، إلى نظائر ذلك مما يؤمر فيه العبد بفعل لم يؤمر به من هو دونه. فيكون ترك ذلك سيئة في حقه، وهو من المقربين إذا فعله، ويكون فعل ما دون ذلك من حسنات لمن دونه.

وذلك أن الإنسان يفضل على غيره إما بفعل مستحب في حقهما، وإما بما يؤمر به أحدهما دون الآخر فيفعله، وتخصيصه بفعله قد يكون لقدرته وقد يكون لامتحانه بسببه، كمن له والدان فإنه يؤمر ببرهما ويكون بذلك أفضل ممن لم يعمل مثل عمله كما روي عن النبي ﷺ في حق المتصدقين بفضول أموالهم المشاركين لغيرهم في الأعمال البدنية: " **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء** "(١).

فهؤلاء المفضلون في الاقتصار على ما دون هذه الأمور سيئات في حقهم وحسنات لمن ليس مثلهم في ذلك.

فهذان الوجهان كلاهما معنى صحيح لقول القائل: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

المعنى الفاسد لعبارة: «حسنات الأبرار سيئات المقربين»

وأما المعنى الفاسد فأن يظن الظان أن الحسنات التي أمر الله بها أمراً عامًّا يدخل فيه الأبرار ويكون سيئات للمقربين.

مثل من يظن أن الصلوات الخمس ومحبة الله ورسوله والتوكل على الله، وإخلاص الدين لله، ونحو ذلك هي سيئات في حق المقربين.

فهذا قول فاسد غلا فيه قوم من الزنادقة المنافقين المنتسبين إلى العلماء والعباد. فزعموا أنهم يصلون إلى مقام المقربين لا يؤمرون فيه بما يؤمر به عموم المؤمنين من الواجبات، ولا يحرم عليهم ما يحرم على عموم المؤمنين من المحرمات، كالزنا والخمر والميسر.

وكذلك زعم قوم في أحوال القلوب التي يؤمر بها جميع المؤمنين أن المقربين لا تكون هذه حسنات في حقهم.

وكلا هذين (القولين) من أخبث الأقوال وأفسدها.

---

(١) رواه البخاري(١/٢١٣،٢١٤)، ومسلم(٥٩٥)، وتصدير شيخ الإسلام معنى الحديث بصيغة التمريض روي المشعرة بالتضعيف فيه نظر لثبوت الحديث في الصحيحين فيجب مراعاة المصطلحات الحديثية عند التصنيف والله الموفق.

وإنما قلنا: إن التائب من الحسنات إن علم أنها حسنات - وتاب منها فقد أذنب إما بكفر أو فسق أو معصية، وإن لم يعلم أنها حسنات فهو ضال جاهل؛ لأنه إذا تاب مما يسمى حسنة، وكان حسنة في الشريعة حقيقة قد أمر الله بها، فهو راجع عن طاعة الله التي هي طاعته وهي حسنة.

والرجوع عن طاعة الله ودينه لا يخرج عن أن يكون رِدةً عن أصل الدين فيكون كفراً مغلظاً.

وإما عن كماله. هذا لو كان الرجوع بنفس الترك. فإن ترك الإيمان كفر، وترك الواجبات إما فسق وإما معصية، وترك المستحبات المتطوعة يؤخر درجته.

هذا إذا كان تركاً محضاً، فأما إذا اعتقد مع ذلك أن الحسنات التي يحبها الله ورسوله. مما يتاب منها بحيث يندم العبد عليها. فيعتقد أن تركها خير من فعلها.

أو أنها ليست مأموراً بها. أو أنها لا تقرب إلى الله أو لا تنفع عنده، أو أبغضها وكرهها ورجع عنها وتألم من فعلها متديناً بذلك - فهذا كافر مرتد تجب استتابته بلا نزاع بين العلماء- وهذا هو مسمى التوبة. فعلم أن القول "الحسنات يتاب منها" كفر محض.

وأما إن لم يعلم أنها حسنات، بل تاب مما كان يسميه - أو غيره - حسنات، أو كان حسنة في الشريعة و لم يعلم العبد أنه حسنة بل ظن أنه سيئة، أو كان سيئة منهياً عنها، واعتقد المرء أنه حسنة مأمور بها - فهو ضال جاهل، وهذا عليه أن يتوب من هذا الاعتقاد والعمل الذي يعتقد أنه حسنة، كما يتوب كل ضال من الكفار وأهل الأهواء وأهل الكتاب، والمبتدعة كالخوارج والروافض والقدرية والجهمية وغيرهم.

فإن هؤلاء يتوبون مما كانوا يظنونه حسنات، ولا يتوبون مما هو في الشريعة حسنات، ولا يطلقون القول:

إنا نتوب من الحسنات، ولا أن التوبة من الحسنات مشروع للسابقين، ولا أن الذي تبنا منه كان حسنات ولكن يقولون: نتوب مما كنا نظن أنه حسنات وليس بحسنات.

كما قيل:

إذا محاسني اللاتي أدلُّ بها كانت ذنوبي فقل لي: كيف أعتذر؟

وكذلك يتوب المرء مما يعده حسنات له وهو مقصر في فعله، أو خائف من تقصيره

في فعله، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[المؤمنون: ٦٠].

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف؟ فقال: " لا يا بنت الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألا يُقبل منه "[١]. أي من الذين يتقونه في العمل.

والتقوى في العمل بشيئين:

أحدهما: إخلاصه لله، وهو أن يريد به وجه الله لا يشرك بعبادة ربه أحدًا.

والثاني: أن يكون مما أمره الله به وأحبه، فيكون موافقًا للشريعة، لا من الدين الذي شرعه من لم يأذن الله له، وهذا كما قال الفضيل بن عياض في قوله: (ليبلوكم أيكم أحسن عملا).

قال: (أخلصه وأصوبه، وذلك أن العمل إذا كان خالصًا و لم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا و لم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة.

فالسعيد يخاف في أعماله أن لا يكون صادقًا في إخلاصه الدين لله، أو أن لا تكون موافقة لما أمر الله به على لسان رسوله).

ولهذا كان السلف يخافون النفاق على أنفسهم، فذكر البخاري عن أبي العالية قال: "أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه"[٢].

ولهذا كانوا يستثنون فيقول أحدهم: أنا مؤمن إن شاء الله، ومثل هؤلاء يستغفرون الله مما عملوه أو لم يعلموه من التقصير والتعدي، ويتوبون من ذلك.

وهذا مشروع للأنبياء والمؤمنين، كان النبي ﷺ يستغفر بعد الصلاة ثلاثًا[٣].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] قالوا: كانوا يحيون الليل صلاة، ثم يقعدون في السحر يستغفرون، فيختمون قيام الليل بالاستغفار.

---

(١) حديث حسن: رواه أحمد(٢/١٥٩و٢٠٥)، وابن ماجة(٤١٩٨)، والترمذي(٣١٧٥)، وقال: وقد روي هذا الحديث عن عبد الرحمن بن سعيد عن أبي حازم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحو هذا.

(٢)رواه البخاري (١/١٩).

(٣)رواه مسلم (٥٩١).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنْتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩].

وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ - ٣].

لم تأت الشريعة بالتوبة من الحسنات

فإن قيل: قد قال تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ [النور: ٣١].

وفي المؤمنين من لا ذنب له، فيكون أمره بالتوبة أمرًا بالتوبة من الحسنات، وكذلك توبة الأنبياء وهم معصومون؟

قيل: هذا من أعظم الفرية، و لم تأت الشريعة بالتوبة من الحسنات، وهي ما أمر به طاعته وطاعة أنبيائه.

وليس في المؤمنين إلا ومن له ذنب من ترك مأمور أو فعل محظور، كما قال ﷺ: "كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون"[(١)].

وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٣- ٣٥].

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

أصل هذه المقالة هو دعوى العصمة في المؤمنين

وأصل هذه المقالة، وهو دعوى العصمة في المؤمنين وما يشبه ذلك، من أقوال الغالية من النصارى وغالية هذه الأمة، وابتدعها في الملتين منافقوها.

---

(١)حديث حسن. رواه الترمذي (٣٤٩٩) وغيره، وتقدم.

***غلو النصارى في هذه الدعوى:**

قــال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[النساء:٦]

وقــال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُــونَ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٧٩-٨٠].

*** غلو اليهود في هذه الدعوى:**

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَــوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْــبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٠-٣١].

وقــد روي في حــديث عــدي بن حاتم عن النبي ﷺ قال: قلت يا رسول الله: ما عــبدوهم؟ قال: "أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم، فتلك عــبادتهم إيــاهم"(١). وهذا الغلو في النصارى حتى اتخذوا المسيح وأمه إلهين من دون الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ـــ قد ذكروا أن أول من ابتدعه لهم بولص

---

(١) حديث ضعيف: رواه الترمذي (٣٠٩٥) وقال غريب، يعني: ضعيف. رواه أيضًا ابن جرير (١٠/ ٨٠ و٨١) والبيهقــي (١١٦/١٠) والمــزي في تهــذيب الكمال (١٠٩٠/٢) عن عدي بن حاتم بإسناد ضــعيف. قــال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعــين لــيس بمعــروف في الحديث اهـــ. قلت: القائل أبو سليمان جاسم الفهيد الدوسري صاحب كــتاب الــنهج الســديد في تخريج تيسير العزيز الحميد، وضعفه الدارقطني وجزم الحافظ في التقريب بضــعفه، وقد رواه ابن جرير (١٠/٨٠و٨١) والبيهقي (١١٦/١٠) من طريق حبيب بن أبي ثابت عن أبي البختــري عن حذيفة موقوفا بمعناه، وسنده ضعيف منقطع، حبيب مدلس وقد عنعن وأبو البختري لم يسمع من حذيفة (جامع التحصيل ص ٢٢٢) والحديث حسنة الشيخ المحدث ناصر الدين الألباني في غايــة المرام (٦) وأحال الكلام عليه إلى تخريجه لأحاديث كتب (المصطلحات الأربعة) للمودودي ص (١٨ـــ٢٠) غير أنني لم أجده هناك، فليعلم انتهى كلام الأخ جاسم الفهيد حفظه الله.

الذي كان يهوديًّا فأسلم واتبع المسيح نفاقًا ليلبس على النصارى دينهم، فأحدث لهم مقالات غالية، وكثرت البدع في النصارى: في اعتقاداتهم وعباداتهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٧].

- **غلو الشيعة في دعوى العصمة:**

وكذلك أول ما ابتدعت مقالة الغالية في الإسلام من جهة بعض من كان دخل الإسلام وانتحل التشيع.

وقيل: أول من أظهر ذلك عبد الله بن سبأ الذي كان يهوديًّا فأسلم، وكان ممن أقام الفتنة على عثمان، ثم أظهر موالاة علي.

وهو من ابتدع الغلو في علي، حتى ظهر في زمانه من ادعى فيه الإلهية وسجدوا له لما خرج من باب مسجد كندة، فأمر علي رضي الله عنه بتحريقهم بالنار بعد أن أجلهم ثلاثة أيام.

وفي الصحيح: أن ابن عباس بلغه أن عليًّا حرق زنادقة فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي النبي ﷺ أن يعذب بعذاب الله، ولضربت رقابهم بالسيف، لقول النبي ﷺ: "من بدل دينه فاقتلوه"[١] قالوا: وهم هؤلاء، وقد رووا قصتهم مستوفاة.

ورووا أنه أظهر أيضًا سب أبي بكر وعمر حتى طلب علي أن يقتله فهرب منه.

ولما بلغ عليًّا أن أقوامًا يفضلونه على أبي بكر وعمر قال: (لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري).

تحقيقًا لما رواه البخاري في صحيحه عن محمد بن الحنفية أنه سأل أباه: مَنْ خير الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: أبو بكر. قال: ثم من؟ قال: ثم عمر: وقد روى ذلك عن علي من نحو ثمانين طريقًا، وهو متواتر عنه[٢].

وروي هذا المعنى عنه من وجوه مرفوعًا إلى النبي ﷺ، كما رواه الترمذي[٣]. ورواه

(١)رواه البخاري (٩/ ١٨ــ١٩).

(٢)رواه البخاري (٩/٥).

(٣) روى الترمذي في سننه (٣٦٥٥ ــ٣٦٦١) عدة أحاديث في مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه. منها ما رواه من طريق سليمان بن بلال عن هشام بن مروة عن أبيه عن عائشة عن عمر بن الخطاب قال: أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ، وقال الترمذي صحيح غريب

الدارقطني في كتاب "ثناء الصحابة على القرابة وثناء القرابة على الصحابة".

وحينــئذ ابتدع القول بأن عليًا إمام منصوص على إمامته، وابتدع أيضًا القول بأنه معصوم أعظم مما يعتقده المؤمنون في عصمة الأنبياء، بل ابتدع القول بنبوته.

وحدث بإزاء هؤلاء من اعتقد كفره وردته واستحل قتله على ذلك من الخوارج، من اعتقد فسقه أو ظلمه من الأموية وبعض أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم.

ومن لم يعتقد إمامته ولا إمامة غيره في زمانه، أو جعل إمامته وإمامة غيره سواء مع اعتقاده فضله وسابقته.

فهــؤلاء الــثلاثة حدثت بإزاء تلك الثلاثة فالغالية والرافضة والمفضلة، بإزاء المكفرة والمفسقة والمتوقفة عن اختصاصه بالإمامة إذ ذاك.

ثم القائلــون بأنــه إمــام منصوص عليه معصوم تفرقوا في الإمامة بعده تفرقًا كثيرًا مشهورًا في كتب المقالات، منهم (الإثنا عشرية) الذين يقولون بأن الإمامة انتقلت بالنص من واحد إلى واحد إلى المنتظر محمد بن الحسن، الذي يزعمون أنه دخل سرداب سامراء سنة ستين ومائتين وهو طفل له سنتان أو ثلاث. وأكثر ما قيل خمس.

ويزعمون مع ذلك أنه إمام معصوم، يعلم كل شيء من أمر الدين، ويجب الإيمان به علــى كــل أحــد، ولا يصح إيمانه إلا بالإيمان به، ومع هذا فله اليوم أكثر من أربعمائة وأربعين سنة لم يعرف له عين ولا أثر، ولا سمع له أحد بما يعتمد عليه من الخبر.

وأهل المعرفة بالنسب يقولون: إن الحسن بن علي العسكري، والده لم يكن له نسل ولا عقــب، واتفق العقلاء على أنه لم يدخل السرداب أحد، وأجمع أهل العلم بالشريعة على ما دل عليه الكتاب والسنة أن هذا لو كان موجودًا لكان من أطفال المسلمين الذين يجــب الحجــر عليهم في أنفسهم وأموالهم حتى يبلغ ويؤنس منه الرشد، كما قال تعالى: **﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾** [النساء:٦].

وقــد بســطنا القول في بيان فساد هذا في ذكر ما خاطبنا به الشيعة قبل هذا، ثم في كتبانا الكبير المسمى بــ(منهاج أهل السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية).

قلــت: وهو على شرط الشيخين وقد صنف -الشيخ عبد القادر بن جلال الدين المحلي الأنصاري (ت ١٠٣٣) رحمه الله- كتابًا جامعًا في مناقب الصديق رضي الله عنه.

ومن الرافضة من يزعم أن الإمام بعد علي أو بعد الحسين هو ابن علي محمد بن الحنفية وهم "الكيسانية".

ومنهم طوائف كثيرة ليس هذا موضعها، إذ ليس في نحل الأمة أكثر تفرقًا واختلافًا منهم، فإن أول من ابتدع مقالتهم كان منافقًا زنديقًا لم يك مؤمنًا، ثم انتشرت في أقوام لم يعرفوا أخبار (المسلمين الأوائل) و لم يقصدوا الزندقة.

والمقصود هنا أن هؤلاء هم أول من أظهر القول بأن في المؤمنين من لا ذنب له كما قال هذا السائل، وادعوا عصمة الأئمة الاثني عشر حتى عن الخطأ في الاجتهاد ونسيان العلم، وعن عدم معرفة شيء من العلم، فقالوا إنهم يعلمون كل شيء، وادعوا عصمتهم من صغير الذنوب وكبيرها وغير ذلك، وادعوا ذلك في الأنبياء أيضًا؛ لأنهم أفضل من الأئمة.

* **غلو الصوفية**[1]:

و لم يقل في الأمة غيرهم على هذا الوجه، لكن ظهر في صنفين من الأمة بعض بدعتهم طائفة من النساك والعباد يزعمون في بعض المشايخ أو فيمن يقولون إنه ولي الله أنه لا يذنب، وربما عينوا بعض المشايخ وزعموا أنه لم يكن لأحدهم ذنب.

وربما قال بعضهم: النبي معصوم، والولي محفوظ.

ومن غلية هؤلاء من يعتقد في بعض المشايخ من الإلهية والنبوة ما اعتقدته الغالية في علي، ويزعم أن الشيخ يخلق ويرزق ويدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار، ويعبده ويدعوه كما يدعو الله، ويقول: كل رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان فإني لا أريده.

ويذبح الذبائح باسمه، ويصلي ويسجد إلى جهة قبره، ويستغيث به في الحاجات كما يستغاث بالله تعالى.

فأما ضلال هذه الغلية فشرك واضح قد بيناه في غير هذا الموضع، فإنه لا تجوز عبادة أحد دون الله، ولا التوكل عليه والاستعانة به، ودعاؤه ومسألته كما يدعى الله ويسأل الله.

قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ

---

(١) هذا الاسم "الصوفية" دخل على الإسلام راجع كتابنا بدع الصوفية والكرامات والموالد. ط دار الكتب العلمية ببيروت.

تَحْـويلاً أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[الإسراء:٥٦-٥٧].

قـال تعـالى: ﴿قُـلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّـمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

وقال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقـال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلاَ يَعْقِلُونَ قُل للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[الزمر: ٤٣-٤٤]

وقال تعالى: ﴿فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء:٢١٣].

وقـال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

لا عصمة لأحد بعد الرسول ﷺ

والمقصـود هنا ذكر العصمة، فقد أجمع جميع سلف المسلمين وأئمة الدين من جميع الطوائـف أنـه ليس بعد رسول الله ﷺ أحد معصوم ولا محفوظ لا من الذنوب ولا من الخطايـا، بل من الناس من إذا أذنب استغفر وتاب، وإذا أخطأ تبين له الحق فرجع إليه، وليس هذا واجبًا لأحد بعد رسول الله ﷺ بل يجوز أن يموت أفضل الناس بعد الأنبياء، وله ذنب يغفره الله، وقد خفي عليه من دقيق العلم ما لم يعرفه.

ولهـذا اتفقوا على أنه ما من الناس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله ﷺ وذهب بعض الناس إلى أن قول أبي بكر وحده حجة وإن خالفه عمر.

ثم قول عمر حجة وإن خالفه عثمان وعلي. وأما أئمة الإسلام فلا يقولون بهذا، بل تنازعوا فيما إذا اتفق أبو بكر وعمر على قول، هل يكون حجة؟ على قولين هما روايتان عن أحمد:

والأظهر في الموضعين أن ذلك حجة، لقوله ﷺ: "اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر

وعمر"[١].

وقوله ﷺ: "إن يطع القوم أبا بكر وعمر يرشدوا"[٢].

وقوله: "لو اتفقتما على شيء لم أخالفكما"[٣].

ولقوله: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة"[٤].

وقد قال: "الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تصير ملكًا"[٥]، وقد كانت خلافة علي تمام الثلاثين الأشهر التي تولاها الحسن رضي الله عنه. واتفقوا على أنه ليس من شرط ولي الله أن لا يكون له ذنب أصلاً، بل أولياء الله تعالى هم الذين قال الله فيهم: (**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**)[يونس: (٦٢–٦٣)].

ولا يخرجون عن التقوى بإتيان ذنب صغير لم يصروا عليه، ولا بإتيان ذنب كبير أو صغير إذا تابوا منه.

قال تعالى: ﴿**وَالَّذي جَاءَ بالصِّدْق وَصَدَّقَ به أُولَئكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلكَ جَزَاءُ الْمُحْسنِينَ لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[الزمر: (٣٢–٣٥)].

---

(١) حديث رواه الترمذي (٣٦٦٢) وقال: حسن وابن ماجة (٩٧) والحاكم (٧٥/٣) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه مسلم (٦٨١) من حديث أبي قتادة مطولاً وفيه قصة.

(٣) حديث ضعيف: رواه أحمد (٢٢٧/٤) من حديث عبد الرحمن بن غنم مرفوعًا بلفظ: ولو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما، وقال الهيثمي في المجمع (٥٣/٩)/ رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن ابن غنم لم يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم قلت وفي إسناده أيضًا شهر بن حوشب، قال الحافظ في التقريب صدوق كثير الإرسال والأوهام.

(٤) حديث صحيح: رواه الترمذي (٢٦٧٦) وقال: حسن صحيح، وليس عنده وإياكم ومحدثات، وابن ماجة (٤٣) بغير تلك الزيادة وأبو داود (٤٦٠٧) واللفظ له، ولأحمد (١٢٦/٤) وما بين حاصرتين سقط من الأصل المطبوع، فاستدركته من سنن أبي داود (٢٠١/٤) والمسند وليس عندهم قوله من بعدي ولا يوجد شيء اسمه بدعة حسنة بل وكل بدعة ضلالة.

(٥) حديث حسن: رواه أحمد (٢٢٠/٥) وأبو داود (٤٦٤٦و ٤٦٤٧) والترمذي (٢٢٢٦) وقال حسن وقد رواه غير واحد عن سعيد بن جمهان، ولا نعرفه إلا من حديث سعيد بن جمهان، قلت: هو صدوق له أفراد كما في التقريب وصححه الحاكم (٧٣/١).

وقـال تعـالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقـال تعـالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣١-٣٢].

وقال تعالى: ﴿لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٨].

والفريق الثاني: قوم من أهل الكلام من المعتزلة ومن اتبعهم، وزعموا أن الأنبياء عليهم السلام معصومون مما يتاب منه، وأن أحدًا منهم لم يتب عن ذنب وحرفوا نصوص الكتاب والسنة، كعادة أهل الأهواء في تحريف الكلم عن مواضعه، والإلحاد في أسماء الله وآياته.

مذهب السلف وأهل السنة هو القول بتوبة الأنبياء

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها ومن اتبعهم على ما أخبر الله به في كتابه[1] وما ثبت عن رسوله ﷺ من توبة الأنبياء عليهم السلام من الذنوب التي تابوا منها، وهذه التوبة رفع الله بها درجاتهم، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

وعصمتهم هي من أن يقروا على الذنوب والخطأ، فإن من سوى الأنبياء يجوز عليهم الذنب والخطأ من غير توبة، والأنبياء عليهم السلام يستدركهم الله فيتوب عليهم ويبين لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ

---

(١) في الأصل المطبوع على ما أخبر الله في كتابه وهو غلط وصوابه ما أثبته.

﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[الحج: ٥٢-٥٣].

وقد ذكر الله تعالى قصة آدم ونوح وداود وسليمان وموسى وغيرهم، كما تلونا بعض ذلك فيما تقدم فيما ذكرنا من توبة الأنبياء واستغفارهم، كقوله:

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

وقول نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[هود: ٤٧].

وقول إبراهيم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[الشعراء: ٨٢].

وقوله سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ إلى قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب) إلى قوله: (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[ص: ١٧-٣٥].

اليهود فرطوا في حق الأنبياء

ولما كان اليهود ضد النصارى حيث قتلوا الأنبياء وكذبوهم جحدوا نبوة داود، وهم لنبوة سليمان أجحد، وزعموا أهما كانا حكيمين، وأن داود كان مسيحًا، وقد نزه الله سليمان مما تلته الشياطين على ملكه مما اتبعه السحرة من الصابئة والمشركين ومن اتبعهم من أهل الكتاب والمنتسبين إلى هذه الملة والسامرة أعظم جحودًا لا يقرون إلا بنبوة موسى خاصة، ويوشع بعده.

الإسلام هو الصراط المستقيم

والله سبحانه قد هدى الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، كما اختلفت الأمتان في المسيح، فقال تعالى: ﴿**ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [مريم: ٣٤-٣٥].

وكذلك المنحرفون من هذه الأمة قد اختلفوا في علي وغيره كما تقدم، فتجد أحدهم يغلو في الرجل العالم والعابد، حتى يعتقد عصمته، أو يجعله كالأنبياء أو فوقهم، أو يجعل لهم حظًا في الإلهية.

وتجد الآخر يقدح في ذلك، فربما كفره أو فسقه أو أخرجه عن أن يكون من أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون.

فــالأول يجعل ما صدر منه من اجتهاد وعمل صوابًا وإن كان خطأ وذنبًا، والآخر يجعل صدور الذنب والخطأ منه مانعًا من ولايته ووجوب موالاته.

وكــلا القــولين خطأ موروث عن أهل الكتابين. كمال قال ﷺ: في الحديث المتفق علــيه: "لتــركبن ســنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه". قالوا: اليهود والنصارى قال: "فمن؟"[(١)].

وقد ثبت في صحيح البخاري، عن النبي ﷺ أنه قال في (أم القرآن): "إنها أفضل سورة في القــرآن، وإنــه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها، والقرآن العظيم الذي أعطيه النبي ﷺ[(٢)] حيث قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾ [الحجر: ٨٧].

وثــبت في "صــحيح مسلم" أن الله تعالى يقول: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصــفين، فنصــفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين قال الله: حمدني عبدي. فإذا قال: الرحمن الرحيم. قال: أثنى علي عبدي. فإذا قال:

---

(١) رواه الــبخاري (١٢٦/٩ــــ١٢٧) ومسلم (٢٦٦٩) عن أبي سعيد الخدري وفي الباب عن أبي هريرة رواه أحمد (٨٣٢٢) وابن ماجة (٣٩٩٤) وإسناده صحيح.

(٢) حــديث صــحيح رواه الترمذي (٢٨٧٥) وقال: حسن صحيح، وابن حبان (١٧١٤) مختصرًا والحاكم (٢٥٨/٢) باختصار صدره وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي وهو كما قالا.

مالك يوم الدين. قال مجدني عبدي. فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل. فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، قال: فهؤلاء لعبدي، ولعبدي ما سأل"(١).

وهذه البدع هي وغيرها من البدع لا بد وأن تنافي كمال الإيمان، وتقدح في بعض حقائقه، فإن رأس الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبد ورسوله.

فلا بد من إخلاص الدين لله، حتى لا يكون في القلب تأله لغير الله، فمتى كان في القلب تأله لغير الله فذاك شرك يقدح في تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ولا بد من الشهادة بأن محمدًا رسول الله، وذلك يتضمن تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته فيما أمر بهن ومن ذلك الإيمان بأنه خاتم النبيين، وأنه لا نبي بعده، فمتى جعل لغيره نصيبًا من خصائص الرسالة والنبوة كان في ذلك نصيبًا من الإيمان بنبي بعده ورسول بعده. كالمؤمنين بنبوة مسيلمة والعنسي وغيرهما من المتنبئين الكذابين، كما قال ﷺ: "إن بين يدي الساعة ثلاثين دجالاً كذابين كلهم يزعم أنه رسول الله"(٢).

عصمة الأئمة تعني مضاهاتهم للرسول

فمن أوجب طاعة أحد غير رسول الله ﷺ في كل ما يأمر به، وأوجب تصديقه في كل ما يخبر به، وأثبت عصمته أو حفظه في كل ما يأمر به ويخبر من الدين - فقد جعل فيه من المكافأة لرسول الله والمضاهاة له في خصائص الرسالة بحسب ذلك، سواء جعل ذلك المضاهي لرسول الله ﷺ بعض الصحابة أو بعض القرابة الأئمة والمشايخ أو الأمراء من الملوك وغيرهم.

وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩].

فغاية المطاع بإذن الله أن يكون من أولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم من العلماء والأمراء، ومن يدخل في ذلك من المشايخ والملوك وكل متبوع، فإن الله تعالى أمر بطاعتهم مع طاعة

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥) بنحوه.

(٢) حديث صحيح: رواه أحمد (٥٦٩٤، ٥٦٩٥، ٥٨٠٨، ٥٩٨٥) عن ابن عمر بنحوه وفي الباب عن أبي هريرة رواه البخاري (٩/٧٤) ومسلم (١٥٧).

رسوله، كما قال: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم). فلم يقل: وأطيعوا أولي الأمر، ليبين أن طاعتهم فيما كان طاعة للرسول أيضًا، إذ اندراج طاعة الرسول في طاعة الله أمر معلوم، فلم يكن تكرير لفظ الطاعة فيه مؤذنًا بالفرق، بخلاف ما لو قيل: أطيعوا الرسول وأطيعوا أولي الأمر منكم، فإنه قد يوهم طاعة كل منهما على حياله.

وقد ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح أنه قال: "إنما الطاعة في المعروف"[١].

وقال: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"[٢].

وقال: "على المرء الطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"[٣].

ولهذا قال سبحانه بعد ذلك: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً) فلم يأمر عند التنازع إلا بالرد إلى الله والرسول دون الرد إلى أولي الأمر، ولهذا كان أولو الأمر إذا اجتمعوا لا يجتمعون على ضلالة، فإذا تنازعوا فالرد إلى كتاب الله وسنة رسوله لا إلى غير ذلك من عالم أو أمير ومن يدخل في ذلك من المشايخ والملوك وغيرهم.

ولو كان غير الرسول معصومًا أو محفوظًا فيما يأمر به ويخبر به لكان ممن يرد إليه مواقع النزاع، كما يرده القائلون بإمام معصوم إليه، وكما جرت عادة كثير من الأتباع أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى الإمام والقدوة الذي يقلدونه. ومعلوم أن علماء الطوائف ومقتصديهم لا يرون هذا الرد واجبًا على الإطلاق، لكن قد يفعلون ذلك؛ لأنه لا طريق لهم إلى معرفة الحق وأتباعه إلا ذلك لعجزهم مما سوى ذلك، فيكونون معذورين.

وقد يفعلون ذلك اتباعًا لهواهم في محبتهم لذلك الشخص وبغضهم لنظرائه فيكونون غير معذورين، ولكن من اعتقد من هؤلاء في متبوعه أنه معصوم أو أنه محفوظ عن الذنوب والخطأ في الاجتهاد، فذلك مردود عليه بلا نزاع بين أهل العلم والإيمان؛ ولهذا إنما يقول ذلك غلاة الطوائف الذين يغلب عليهم اتباع الظن وما تهوى الأنفس، وقد غلب

---

(١)رواه البخاري (٩/٧٨-٧٩) ومسلم (١٨٤٠).

(٢)حديث صحيح: رواه أحمد (٥/٦٦) عن عبد الله بن الصامت مرفوعًا بلفظ (لا طاعة لأحد في معصية الله تبارك وتعالى) وقال الهيثمي في المجمع (٥/٢٢٦)، رواه أحمد بألفاظ والطبراني باختصار وفي بعض طرقه: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ورجال أحمد رجال الصحيح).

(٣)رواه البخاري (٩/٧٨)، ومسلم (١٨٣٩) وسياقه أقرب لسياق المصنف شيخ الإسلام.

على أحدهم جهله وظلمه.

الغلو في البشر يؤدي إلى الشرك

وكما أن الغلو في غير الرسول ﷺ فيه قدح في منصب الرسول وما خصه الله به، وهو أحد أصلي الإسلام، فكذلك الغلو في غير الله فيه قدح فيما يجب لله من الألوهية وفيما يستحقه من صفاته.

فمن غلا في البشر أو غيرهم فجعلهم شركاء في الألوهية أو الربوبية فقد عدل بربه وأشرك به وجعل له ندًّا، ومن زعم أن الله ذم أحدًا من البشر أو عاقبه على ما فعله، و لم يكن ذلك ذنبًا، فقد قدح فيما أخبر الله به وما وجب له من حكمته وعدله.

فالجاهل يريد تنزيه الصحابة أو العلماء أو المشايخ من شيء لا يفيدهم ولا يضرهم ثبوته فيقدح في الرسول أو في الله تعالى، ويريد تنزيه الأنبياء عما لا يضرهم ثبوته، بل هو رفع درجة لهم، فيقدح في الربوبية، فتدبر هذا فإنه نافع.

بطلان القول بعصمة الأنبياء من التوبة من الذنوب

والقائلون بعصمة الأنبياء من التوبة من الذنوب ليس لهم حجة من كتاب الله وسنة رسوله، ولا لهم إمام من سلف الأمة وأئمتها، وإنما مبدأ قولهم من أهل الأهواء كالروافض والمعتزلة، وحجتهم آراء ضعيفة من جنس قول الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم الذين قال الله فيهم: ﴿**لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**﴾ [الحج: ٥٣].

وعمدة من وافقهم من الفقهاء أن الاقتداء بالنبي ﷺ في أفعاله مشروع، ولولا ذلك ما جاز الإقتداء به وهذا ضعيف؛ فإنه قد تقدم أهم لا يقرون، بل لا بد من التوبة والبيان. والاقتداء إنما يكون بما استقر عليه الأمر، فأما المنسوخ والمنهي عنه والمتوب منه فلا قدوة فيها، فالأفعال التي لم يقر عليها أولى بذلك.

تفضيل مذهب أهل السنة في ذلك

وأما مذهب السلف والأئمة وأهل السنة والجماعة والقائلين بما دل عليه الكتاب والسنة من توبة الأنبياء من الذنوب، فقد ذكرنا من آيات القرآن ما فيه دلالات على ذلك.

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه كان يدعو:

"اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي.

اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير"(١).

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في استفتاح الصلاة:

"اللـهم أنـت الملك لا شريك لك، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعًا فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت" فقال ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم "اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسـررت وما أعلنت، (وما أسرفت) وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت"(٢).

وفي الصـحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسكت بين التكبير والقراءة إسكاته، فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله، إسكاتك بين التكبير والقراءة ما تقـول؟ قال: أقول: "اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللـهم نقني من الخطايا كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد"(٣).

وفي الصحيحين: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي" يتأول القرآن(٤).

وفي الصـحيح أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول في سـجوده: "اللـهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره، وقليله

---

(١)رواه البخاري (٨/١٠٥) ومسلم (٢٧١٩) واللفظ له.

(٢) رواه مسـلم (٧٧١) وعنده قوله: أنت الملك لا إله إلا أنت، وسقط من الأصل المطبوع قوله وما أسرفت فأثبتها بين حاصرتين.

(٣) رواه البخاري (١/١٨٩) ومسلم (٥٩٨) واللفظ المرفوع للبخاري.

(٤) رواه البخاري (١/٢٠٧) ومسلم (٤٨٤).

وكثيره"[١].

وقد تقدم قوله في الحديث الصحيح: "إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة"[٢].

وقوله: "يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة"[٣].

وقوله: "إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة"[٤].

وتقدم أيضًا أنهم كانوا يعدون لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول: "رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور مائة مرة"[٥].

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ثم يقول: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده"[٦].

وفي السنن عن علي أنه أتي بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب قال: "بسم الله" فلما استوى على ظهرها قال: "الحمد لله سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون" ثم قال: "الحمد لله ثلاثًا سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت"، ثم ضحك، فقيل: من أي شيء ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت ثم ضحك، فقلت: من أي شيء ضحكت يا رسول الله ﷺ؟ فقال: "إن ربك ليعجب من عبده إذا قال رب اغفر لي ذنوبي، يقول: يعلم أن الذنوب لا يغفرها أحد غيري"[٧].

---

(١) رواه مسلم (٤٨٣) وليس عنده قليله وكثيره.

(٢) رواه البخاري، وتقدم.

(٣) رواه مسلم وتقدم.

(٤) رواه مسلم وتقدم.

(٥) حديث صحيح، رواه أحمد وغيره، وتقدم.

(٦) رواه البخاري (٩/١٠٢) ومسلم (١٣٤٤) واللفظ للبخاري.

(٧) حديث صحيح: رواه الترمذي (٣٤٤٦) وقال حسن صحيح، وأبو داود (٢٦٠٢) وعنده: ثلاث مرات، بدلاً من ثلاثًا، وزاد أيضًا بعدها، ثم قال: الله أكبر ثلاث مرات، وسياقه أقرب لسياق المصنف شيخ الإسلام.



الفهرس